الافتراض القرآني

دراسة في التعبير

رسالة تقدّم بها الطالب

عليّ حسين حمّادي حمود التميميّ

إلى مجلس كليّة التربية – جامعة ذي قار

وهي جزء من متطلّبات نيل درجة الماجستير

في اللغة العربيّة وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتورة

سعاد كريم خشيف الإزيرجاويّ

إقرار المشرف

أشهد أنّ هذه الرسالة الموسومة بـ (الافتراض القرآنيّ ، دراسة في التعبير) قد أعدّها طالب الماجستير (عليّ حسين حمّادي) تحت إشرافي في قسم اللغة العربيّة – كليّة التربية – جامعة ذي قار ، وهي جزء من متطلّبات نيل درجة الماجستير ، أوصي بمناقشتها .

التوقيع

الاسم : أ . م . د . سعاد كريم خشيف

التأريخ : / / 2010

بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

التوقيع :

د : رافد مطشر سعيدان

رئيس قسم اللغة العربيّة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	9-7
التمهيد:	47 - 10
1- الافتراض : لغةً واصطلاحاً	20-11
2- الافتراض في العلوم	23 - 20
3- علماء البلاغة وتنوّع المصطلح	33 - 24
4- الافتراض وعلوم البلاغة	38– 33
5 – الافتراض بين المكيّ والمدنيّ	42 - 39
6- إشكاليّات تحديد الافتراض عند المفسّرين	47 - 43
الفصل الأوّل :طرق التعبير عن معنى الافتراض	96 -48
1- الشرط	76 - 49
إنْ	56- 49
لو	68 - 57
لئنْ	74 -69

مَنْ	74- 76
2- الطلب :	76
أ- الاستفهام : (الهمزة – أم المنقطعة)	76 - 84
ب – النهي	84
ج – الأمر	85 - 86
3- النفي	86 - 88
4 - المثل (العقليّ – المجازيّ)	88 -96
الفصل الثاني :أنواع الافتراض	97 - 147
1- الافتراض الممكن	98 -104
2 – الافتراض المحال	105 - 113
3 – الافتراض الزمانيّ	113 -122
4 – الافتراض المكانيّ	123 - 130
5 – الافتراض التصويريّ	131 - 140
6 – الافتراض للواقع	140 - 143
7 – الافتراض للذي سيقع	144 - 147
الفصل الثالث : دلالات الافتراض القرآنيّ :	148- 204

1 – الاستدراج وإرخاء العنان للخصم	157 - 149
2 – إلجام الخصم بالحجّة	161 -157
3 – الإلزام والتبكيت	163 -161
4 – الإلهاب والتهييج	168 -163
5 – الإنكار والتعجيب	171 -168
6 – الإهانة	172
7 – التسليم	174 - 173
8 – التعجيز	175 - 174
9 – التعريض	180 - 176
10 – التكذيب	181 - 180
11 – التهكم والاستهزاء	184 - 181
12 – التهويل	190 - 185
13 – التوبيخ	193 - 190
14 – المبالغة	199 -193
15 – مجاراة الخصم	201 - 200
16 – الوعيد	204 - 202
الخاتمة ونتائج البحث	209 -205

المصادر والمراجع	210- 227
ملخص بالإنكليزيّة	

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين ، وآله الطيبين الطاهرين ومَن تبعهم وسار على هديهم إلى يوم الدين .

كانت رغبتي في دراسة القرآن الكريم حين كنت طالباً في الدراسات الأوّلية ، ولم يوّفقني الله تعالى لذلك ، حتّى تمّ قبولي في الدراسات العليا ، والدراسة القرآنيّة نصب عيني ، ولها من النفس ما لها ، وبعد موافقة الدكتورة سعاد كريم خشيف الإزيرجاويّ على الإشراف على مرحلة إعداد الرسالة عرضت عليّ موضوع (الافتراض القرآني) عنواناً للرسالة . ولعلّ الإشارة الأولى لهذا الموضوع كانت لمؤلف محدث ،هو محمود البستانيّ في كتابه (البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ)، الذي تحدّث فيه عن الفرضيّة في القرآن الكريم ، وذكر لها طريقتين : مباشرة ، وغير مباشرة . فكانت إشارته النقطة الأولى التي يمكن أنْ ينطلق منها البحث في الموضوع بعد أنْ أصبح عنوان الرسالة (الافتراض القرآنيّ ، دراسة في التعبير) .

وكانت الخطّة الموضوعة للدراسة تقوم على ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد ومتلوّة بخاتمة . بحثت في التمهيد ، مصطلح الافتراض في اللغة والاصطلاح ، وعلاقة الافتراض بالعلوم الإنسانيّة، متتبّعاً هذا المصطلح عند العلماء القدامى والمحدثين ، ثمّ في علاقة الافتراض بعلوم البلاغة ، والافتراض في العهد المكيّ والمدنيّ، وإشكاليّات الافتراض عند علماء التفسير .

أمّا فصول الرسالة ، فهي ثلاثة فصول ، الفصل الأوّل قد تناولت فيه طرق التعبير عن الافتراض ، وتضمّنت هذه الطرق: الشرط . وأهم أدواته هي (إنْ – لو– لئن – مَن) ، الاستفهام . وأهم أدواته (الهمزة – أم المنقطعة) ، ثمّ في طرق أخرى للافتراض ، كان أهمّها : النهي ، والأمر ، والنفي ثمّ المثل القرآنيّ بنوعيه :العقليّ ، والمجازيّ.

أمّا الفصل الثاني ، فكان في أنواع الافتراض ، وهي خمسة أنواع (الممكن – المحال – الزمانيّ – المكانيّ – التصويريّ) فضلاً عن الافتراض للواقع ولما سيقع . وأمّا الفصل الثالث فدرس غايات الافتراض ودلالاته، وٱعتمدت في ذلك على كتب التفسير ، فضلاً عن عدد من الكتب البلاغيّة التي تناولت الآيات القرآنيّة ، وأعطت الدلالة المعنويّة لها ، وقد رتبت ذلك بحسب الترتيب المعجميّ. ثمّ جئت بالخاتمة التي تتضمّن أهم نتائج الدراسة .

وقد أعتمدت على مصادر كثيرة ومتنوّعة شملت اللغويّة ، والنحويّة ، والبلاغيّة ، وكتب التفسير ، فأهمّ المصادر اللغويّة ، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانيّ ، والفروق اللغويّة لأبي هلال العسكريّ والمعجمات مثل لسان العرب لابن منظور، وأهمّ المصادر النحويّة ، كتاب سيبويه ،ومغني اللبيب لابن هشام ، ومعاني النحو لفاضل السامرّائيّ ،والمفصّل في تأريخ النحو لمحمّد خير الحلوانيّ ، وتعدّد المعنى الوظيفيّ للأدوات النحويّة لعبد الكاظم الياسريّ ، أمّا البلاغيّة ، فأهمّها ، تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضيّ والطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلويّ ، ومن بلاغة النظم العربيّ لعبد العزيز عرفة ،وعلم المعاني وعلم البديع لعبد العزيز عتيق، ومعجم المصطلحات البلاغيّة لأحمد مطلوب . أمّا كتب التفسير ، فأهمّها الكشّاف للزمخشريّ وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاويّ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ، وروح المعاني للآلوسيّ والميزان في تفسير القرآن للطباطبائيّ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، فضلاً عن كتب علوم القرآن التي أهمّها ، البرهان في علوم القرآن للزركشيّ ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطيّ .

وقد واجه البحث صعوبات كثيرة لعلّ من أهمها ، صعوبة التمييز والوصول إلى الدلالة الدقيقة في التعبير الافتراضيّ ، إذ قد تتنوّع الدلالات وتختلف آراء العلماء في ذلك ، فيجد الباحث صعوبة الحسم في أدق الدلالات وأقربها إلى السياق ، فضلاً عن شحّة المصادر وعدم توفرها .

ولا أنسى أنْ أقدم شكري الخاص إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة سعاد كريم خشيف ، للجهد الكبير الذي بذلته معي في تقويم الرسالة ، وإبداء ملاحظاتها على الفصول وتصحيح مسارها وترتيب فقراتها ، فكانت مهندسة في منهج البحث وعالمة في طريقة التعبير عن الفكرة وصياغتها على أكمل وجه ، فجزاها الله عن هذا الجهد خير الجزاء في الدنيا والآخرة لما فيه من خدمة لكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . كما أقدم شكري لكلّ مَن أعانني على إكمال عملي في الرسالة ، في المصادر التي يرفدني بها أو بملاحظة قيّمة يشير عليّ بها . ولا يفوتني أنْ أشكر السيد خالد حوير الشمس من كليّة الآداب جامعة ذي قار عمّا أبداه لي من يد العون .

وفي الختام فلا أدّعي لجهدي هذا الكمال والتمام ، ولكن حسبي فيما كتبت أني قد حاولت وما توفيقي إلاّ بالله تعالى .

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وآله الطيبين الطاهرين .

التمهيد :

1- معنى الافتراض لغةً واصطلاحاً.

2- الافتراض في العلوم .

3- علماء البلاغة وتنوّع المصطلح.

4- الافتراض وعلوم البلاغة.

5- الافتراض بين المكيّ والمدنيّ .

6- إشكاليّات تحديد الافتراض عند المفسّرين.

1- معنى الافتراض في اللغة والاصطلاح :

الافتراض[1] لغةً :

هو من فرضت الشيء أفرضه فرضاً ، وفرّضته للتكثير أي : أوجبته ، وفرض الله علينا كذا، وافترض أي : أوجب، والإسم الفريضة، وقوله تعالى :﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور1]وقرئ (وفرّضناها)، فمَن خفّف أراد : ألزمناكم العمل بما فُرض فيها ، ومَن شدّد فعلى وجهين : أحدهما على التكثير على معنى : إنّا فرضنا فيها فروضاً، والآخر يكون على معنى بيّنا وفصّلنا ما فيها من الحلال والحرام والحدود ، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [التحريم 2] ، أي : بيّنها . والفرض : الحزّ في القدح، ومنه فرض الصلاة وغيرها إنّما هو لازم للعبد كلزوم الحزّ للقدح . والفرض : ضرب من التمر . والفرض : الترس . والفرض : الهبة ، يقال : ما أعطاني قرضاً ولا فرضاً . والفرض : القراءة ، يقال : فرضت جزئي أي قرأته . والفرض : السُنّة ، فرض رسول الله ﷺ أي سنّ ، وقيل : فرض رسول الله أي أوجبه وجوباً لازماً . والفرض : جند يفترضون . وفرض له في العطاء يفرض فرضاً وأفرض له جعل له فريضة. والفرض : مصدر كلّ شيء تفرضه ، فتوجب على إنسان بقدر معلوم ، والأسم الفريضة . وفرض مسواكه فهو يفرضه فرضاً ، إذا قرضه بأسنانه . والفارض: الضخم من كلّ شيء ، الذكر والأنثى فيه سواء ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴾ [البقرة 8 6] ، أي : الهرمة ، وقيل : الكبيرة العظيمة . والفرضة : المشرعة ، وجمعها فراض ، يقال : سقاها بالفراض ، أي من فرضة النهر ، والفرضة : هي الثلمة التي في النهر .

---

[1] ينظر: كتاب العين ، الخليل الفراهيديّ 3 / 313 ، وتهذيب اللغة ، الأزهريّ 12 / 13 ــ 15،ومعجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس 4 / 488 ــ 489 ،وتاج اللغة وصحاح العربيّة ،الجوهريّ 4 / 233 -234، و أساس البلاغة ، الزمخشريّ / 470، ومختار الصحاح ،الرازيّ / 498 ــ 499 ، ولسان العرب ،ابن منظور 5 / 114 ــ 115 ،59 ، والقاموس المحيط / 599 ، وتاج العروس ، مرتضى الزبيديّ 18 / 475 ــ 488 .

ومن الجدير بالذكر أنّ (فرض) من الألفاظ التي تندرج تحت (المشترك اللفظيّ) ، فقد ذكر آبن قتيبة [ت276 هـ] في باب (اللفظ الواحد للمعاني المختلفة) أنّ معنى (فرض) هو وجوب الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ [البقرة197] ، أي أوجبه على نفسه . وقال تعالى :﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة237] أي : ألزمتم أنفسكم . وقوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور1] أي : بيّناها . وقوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾[الأحزاب 38] ، أي : فيما أحلّ الله له[1] .

ونقل محقّق كتاب الكلّيات للكفويّ [ت 1094 هـ]في الهامش أنّه ورد في إحدى مخطوطات الكتاب ، أنّ ((كلّ موضع ورد (فرض الله عليه) ففي الإيجاب ، وما فرض الله له وأراد في مباح أدخل الإنسان نفسه فيه ... والفريضة اسم من الافتراض وهو الإيجاب ، ثم جعلت بمعنى المفترض ثم نقل إلى المعنى الشرعيّ الأعمّ من الشرط والركن))[2]

ورأى القاضي عبد الجبّار [ت 415 هـ] أنّ الأصل في الفرض التقدير لأنّه يستعمل في الواجب ، فقال : ((ويوصف الواجب بأنّه فرض ، إذا علم من حاله ما قلناه ، وأوجبه موجب . ولذلك نُقِل استعماله فيما لم يقدّر بالشرع ، ولم يوجب به .ولذلك لا يستعمل فيه تعالى . ولا يبعد أنْ يكون إنّما سمّى بذلك ؛ لأنّ أصلَ الفرض التقديرُ. ولذلك قال تعالى :﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [النور 1] ويقال في المواريث فرائض . وقيل في الزكاة فرائض الإبل والغنم . وعلم أنّ الواجب الشرعيّ لا بد من ورود التقدير في وجوبه ، فقيل فيه : إنّه فرض ، ولذلك قلّ استعماله في العقل))[3] . وقد كثر آستعمال مصطلح (الفرض) ملازماً لمصطلح (التقدير)في كتب التفسير فيما تعرض للآيات الواردة على سبيل الافتراض ، ويبدو أنّ بينهما تلاقياً ، فالتقدير : ((أنْ يعطى الموجود معنى المعدوم أو المعدوم معنى الموجود ، كما في قوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ

---

[1] ينظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبةالدينوريّ / 261 ، وينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطيّ 3 / 132- 133 .

[2] الكلّيات، الكفويّ / 687 .

[3] المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار 6 / 44 .

لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء 22] ، فإنّه قدّر وجود الآلهة ثمّ رتب على وجودهم الفساد))[1] . ونقل التهانويّ[ت 1158هـ] أنّ من معاني (الفرض) التجويز ، فقال : ((الفرض بالفتح وسكون الراء المهملة في اللغة التقدير والقطع . وفي بعض كتب المنطق أنّه قد يستعمل الفرض بمعنى التجويز أي الحكم بالجواز))[2] . ثمّ أضاف معنًى آخر له ، فذكر أنّ الفرض ((بمعنى ملاحظة العقل وتصوّره والتقدير المعتبر في تعريف المتّصلة بهذا المعنى وكذا في قولهم الفرض ههنا بمعنى التجويز العقليّ ، إذ للعقل أنْ يفرض المستحيلات والممتنعات أي يلاحظها ويتصوّرها))[3].

ويرى حسن مصطفوي من المحدثين أنّ ((الأصل الواحد في المادّة : فهو التقدير المعيّن اللازم ، ومن آثاره ولوازمه : الإلزام ، التكليف ، التثبيت ، التعليق ، الحزّ ، الإيجاب ، التأثير ، الإعطاء ، القطع ، الحكم . فالأصل المحفوظ في جميع الموارد : هو التقدير الملزَم))[4] .

ويرى أيضاً أنّ مادة (فرض) يختلف معناها بحسب الحرف المستعمل معها ، فهي قد تستعمل مع الحرف (على) لتدلّ على الاستيلاء والتسلّط ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾[الأحزاب 50] . وإذا اُستعملت مع حرف (اللام) ، فإنّها تدلّ على الاختصاص والتعليق ، كقوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ [الأحزاب 38] . وإذا اُستعملت من دون حرف ، فلأنّها تدلّ على مجرّد التقدير والتعيين المطلق ، كقوله تعالى :﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور 1] [5].

وفرّق أبو هلال العسكريّ [ت بعد400 هـ] بين الفرض وغيره من الألفاظ ، مثل (القرض – الوجوب – الحتم) ، فهو مثلاً في تفريقه بين الفرض والقرض يقول : ((القرض ما يلزم إعطاؤه ، والفرض ما لا يلزم إعطاؤه ، ويقال : ما عنده قرض ولا فرض أي ما عنده خير لمَن

---

[1] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،العلويّ / 303 ، وينظر: الفرضية في التعبير القرآنيّ الكريم ، بحث منشور للدكتورة سعاد كريم / مجلة أبحاث البصرة / المجلد 36 العدد 1 / 2011 م .

[2] كشّاف إصطلاحات الفنون والعلوم ، التهانويّ 2 / 1267 .

[3] المصدر نفسه 2 / 1267 .

[4] التحقيق في كلمات القرآن ، حسن مصطفويّ 9 / 63 – 64 .

[5] ينظر: المصدر نفسه 9 / 64 .

يلزمه أمره ولا لمَن لا يلزمه أمره))[1] . وفرّق بين الفرض والوجوب ، فقال : ((الفرض لا يكون إلاّ من الله ، والإيجاب يكون منه ومن غيره ، تقول : فرض الله تعالى على العبد كذا ، وأوجبه عليه ، وتقول : أوجب زيد على عبده ، والملك على رعيّته كذا ، ولا يقال : فرض عليهم ذلك ، وإنّما يقال : فرض لهم العطاء ، ويقال : فرض له القاضي ، والواجب يجب في نفسه من غير إيجاب يجب له من حيث إنّه غير متعدّ ، وليس كذلك الفرض ؛ لأنّه متعدّ ، ولهذا صحّ وجوب الثواب على الله تعالى في حكمته ، ولا يصحّ فرضه ... ومن وجه آخر : إنّ السُنة المؤكّدة تسمّى واجباً ولا تسمّى فرضاً ، مثل سجدة التلاوة ، هي واجبة على مَن يسمعها ... ولم يقل : إنّها فرض ... ، وفرق آخر : إنّ العقليّات لا يستعمل فيها الفرض ويستعمل فيها الوجوب، تقول : هذا واجب في العقل ، ولا يقال : فرض في العقل))[2] .

وفرّق بين الفرض والحتم بقوله : ((الحتم إمضاء الحكم على التوكيد والإحكام ، يقال : حتم الله كذا وكذا ، وقضاه قضاءً حتماً : أي حكم به حكماً مؤكّداً ، وليس هو من الفرض والإيجاب في شيء ؛ لأنّ الفرض والإيجاب يكونان في الأوامر ، والحتم يكون في الأحكام والأقضية ، وإنّما قيل للفرض : فرض حتم على جهة الاستعارة))[3]. ولعلّ في هذه الفروق مساساً للمعنى الاصطلاحيّ للفظة ، فعدم الإلزام في الفرق الأوّل ، وعدم التوكيد في الفرق الثاني ، وعدم الإحكام في الفرق الثالث ، كلّ ذلك يقرب من الدلالة على الفرض غير الواقع .

وقد نقل جعفر الحسينيّ من المحدثين معنًى لغويّاً للأفتراض ، ولعلّه أقرب للأصطلاح منه إلى اللغة ، إذ إنّه وضع هذا المعنى اللغويّ بناءً على أستعماله الأصطلاحيّ ، فقال : ((الأفتراض لغةً : التصوّر العقليّ بقطع النظر عن الواقع ، ومصدر أفتراض الشيء : فرضه ، وأفترض الباحث : أتّخذ فرضاً ليصل إلى حلّ مسألة ما ، وأفترض الأحكام سنّها وأوجبها))[4].

---

[1] الفروق اللغويّة ،أبو هلال العسكريّ / 193 .

[2] المصدر نفسه / 251 .

[3] المصدر نفسه / 252 .

[4] معجم مصطلحات المنطق ، جعفر الحسينيّ / 42 .

ورأى بعض المحدثين أنّ ((الفرض عند الفقهاء هو الوجوب ، وهو ما ثبت بدليل قطعيّ أو ظنّي . أمّا عند الحكماء فهو التجويز العقليّ ، أي الحكم بجواز الشيء))[1] . ومثّل لذلك بقول ابن سينا [ت 428هـ] : ((إنّ الجسم إنّما هو جسم ... بحيث يصحّ أنْ يفرض فيه أبعاد ثلاثة ، كلّ واحد منها قائم على الآخر))[2] .

وعلى الرغم من أنّ المعجمات اللغويّة لا تُفرّق بين الفرض والأفتراض ، إلاّ أنّه لا بدّ من وجود فارق دلاليّ بين الإثنين ، فزيادة المباني يتبعها زيادة المعاني ، ولعلّ في كون (أفترض) على صيغة (افتعل) ، التي تخرج إلى معانٍ عدّة ، وهي ـ كما يبدو ـــ تحمل أكثر من معنًى ، فإنّ فيها معنى الاتخاذ ، والأجتهاد والطلب ، والمشاركة[3] ، أي : إنّ أفترض معناها : أتّخذ الفرض وسيلةً ، وأجتهد وطلب الفرض ، وقد يشارك غيره في الفرض . ويلحظ أنّ السكاكيّ [ت 626 هـ] غالباً ما يستعمل لفظة (الأفتراض) ، وفيها هذه الدلالات ، فهو مثلاً يقول : ((وبيان أنعكاسها : إمّا بالأفتراض ، وهو أنّه يمكن الإشارة إلى واحد من آحاد هذا الكلّ))[4] ، أو قوله : ((فالمثبتة الكلّيّة منها تنعكس كنفسها بالأفتراض))[5].

الأفتراض اصطلاحاً :

لم يضع القدماء حدّاً لمصطلح الأفتراض ، أمّا من المتأخرين ، فالشريف الجرجانيّ [ت 816هـ] ، لم يذكر هذا المصطلح في كتابه التعريفات[6] . وأمّا الكفويّ ، فعرّف الفرض حينما حينما ذكر المعاني اللغويّة للفظة ، فيقول : ((هو الذي لا يطابق الواقع ولا يعتدّ به أصلاً ، ومراد القوم بالفرض في قولهم : الجزء الذي لا يتجزّألا يقبل القسمة لا كسراً ولا وهماً ولا فرضاً ، هو

---

(1) المعجم الفلسفيّ ، جميل صليبا2 / 142 .

(2) المعجم الفلسفيّ 2 /142 .

(3) ينظر: شذا العرف ، أحمد الحملاويّ / 24 .

(4) مفتاح العلوم ، السكاكيّ/ 577 .

(5) المصدر نفسه / 579 .

(6) ينظر:كتابه التعريفات .

التعقّل لا مجرّد التقدير))[1]. وذكر المحقّق[في الهامش] حداً مطابقاً لهذا الكلام ، كان المؤلف قد وضعه تعريفاً لمصطلح (الفرض الذهنيّ)[2] ، وهو موجود في إحدى مخطوطات الكتاب . أمّا التهانويّ، فقد عرّف الأفتراض بعد عدّه مصطلحاً خاصّاً بالمنطقيين ، فقال : ((هو عند المنطقيين طريق من طرق بيان عكوس القضايا ، وهو فرض ذات الموضوع شيئاً معيّناً وحمل وَصْفَي الموضوع والمحمول عليه ليحصل مفهوم العكس . وإنّما أعتبروا الفرض ليشمل القضيّة الخارجيّة والحقيقة فالفرض ههنا بالمعنى الأعمّ الجامع للتحقّق ، وحمل وصف الموضوع يكون بالإيجاب ، وحمل وصف المحمول كما هو في الأصل إيجاباً وسلباً ليحصل العكس ، أي بأنْ يترتب من تينك المقدّمتين قياس ينتج عكس المطلوب أو يحتاج إلى ضمّ مقدّمة أخرى صادقة معها ، كما في بيان عكس اللادوام في الخاصّتين . والإفتراض لا يجري إلاّ في الموجبات والسوالب المركّبة لوجود الموضوع فيهما))[3]. وعرّف الفرض بعد أنْ قسّمه قسمين ، وقد نسب هذا التقسيم للحكماء ، فقال : ((قال الحكماء : الفرض على نوعين : أحدهما ما يسمّى فرضاً أنتزاعيّاً ،وهو إخراج ما هو موجود في الشيء بالقوّة إلى الفعل ولا يكون الواقع مخالف المفروض ... ، وثانيهما ما يسمّى فرضاً أختراعيّاً وهو التعمّل وأختراع ما ليس بموجود في الشيء بالقوّة أصلاً ، ويكون الواقع مخالف المفروض ... فالفرض ههنا بمعنى تصوّر العقل إلاّ أنّ التصوّر في الأنتزاعيّ مطابق للواقع وفي الاختراعيّ مخالف له ، فالأشتراك بين النوعين معنويّ))[4] .

---

[1] الكلّيات / 690 .

[2] ينظر: الكلّيات / 688 .

[3] كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم 1 / 235 .

[4] المصدر نفسه 2 / 1267 – 1268 .

أمّـا المحـدثون ، فقـد وضـع الـدكتور محمـود البسـتانيّ تعريفـاً للفرضـيّة وللأفتـراض ، فقـال : ((هـي إحداث علاقـة بـين طـرفين مـن خـلال جعـل أحـدهما مجـرّد فرضـيّة))[1]، أو بمثابـة أفتراض[2].

ويرى جعفر الحسينيّ أنّ الأفتراض أصطلاحاً ما هو إلاّ ((فكرة تهدف إلـى تصـوير مشـكلة أو حلّهـا))[3] ، فضـلاً عن أنّـه وضـع للأفتـراض تعريفـاً منطقيّـاً ، فهـو عنـده ((قضـيّة غيـر مبـرهن عليها تؤخذ على أنّها مسلّم بها في بداية بحث أو برهنة أو مناقشة))[4]. وعرّف آخر الفرضيّة بـأنّها ((فكرة أو قضيّة يأخذ بها الباحث في بداية برهانه على إحدى المسائل))[5] . فالفرضيّة قضيّة يسلّم بها العالم في أوّل البحث ويتّخذها أصلاً يستخرج منها جملـة من القضـايا ، وهـو غيـر واثـق بصـدق فرضيّته أو كذبها ، إلاّ أنّه يجوز أتّخاذها أصلاً يستخرج منـه مـا يروقـه من النتـائج ، حتّـى إذا أثبـت الأختبـار صـحّة هذه النتـائج تحقّق العـالم صـدق فرضـيّته ، والفرضـيّات القابلـة للتحقيـق ، هـي التـي يسـمح العلـم فـي حالتـه الحاضـرة بتحقيقهـا وهـي مقابلـة للفرضـيّات التـي لا يمكننـا تحقيقهـا بالوسـائل المتوافرة لدينا ، ولكنّنا إذا علمنا أنّ العلم في تقدّم مستمرّ ، علمنا أنّ ما لا يمكن تحقيقـه فـي الحاضـر قد يتحقّق في المستقبل ؛ لأنّه لا حدّ ولا نهاية لتقدّم العلم وأرتقائه[6] .

ومن المحدثين مَن يرى أنّ الأفتراض يوفـّر للعقل حرّية الحركـة بـين الأحتمـالات المفترضـة ، فيكشـف عن صيرورة الفكر الحرّ في القرآن الكريم ، فيقول غالب حسن : ((ممّا لـه علاقـة وطيـدة

---

(1) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ ، محمود البستانيّ / 114 ـــ 115 .

(2) ينظر: أدب الشريعة الإسلاميّة . دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصوماً (ع) ، محمود البستانيّ / 93 ــ 94 .

(3) معجم مصطلحات المنطق ، / 42 .

(4) المصدر نفسه / 42 .

(5) المعجم الفلسفيّ 2 / 143 .

(6) ينظر: المصدر نفسه 2 / 144 .

وتأسيسيّة بعلية العلم وحركة الفكر هو الأفتراض ، فهو يدخل في صميم الدراسات التي تهتمّ بأشكاليّة العلم ومنهجيّته وموضوعه))[1] .

وقد لوحظ أنّ الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في مادة (فرض)[2] ومشتقّاتها قد أريد بها المعنى اللغويّ ، فليس هناك لفظة (فرض) أو (أفترض) في القرآن الكريم تدلّ على الأفتراض بمعنى التصوّر العقليّ أو الذهنيّ لوقوع أو وجود شيء وبناء نتيجة على هذا الوقوع أو الوجود . كما لم ترد لفظة (فرض) أو (أفترض) إلاّ بما يدلّ على الوجوب والإلزام في الحديث الشريف[3] . كما لم تورد المعاجم اللغويّة معنًى لغويّاً للأفتراض بمعناه العقليّ التصوّريّ .

والأفتراض أسلوب معتاد في كتابات أكثر العلماء حينما يعرضون لقضايا ، هي محور جدل أو شك ، فيفترض المتحدّث أمراً يجرّ به المتلقّي إلى حقيقة تلك المسألة التي يعرض لها ويتحدّث عنها ، وكأنّ المتلقّي هو الذي يصل إلى نتيجة هذا الأمر المفترض ، وحينئذٍ يحسم الجدل وينتهي الشك . واللافت للنظر أنّ عدداً من العلماء قد استعملوا هذه اللفظة في أثناء حديثهم بدلالتها الأصطلاحيّة ، فأبن جنّي [ت 392 هـ] قد أستعملها ، وذلك في قوله : ((فإذا كان كذلك علمت أنّ غرض القوم فيه ليس ما قدّرته ولا ما تصوّرته ؛ وإنّما هو أنّ قبلها ياء وبعدها كسرة ، وهما مستثقلتان . فأمّا أنْ تُماسّا الواو وتباشراها على ما فرضته وادّعيته فلا))[4] . أو قوله : ((وذلك قولك : إذا فرضت أنّ سبعة في خمسة أربعون فكم يجب أنْ يكون على هذا ثمانية في ثلاثة))[5].

وقد أستعملها أبن سنان الخفاجيّ [ت466 هـ] بهذا المعنى ، فقال : ((وإذا كنّا قد بيّنا التسمّح فيما ذكرناه فوجه العذر فيه أنّه لو أمكن فرضاً وتقديراً أنْ ينطق بحرف واحد لم يكن كلاماً وإنْ كان الصحيح أنّ ذاك غير ممكن لما بيّناه))[6].

---

[1] نظرية العلم في القرآن ، ومدخل جديد للتفسير، غالب حسن / 66 .

[2] ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (فرض) ، محمد فؤاد عبد الباقي .

[3] ينظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف (فرض) .

[4] الخصائص ، ابن جنّي 2 / 328 .

[5] الخصائص 3 / 332 .

[6] سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجيّ / 24 .

واستعملها أيضاً عبد القاهر الجرجانيّ [ت 471 هـ] في كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) ، فهو يقول : ((فإذا قلت (الشفة) في موضع قد جرى فيه ذكر الإنسان والفرس ، ودخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أنْ تكون استعرت الاسم للفرس ، ولو فرضنا أنْ تعدم هذه الأستعارة من أصلها وتُحظر لما كان لهذه الشبهة طريق على المخاطب))[1]. ويقول أيضاً : ((افرض هذه الموازنة في الشيء الواحد ، كالثوب الواحد يُعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً))[2]. ويقول أيضاً : ((وأي مساغ للشك في أنّ الألفاظ لا تستحقّ من حيث هي ألفاظ أنْ تنظّم على وجه دون وجه ، ولو فرضنا أنْ تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالتها لما كان شيء منها أحقّ بالتقديم من شيء))[3]. وقد لوحظ أنّ هناك علماء آخرين قد أستعملوا هذه اللفظة بهذا المعنى ، فقد أستعملها السكاكيّ[4] ، وأبن الأثير[5] [ت 637 هـ] ، وأبن أبي الإصبع المصريّ[6][ت 654 هـ] ،والقرطاجنّيّ[7] [684هـ] ، والأشمونيّ[8][ت 900 هـ] ، وأبن هشام الأنصاريّ[9][ت 761 هـ] ، كما أستعملها عدد كبير من المفسّرين[10] في المواضع التي تدلّ فيها معاني الآيات على الأفتراض ، حين يرد ما يدلّ عليه في سياق الآيات القرآنيّة الكريمة .

---

[1] أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ / 32 .

[2] أسرار البلاغة / 231 .

[3] دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانيّ / 94 .

[4] ينظر مفتاح العلوم ، السكاكيّ / 546 ، 572 ، 573 .

[5] ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير 2 / 65 .

[6] ينظر تحرير التحبير في صناعة الشعر ، ابن أبي الأصبع / 587 .

[7] ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء / 14 ، 15 .

[8] ينظر شرح الأشمونيّ ، الأشمونيّ 3 / 137 .

[9] ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاريّ 1 / 293 ، 294 .

[10] ينظر الكشّاف ، الزمخشريّ 4 / 258 ،و مجمع البيان ، الطبرسيّ 7 / 121 ، ومفاتيح الغيب، الرازيّ 22 / 127 ،و أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاويّ 1 / 112 ،و البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسيّ 1 / 606، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ،أبو السعود 1 / 216 ، وتفسيرالقرآن الكريم ، عبدالله شبّر / 22 ،

والذي يبدو أنّ هذه اللفظة قد أخذت هذه الدلالة عند استعمالها في العبارات الكلاميّة أو الجدليّة أو الأستدلاليّة ، وهو ما يمكن أستنباطه من المواضع التي إستعملت فيها ، ولعلّ في قولنا (افرض كذا) معنى (تصوّره موجوداً أي : تصوّر لزوم وجوده) .

ولسائل أنْ يسأل لماذا الأفتراض ؟ أو لماذا يلجأ المتجادلان أو المتخاصمان إلى الأفتراض ؟ وهل الأفتراض في الجدل والمحاججة فقط ؟ لعلّ ما في الصفحات الآتية ما يعطي إجابة على هذه الأسئلة .

2- الافتراض في العلوم :

يستعمل هذا اللفظ إمّا لإثبات مسألة محل جدل وخصام ، أو لوضع حلّ مسبق لمسألة قد تقع في المستقبل ، وقد يكون لاستقصاء كلّ جوانب المسألة ، فلا يترك جانباً منها إلاّ ويحلّ تعقيده ويكشف غموضه . ولذا فإنّ كثيراً من العلوم الإنسانيّة قد أفادت من هذا اللفظ ، فهو وسيلة من وسائل المعرفة ، فـ ((الفرضيّة بالنحو الذي اتّخذوها فيه أصل المسائل العلميّة اليوم ، واعتبروها وسيلة توسّع وتنامي العلوم ، فهي عبارة عن سلسلة من القضايا التي لا هي بديهيّة ولا هي مبرهن عليها في مواضع أخرى ، ولا أنّها منظور في إثباتها وعدم إثباتها أيضاً))[1] . فالعلوم الإنسانيّة علوم متغيّرة ومتطوّرة ، وكثير من التطوّر والتغيير جاء نتيجة فرضيّات وضعها العقل البشريّ ، كان لها الدور الفاعل في دفع العلوم الإنسانيّة خطوة إلى الأمام ، حتّى لو كانت هذه الفرضيّات في أساسها غير صحيحة أو لم يتمّ إثباتها ، ولعلّ من أهمّ هذه الفرضيّات (نظرية دارون في التطوّر) ، و(نظرية فرويد الجنسيّة) ، وغيرها ((ولا ينكر أنّ الدور الاستعماليّ للفرضيّات في تلبية الاحتياجات والرغبات الطبيعيّة ، وفي سيطرة الإنسان على المحيط المادّي والمحسوس تتسبّب لأنْ

- و روح المعاني ، الآلوسيّ 17 / 32 ،و الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائيّ 13 / 46 ،و التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور 17 / 31 .

[1] نظريّة المعرفة في القرآن ، جوادي آملي / 142 .

تعدّ العلائم المحسوسة لهذا الدورفي مجالات الحياة المختلفة ، الطبيعيّة منها ، والدينيّة ، السبب الرئيس للتغيير ، وتعدّ – بالتالي – من أسس تحليل المعارف البشريّة))[1] .

فمن العلوم التي أفادت من الافتراض ، علم الفقه ، فـ ((الافتراض أسلوب فقهي ، كان عليه أبو حنيفة وشيوخه خاصّة من رجال الدين))[2] . ولعلّ الافتراض الفقهي موجود في القرآن الكريم ، والدليل على ذلك الآيات الكريمة التي تناولت الأحكام الشرعيّة ، وخاصّة آيات المواريث ، التي تستقصي كلّ الحالات الخاصّة بحقوق الورثة ، كقوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً ﴾[النساء 11] .

وقد ارتبط الافتراض بعلم الكلام والمنطق ارتباطاً وثيقاً ، ولعلّ من الأدلّة على ذلك كثرة ورود هذا المصطلح لديهم ، وفيما ذكره السكاكيّ في كتابه (مفتاح العلوم) دليل على ذلك ، وذلك في الباب الذي وضعه لعلم الاستدلال ، من ذلك قوله : ((أمّا المطلقات العامّة : فالمثبتة الكلّية منها مثل قولنا : كلّ اسم كلمة تنعكس بعضيّة . وبيان انعكاسها : إمّا بالافتراض : وهو أنّه يمكن الإشارة إلى واحد من آحاد هذا الكلّ محكوماً عليه بالاسميّة))[3] . أمّا في العلم الرياضيّ ، فالفرضيّات تطلق على الأوّليّات والمسلّمات والأوضاع والتعريفات التي يستند إليها العالِم في البرهان على إحدى القضايا ، فيقول مثلاً : لنفرض أنّ خط (أب) مساوٍ لخط (أج) ثمّ يستنبط من هذه الفرضيّة بعض النتائج اللازمة عنها . أمّا في العلوم التجريبيّة ، فالفرضيّة تفسير مؤقت لحوادث الطبيعة ، ينقلب بعد الإختبار التجريبيّ إلى تفسير نهائي ، فتكون الفرضيّة خطوة تمهيديّة للقانون العلميّ توضع في البداية على سبيل الظنّ والتخمين ، فإنْ أيّدتها الملاحظة أو التجربة انقلبت إلى قانون[4] .

---

[1] نظرية المعرفة في القرآن / 144 .

[2] المفصّل في تأريخ النحو، محمد خير الحلوانيّ 1 / 296 .

[3] مفتاح العلوم / 577 .

[4] ينظر: المعجم الفلسفيّ 2/ 144 .

وأمّا في اللغة فقد كان الافتراض أحد الوسائل التي أنضجت الدراسات اللغويّة ، وفي مجال النحو والصرف على وجه الخصوص ، ورأى بعض المحدثين أنّ ((الافتراض أسلوب فقهي معروف ... وقد أفاد منه النحاة منذ زمن مبكّر ... في نحو الحضرميّ وأبي عمرو وعيسى ويونس ، غير أنّ الخليل أكثر منه))[1].

فمن الشواهد التي يُلمح فيها الافتراض عند الحضرميّ [ت 117 هـ] ، ما نقله ٱبن جنّي ، حين ذكر، أنّه ((حضر الفرزدق [ت 110 هـ] مجلس ٱبن أبي إسحاق ، فقال له : كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقال الفرزدق : كذا أنشد . فقال ٱبن أبي إسحاق : ما كان عليك لو قلت : فعولين ! . فقال الفرزدق : لو شئت أنْ تسبّح لسبّحت ، ونهض . فلم يعرف أحد في المجلس ما أراد بقوله : لو شئت أنْ تسبّح لسبّحت ، أي : لو نصب أخبر أنّ الله خلقهما وأخبرهما أنْ تفعلا ذلك ، وإنّما أراد : أنّهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر))[2]. فعبد الله الحضرميّ أراد المعنى واختلاف الإعراب في البيت ، فإذا أراد الشاعر بقوله : إنّ الله قال للعينين : كونا فكانتا ، وأنّهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر وجب الرفع ؛ لأنّ الفعل (كان) حينئذٍ يكون تاماً ؛لأنّه يعني الوجود ،ولأنّ (فعولان) تكون صفة للعينين وإنْ أراد أنّ الله هو الذي أمرهما أنْ تفعلا بالألباب ما تفعل الخمر فلا بدّ حينئذٍ من النصب ؛ لأنّ كان عملت في (فعولين)[3]. فالحضرميّ يحمّل النص أكثر ممّا أراد الشاعر منه ((وهذا ضرب من التأويل والافتراض ،ظهر بظهوره في تأريخ النحو العربيّ))[4].

أمّا عند عيسى بن عمر [ت 149 هـ] ، فقد كان يضع افتراضات لبعض المسائل في النحو ويحاول أنْ يوجد التخريج النحويّ المناسب لها ، فهو مثلاً يفترض أنّك سمّيت رجلاً بالفعل

---

[1] المفصّل في تأريخ النحو 1 / 296 .

[2] الخصائص 3 / 305 .

[3] ينظر: الخصائص 3/ 305 .

[4] المفصّل في تأريخ النحو 1 / 150 .

(ضرب) أو (ضارَب) أو(ضاربْ) ، ويرى أنّه يكون ممنوعاً من الصرف[1]. وكذلك يفترض أنّك سمّيت امرأةً بـ (عمرو) فكان يصرفها لأنّه على أخفّ الأبنية[2] .

أمّا عند الخليل [ت 170 هـ] ، فإنّ الافتراض ((ذو لونين ، لون يبدو لك محاولة تقليب الظاهرة على عدّة أوجه تحتملها الوقائع اللغويّة ألبتة ، ولكنّها تصلح للقياس عليها إذا جدّ في الحياة العلميّة أو الاجتماعيّة جديد ... أمّا الضرب الثاني من الافتراض فأحياناً يصدر عنه ، وطوراً يثيره تلميذه سيبويه))[3]. فمثال اللون الأوّل ، تقليبه قول الناس : مررت به المسكين ، على ثلاثة أوجه : جرّ مسكين على البدل من الضمير المتّصل بالباء ، ونصبه على الترحّم ، ورفعه على أنْ يكون خبراً والمبتدأ مقدّر[4]. وأمّا مثال اللون الثاني ، فكقوله ((ولو سمّيت رجلاً بـ (وزيدٍ) أو(وزيداً) أو (وزيدٌ) ، فلا بدّ لك من أنْ تجعله نصباً أو رفعاً أو جرّاً ، تقول : مررت بوزيداً ، ورأيت وزيداً ، وهذا وزيداً))[5].

أمّا يونس بن حبيب [ت 182 هـ] ، فيقول عنه محمد خير الحلوانيّ ((قد لجأ النحاة القدماء إلى الافتراض في بحثين من بحوث النحو خاصّة ، هما : الممنوع من الصرف ، والتصغير ، ثم جاء الخليل وسيبويه فزادا فيه ، وأغنياه، ولكنّ يونس [بن حبيب] ظلّ عالقاً بما فعله شيوخه قبله لم يتجاوزه إلى غيره))[6]. فمن الأمثلة التي يفترضها يونس ، أنّنا إذا سمّينا رجلاً بـ (قبائل) فماذا فماذا نقول في تصغيره ؟، فكان رأيه في معالجة هذه المسألة أنْ يحذف الهمزة لأنّها زائدة فيصغّر على (قبيّل)[7].

---

(1) ينظر: كتاب سيبويه، سيبويه 3 / 206 ،و المفصّل في تأريخ النحو 1 / 163 .

(2) ينظر: كتاب سيبويه 3 / 242 ،و المفصّل في تأريخ النحو 1 / 163 .

(3) المفصّل في تأريخ النحو 1 / 297 .

(4) ينظر: كتاب سيبويه 2 / 75 ،و المفصّل في تأريخ النحو 1 / 297 .

(5) كتاب سيبويه 3 / 333 .

(6) المفصّل في تأريخ النحو 1 / 234 .

(7) ينظر: كتاب سيبويه 3 / 439، والمدارس النحويّة : شوقي ضيف / 29 ،والمفصّل في تأريخ النحو 1/ 235 .

3- علماء البلاغة وتنوّع المصطلح :

لم يذكر علماء البلاغة القدماء – فيما اطّلعت عليه – مصطلح الافتراض بلفظه للدلالة على المعنى العقليّ التصوّري لهذا الأسلوب المستعمل في تعبير القرآن ، إلاّ أنّهم استعملوا مصطلحات أخر هي إلى علم الكلام أقرب منها إلى علم البلاغة ، فعلماء الكلام كانوا ((مصدر نشاط خصب في البيان العربيّ ووضع كثير من مصطلحاته))[1]. وهذه المصطلحات لا تعبّر عن الأسلوب تعبيراً شاملاً مستوفياً لكلّ شواهده ، وإنّما هي إشارات لها مساس ببعض جوانب الأسلوب . ومن أهمّ هذه المصطلحات : (الاستدلال – المذهب الكلامي – إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة – الاستدلال بالتعليل – الاستدراج – التسليم – المحاجّة – الالهاب والتهييج – إخراج الكلام في صورة المستحيل – إلجام الخصم بالحجّة – التبعيد) .

فمصطلح الاستدلال الذي ظهر عند الجاحظ [ت 255 هـ] ، والذي جعله وسيلةً معرفية لكشف الغموض والوصول للحقيقة ، فقال : ((ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنًى ، كما أنّه لولا الاستدلال لما كان لوضع الدلالة معنًى ... وللعقل من خلال ذلك مجال وللرأي تقلّب ، وتنشر للخواطر أسباب ، ويتهيّأ لصواب الرأي أبواب))[2]. وتطوّر هذا المصطلح حتّى أصبح الاستدلال في زمن السكاكيّ علماً ، وقد عرّفه تعريفاً لعلّه يكون غاية من غايات الافتراض وليس حدّاً له ، فقال : ((وهو اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ أو نفيه بوساطة تركيب جمل ... تارة تكونان خبريتين معاً ، وتارة تكونان شرطيتين معاً ، وتارة تختلفان خبراً وشرطاً))[3]. وتبع السكاكيَّ السيوطيُّ [ت 911 هـ] ، من المتأخّرين ، فعدّ الاستدلال من طرق الجدل ، فقال : ((ومن ذلك الاستدلال على أنّ صانع العالم واحد ، بدلالة التمانع المشار إليها في قوله تعالى * : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] ؛ لأنّه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام

---

[1] أثر النحاة في الدرس البلاغيّ، عبد القادر حسين / 31 .

[2] الحيوان، الجاحظ 2 /115 .

[3] مفتاح العلوم / 548 – 549 .

* قال بفرضيّته : مجمع البيان ، الطبرسيّ 7 / 121، ومفاتيح الغيب ، الرازيّ 22 / 127،و البحر المحيط أبو حيّان 6 / 281 ،و إرشاد العقل السليم ، أبو السعود 6/6، وروح المعاني 17/ 32 ،والتحرير والتنوير 17 /31 .

ولا يتّسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك ؛ لأنّه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته : فإمّا أنْ تنفذ إرادتهما ، فيتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إنْ فُرض الإتفاق ، أو لامتناع اجتماع الضدّين إنْ فُرض الاختلاف . وإمّا ألاّ تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه ، والإله لا يكون عاجزاً))[1] .

أمّا المذهب الكلاميّ فقد قال به جماعة من العلماء ، منهم ٱبن المعتز[2][ت 296 هـ] – وقد نسب تسميته للجاحظ - ، وأبو هلال العسكريّ[3]، وٱبن أبي الإصبع المصريّ[4] ، والقزوينيّ[5] [ت 739هـ]،والطيبيّ[6][743هـ]، والسبكيّ[7][ت 773هـ] والتفتازانيّ[8] [ت 792هـ]،والحمويّ[9][ت837 هـ] ، والسيوطيّ[10]. والسيوطيّ[10]. وقد أنكر بعض المحدثين وجود هذا المصطلح عند الجاحظ ، فقال : ((ولم نعثر في كتب الجاحظ المعروفة على هذا المصطلح بل إنّه كان يسخر أحياناً من الذين يتكلّفون أداء الكلام تشبيهاً بالمتكلّمين))[11].

ورأى الدكتور عبد العزيز عتيق أنّ ((ٱبن المعتز لم يذكر مفهوم الجاحظ لهذا الفن البديعيّ ، كما أنّه لم يحاول هو تحديده ... وعلى هذا فأغلب الظن أنّ مفهوم المذهب الكلاميّ عند الجاحظ

---

[1] الإتقان في علوم القرآن، السيوطيّ 2 / 265 .

[2] ينظر: البديع / 53 .

[3] ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر/ 246 .

[4] ينظر: بديع القرآن / 63- 64 ، وتحرير التحبير / 119 .

[5] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة/ 360 .

[6] ينظر: التبيان في البيان / 147 .

[7] ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح 2/ 264 – 266 .

[8] ينظر: المطوّل شرح تلخيص المفتاح/ 667 – 668 ، وشرح المختصر1 / 439 – 440 .

[9] ينظر: خزانة الأدب 1 / 364 .

[10] ينظر: الإتقان في علوم القرآن 2 / 263 .

[11] أساليب البديع في القرآن، جعفر الحسينيّ / 21 .

وٱبـن المعتـز ... هـو : اصـطناع مـذهب المتكلّمـين العقلـيّ فـي الجـدل والاسـتدلال وايـراد الحجـج والتماس العلل وذلك بأنْ يأتي البليغ على صحّة دعواه بحجّة قاطعة أيّاً كان نوعها))[1].

وقد عرّف ٱبن أبي الإصبع (المذهب الكلامي) بقوله : ((هو احتجاج المتكلّم على ما يريد إثباتـــه بحجّـــة تقطـــع المعانـــد لـــه فيـــه علـــى طريقـــة أربـــاب الكـــلام))[2].

وعرّفه آخرون[3] تعريفاً مقارباً لهذا التعريف . ولعلّ من أكثر الآيات القرآنيّة التي جعلوها شاهداً لهذا المصطلح ، قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] . وعلّق بعضهم عليها بقوله : ((فإنّ هذه مقدّمة استثنائيّة ذكر فيها المقدّمة الشرطيّة وتقديره : لكنّهما لم تفسدا فلم يكن فيهما آلهة))[4] .

أمّا مصطلح إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج ، فقد قال به الرمانيّ[5][ت 386 هـ] ، ومثّل له بقوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[6] : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف 81] . وقد مثّل الرمانيّ في باب البيان بآيات قرآنيّة دالّة على الافتراض ، كقوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون 91]، فقد قيل بفرضيّته[7] ، وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء 22] . ثم

---

[1] علم البديع / 131 - 132.

[2] بديع القرآن / 63 .

[3] ينظر الإيضاح في علوم البلاغة / 360 ،و التبيان في البيان / 147 ، وخزانة الأدب 1 / 364 ، والمطوّل شرح تلخيص المفتاح / 667 – 668 ،و شرح المختصر 1 / 439 – 440 .

[4] عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح 2 / 264 .

[5] ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،الرمانيّ / 105 .

[6] ينظر: الكشاف 4 / 258 ، ومفاتيح الغيب 27 / 645 ، البحر المحيط 8 / 28 ، والتحرير والتنوير 25 / 296 . 296

[7] ينظر : تفسير القرآن العظيم 5 / 484 ، وروح المعاني 18 / 354 ،و التحرير والتنوير 18 / 92 .

علّق على ذلك قائلاً : ((وهذا أبلغ ما يكون في الحجاج ، وهو الأصل الذي عليه الاعتماد في صحّة التوحيد ؛ لأنّه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما))[1].

وتبع الزركشيُّ[ت 794 هـ] الرمانيَّ في ذلك ، وسمّاه (إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد) ، ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ 24] ، وعلّق عليه بقوله :((وهو يعلم أنّه على الهدى ، وأنّهم على الضلال ، ولكنّه أخرج الكلام مخرج الشك تقاضياً ومسامحةً ، ولاشك عنده ولا ارتياب))[2].

وجعل منه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف 81] .

وجاء ٱبن سنان الخفاجيّ بمصطلح (الاستدلال بالتعليل) ، ومثّل له بقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] ، ثم علّق عليه بقوله : ((فهذا مبلغ ما نقوله في المعاني ممّا يستدلّ به على غيره ؛ لأنّ حصرهما ممّا لا سبيل إليه))[3].

أمّا ٱبن الأثير فيسمّي هذا اللون من التعبير (الاستدراج) ، وفيه يقول : ((وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى ، وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال ، والكلام فيه وإنْ تضمّن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط بل الغرض ذكر ما تضمّنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، وإذا حقّق النظر فيه علم أنّ مدار البلاغة كلّها عليه لأنّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أنْ تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها))[4]. ثمّ مثّل له بقوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[5] : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[المؤمن 28] . وعلّق عليه بقوله ((ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه

---

[1] النكت في إعجاز القرآن /107 – 109 .

[2] البرهان في علوم القرآن 2 / 253 .

[3] سر الفصاحة / 208 .

[4] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 2 / 64 .

[5] ينظر :الكشاف 4 / 158 ، والبحر المحيط 7 / 443 ، وفي ظلال القرآن 5 / 3079 .

فإنّه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال : لا يخلو هذا الرجل من أنْ يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعدّاه أو يكون صادقاً[وإنْ يك صادقاً] فيصبكم بعض الذي يعدكم إنْ تعرّضتم له))[1].

أمّا مصطلح (التسليم) فيظهر عند ابن أبي الإصبع المصريّ ، ويعرّفه بأنّه ((هو أنْ يفرض المتكلّم فرضاً محالاً إمّا منفيّاً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثمّ يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدليّاً ، ويدلّ على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه))[2] ، وأخذه عنه السيوطيّ مع تغيير طفيف [3]. ويمثّلان لذلك بقوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون 91] . ويعلّق ابن أبي الإصبع على الآية قائلاً : ((خلاصة معنى هذا الكلام أنْ ليس مع الله من إله ، وكأنّ قائل ذلك قال : (ولو سلّمنا أنّ معه – سبحانه - إلهاً للزم من ذلك التسليم ذهاب كلّ إله من الاثنين بما خلق وعلوّ بعضهم على بعض فلا يتمّ في العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه المحال))[4] .

ويورد محمّد بن عليّ الجرجانيّ [ت 729 هـ] مصطلح (المحاجّة) ، ويعرّفها بقوله : ((وهي ادّعاء شيء مع الحجّة عليه ، وهي كثيرة في القرآن))[5]. ومثّل لذلك بآيات كريمة ، منها قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء 22] ، وعلّق عليها بقوله : ((وهي مقدّمة شرطيّة ، والاستثنائيّة هي نقيض التالي ، أي : لكن لم تفسد السماوات والأرض تنتج : ليس فيهما إله غير الله . وبيان الملازمة ما ذكره المتكلّمون وسمّوه برهان التمانع))[6].

---

(1) المثل السائر 2 / 64 .

(2) بديع القرآن / 378 .

(3) ينظر : الاتقان في علوم القرآن 2 / 266 .

(4) بديع القرآن / 378 .

(5) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجانيّ / 222 .

(6) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة / 222 .

أمّا مصطلحا (الإلهاب والتهييج) فقد ذكرهما العلويّ [ت 749 هـ] ، وعرّفهما بقوله : ((هما عبارتان في الحثّ على الفعل لمَن لا يخلو عن الإتيان به وعلى ترك الفعل لمَن لا يتصوّر منه تركه))[1]. والآيات التي مثّل بها لهذين المصطلحين في الخطابات الموجّهة للرسول – صلّى الله عليه وآله وسلّم - ، منها قوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[2]: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الزمر 65] . وعلّق على ذلك قائلاً : ((فهذا كلّه وارد على جهة الحثّ لرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – والتحذير له من مواقعة هذه الأفعال))[3].

ويذكر الزركشيّ مصطلح (إبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة) ، وفيه يقول : ((كقول العرب : لا أكلّمك حتّى يبيضّ القار ، وحتّى يشيب الغراب ... ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف 81] . أي ولكن ليس له ولد فلا أعبد سواه))[4].

ويورد أيضاً مصطلح (إلجام الخصم بالحجّة) ، وهو غاية لأسلوب الافتراض أقرب منه مسمًّى له . وقد عرّفه بقوله : ((هو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجّة عقليّة تقطع المعاند فيه))[5]. وضرب له أمثلة من القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء 22] ، وقوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[المؤمنون 91] ، وقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾[الإسراء 42] .

---

[1] كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلويّ / 567 .

[2] ينظر : الكشاف 4 / 137 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 48 ، والبحر المحيط 7 / 421 ،و إرشاد العقل السليم 5 / 402 ، والتفسير الواضح 2 / 333 .

[3] الطراز / 567 .

[4] البرهان في علوم القرآن 3 / 33 .

[5] المصدر نفسه 3 / 286 .

أمّا مصطلح (التبعيد) فقد قال به القاضي عبد الجبّار ، وعدّه نوعاً من البديع ، وذكر له أمثلة كثيرة من القرآن ، عُدّ معظمها من باب المبالغة عند البلاغيين ، منها قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81] ، وعلّق عليه بقوله : ((ويحتمل أنْ يريد بذلك تبعيد أنْ يكون له ولد لأنّ عبادته تمنع من ذلك))[1]. فالقاضي- كما يذكر بعض الدارسين - قد انفرد ((بمصطلح التبعيد وأطلقه على هذا النمط من الأسلوب مخالفاً لكثير من البلاغيين الذين أدخلوه في المبالغة ، والواضح أنّ القاضي تنبّه إلى أنّ الأسلوب يركّز على شيء واحد هو الاستحالة أو التبعيد ، فأطلق الاسم المناسب عليه))[2]. وقد استعمل القاضي عبد الجبّار هذا الأسلوب لأغراض ترتبط بالعقيدة وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كلّ ما لا يليق أنْ يوصف به ، ومن أهمّ الأشياء التي نزّه القاضي الله سبحانه وتعالى عن الوصف بها : إرادة الله تعالى للكفر ، وجواز رؤيته ، وجواز أنْ يكون له ولد . فجاء التبعيد عنده لخدمة النص القرآني وتنزيه الله سبحانه عن كلّ ما لا يجوز عليه[3] .

أمّا المحدثون ،كأحمد الهاشميّ فيأتي على ذكر (المذهب الكلاميّ) ويضعه مع المحسّنات المعنويّة ، ويعرّفه بقوله : ((هو أنْ يورد المتكلّم على صحّة دعواه حجّة قاطعة مسلّمة عند المخاطب ، بأنْ تكون المقدّمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، كقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22]، واللازم وهو الفساد باطل ، فكذا الملزوم وهو تعدّد الآلهة باطل ، وليس أدلّ على ذلك من الحقيقة والواقع ... وسمّي هذا النوع بالمذهب الكلاميّ لأنّه جاء على طريقة علم الكلام والتوحيد ، وهو عبارة عن اثبات أصول الدين بالبراهين العقليّة القاطعة))[4] .

---

[1] تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار / 381 . نقلاً عن : أثر المتكلّمين في تطوّر الدرس البلاغي ، القاضي عبد الجبّار إنموذجاً،محمد مصطفى أبو شوارب وأحمد محمود المصريّ / 228 – 229 .

[2] أثر المتكلّمين في تطوّر الدرس البلاغي / 228 – 229 .

[3] ينظر: المصدر نفسه / 229 – 231 .

[4] جواهر البلاغة، أحمد الهاشميّ / 317 .

ويذكر في النوع الثالث من أنواع المبالغة، وهو الغلوّ ،يقول ((إنْ كان الادّعاء للوصف من الشدّة أو الضعف مستحيلاً عقلاً وعادةً))[1]. ويذكر في هامش الصفحة أنّ الغلوّ منه مقبول ومنه مردود ((فالمقبول ثلاثة أنواع : أحدها ما اقترن به ما يُقرّبه للصحّة كفعل مقاربة ... أو أداة فرض))[2] ،وضرب لذلك مثلاً قوله تعالى ، الذي قيل بفرضيته[3]: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] .

ونجد محمّد هادي معرفة ، قد ذكر (المذهب الكلاميّ) ورأى أنّه من أساليب البيان ، وأنّه ((من ظريف البديع ، أنْ يسترسل الشاعر في تغزّله والخطيب في تفكّهه ، فيستظرف في أسلوب بيانه ، يقترب من مطلوبه شيئاً فشيئاً ، ويدنو إليه على طريقة أهل الاستدلال في خطًى حثيثة متواصلة بتمهيد مقدّمات منتهية إلى النتيجة المتوخّاة، فيأتي بشواهد ودلائل ويقيس كما يقيس المتكلّف))[4]. وضرب أمثلة من القرآن الكريم التي قال العلماء بفرضيّتها، منها قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81] ، فيقول معلّقاً على الآية: ((هذا استدلال على الطريقة العقلانيّة ، إذ لو كان لله ولد ... لكان أوّل معترف به هم الرسل الذين جاؤوا من عنده ، وهم أقرب إليه ممّن سواهم))[5]. ورأى أنّ الاستدلال في القرآن مزج أسلوبين هما : الخطابة والبرهان ، وفيهما إمتاع العقل والنفس معاً ، فالقرآن ((في استدلالاته بالجمع بين أسلوبين يختلفان في شرائطهما ، هما أسلوب الخطابة وأسلوب البرهان ، ذاك إقناع للعامة بما يتسالمون به من مقبولات مظنونات ، وهذا إفهام للخاصّة بما يتصادفون عليه من أوّليّات يقينيّات))[6].

---

[1] المصدر نفسه / 327 .

[2] جواهر البلاغة / 327 – 328 .

[3] ينظر : التحرير والتنوير 28 / 103 .

[4] تلخيص التمهيد، محمد هادي معرفة 2 / 433 – 435 .

[5] المصدر نفسه 2 / 435 – 436 .

[6] تلخيص التمهيد 2 / 440 – 441 .

وأشار أيضاً إلى (الاستدراج) إشارةً أخرى بقوله : ((وسمّاه بعضهم (مجاراة الخصم) ليعثر ، بأنْ يسلّم له بعض مقدّماته حيث يراد تبكيته وإلزامه))[1]. وذكر أنّ ابن الأثير قد عقد له باباً وفصّله وشرحه شرحاً وافياً ، ومثّل له بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[المؤمن 28] .

ولعلّ أوّل مَن سمّى هذا الأسلوب اسماً يقارب لفظه ومعناه ، محمود البستانيّ ، حيث أطلق عليه مصطلح (الفرضيّة) ، وقد عرّفها بقوله : ((إحداث علاقة بين طرفين من خلال جعل أحدهما مجرّد فرضيّة أي : لو فرض حصول الشيء))[2] ، أو بمثابة افتراض[3]. ثمّ ضرب لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] . ورأى أنّ استعمال هذا الأسلوب التصويريّ في الآية جاء موضّحاً ((أهمية القرآن وما ينبغي أنْ يتركه من تأثير على البشر بحيث أنّ الجبل – وهو في تصوّر الناس لا يحمل الوعي - ... هذا الجبل سوف يخشع فعلاً لو نزل القرآن عليه ، فلماذا إذاً لا يخشع الإنسان ؟؟))[4].

ويضع البستانيّ مستويات[5] للفرضيّة ، الأولى منهما : الفرضيّة المباشرة باستعمال الأداة (لو) . والثانية : الفرضيّة غير المباشرة ، وهي أنْ تخلو العبارة من الأداة (لو) ، لكنّها تعطي معنى الفرضيّة، ويضرب للطريقة الثانية مثلاً قول الإمام عليّ – عليه السلام – ((تزول الجبال ولا تزل))[6] .

---

[1] تلخيص التمهيد 2 / 456 – 457 .

[2] البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ / 114 .

[3] ينظر : أدب الشريعة الإسلاميّة ، دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصوماً (ع) / 93 – 94 .

[4] أدب الشريعة الإسلاميّة / 93 – 94 .

[5] ينظر: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ / 114 – 115 .

[6] البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي /115 ، وينظر : نهج البلاغة : شرح محمد عبده / 44 .

ومن المحدثين أيضاً ،من أصحاب الدراسات في مناهج التفسير ، غالب حسن ، الذي يذكر الافتراض من دون أنْ يضع له تعريفاً ، فيقول : ((وممّا له علاقة وطيدة وتأسيسيّة بعلّية العلم وحركة الفكر هو الافتراض ، فهو يدخل في صميم الدراسات التي تهتمّ بإشكاليّة العلم ومنهجيّته وموضوعه . القرآن الكريم يحتوي على أمثلة كثيرة ومتنوّعة من الافتراضات وهو يعرض قضاياه على العقل الإنسانيّ))[1] .

ويضرب للافتراض القرآني أمثلةً منها قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[الواقعة 58 – 59] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة 63 – 64] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ ﴾[الواقعة 71 – 72] ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[الطور 35] . ويعلّق على هذه الآيات بقوله : ((هكذا يطرح القرآن الافتراض بالطريقة التي يوفر فيها للعقل حرّية الحركة بين الاحتمالات المفترضة ، الأمر الذي يكشف عن صيرورة الفكر الحرّ في القرآن الكريم))[2] .

4- الافتراض وعلوم البلاغة :

البلاغة جزء من التعبير القرآني لا تنفصل عنه ولا تفارقه ، كيف لا والقرآن الكريم كلام الله المنزَّل على لغة أصحاب الفصاحة والبيان ، وقد تحدّاهم للإتيان بمثله ، ولو ظاهرهم في ذلك جميع الإنس والجنّ ، قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء 88] . وعلوم البلاغة تترابط فيما بينها في النص القرآني ، بل وحتّى النص الأدبيّ أحياناً كثيرةً ، فلا يمكن تجزئته على وفق تقسيم علوم البلاغة . وإذا ((كان السكاكيّ أوّل مَن بوّب البلاغة وقسّمها إلى أقسامها الثلاثة ، المعاني والبيان والبديع))[3] ، فإنّ المنهج الموضوعيّ هو الذي اقتضى ((الفصل بين هذه العلوم الثلاثة ، وإنْ

---

[1] نظرية العلم في القرآن / 66 .

[2] المصدر نفسه / 66 .

[3] أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسيّ / 73 . الشائع أنّ ابن مالك هو من قسّمها هذا التقسيم ، ينظر : البلاغة والتطبيق / 93 .

تداخلت بعض المفاهيم فيها بسبب من الأسباب أو التقت في بعض المقاييس في جملة منها بوجه من الوجوه))[1] .

والافتراض – كما سيلحظ – من الأساليب التي جاءت منسجمة ومترابطة مع جميع علوم البلاغة ، فهو لم يختص بعلم دون غيره ، ولا عُرف في نمط خاص أو صنف معين من صنوف البلاغة ، فهو معنويّ على جهة الخبر، تشكّله الجملة الشرطيّة ، ولعلّ أبرز أدواتها (لو – إنْ – لئن – مَن) . كقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر 21] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف81] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] ، وقوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[2]: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء 29] .

وإذا كانت الأداة مع أسلوب الشرط ، هي التي تدلّ على معنى الافتراض ، والجملة فيها خبريّة ، فالافتراض يأتي مع الجمل الإنشائيّة ، وقد يكون أحد العوامل في كشف معنى الافتراض ، هو التنغيم ، وهو ((ارتفاع الصوت وانخفاضه في أثناء الكلام ... وهنا تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميّز على مستوى الجملة))[3] . ومن الجمل الإنشائيّة التي يلحظ فيها الافتراض ، جملة الاستفهام ، وهو من الطلبيّ ، ولعلّ أهمّ أدواتها (الهمزة – أم المنقطعة) ، كقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران 80] ، الذي قال بفرضيّته صاحب الميزان [4] وقوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[5]: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[يوسف 39] ،

---

[1] أصول البيان العربيّ في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين على الصغير / 165 – 166 .

[2] ينظر : الكشاف 3 / 110 ،وإرشاد العقل السليم 6 / 64 ،وتفسير شبّر / 324 ،و روح المعاني 17 / 45 .

[3] دراسات في اللسانيّات العربيّة (المشاكلة – التنغيم – رؤى تحليليّة)،عبد الحميد السيد / 51 .

[4] ينظر : الميزان في تفسير القرآن 3 / 123 .

[5] ينظر : مفاتيح الغيب 18 / 457 ، الميزان 11 / 78 ، والتحرير والتنوير 12 / 64 .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾[النجم 12] الذي قيل بفرضيته[1] ، وقوله تعالى الذي قيل بفرضيته [2] : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾[الزخرف 16] ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور 35] الذي قيل بفرضيته[3] .

ومن الأساليب الطلبيّة أيضاً التي تأتي متضمّنة أسلوب الافتراض ، أسلوب الأمر وأسلوب النهي ، فمن أمثلة الأمر قوله تعالى، الذي قيل بفرضيّته[4] : ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ [الإسراء 50] ، ومن أمثلة النهي ، قوله تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء 213] وقيل بفرضيته [5] .

وقد تجتمع الجملة الخبريّة مع الإنشائيّة لِتحقّقا أسلوب الافتراض ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص 71]، الذي قيل بفرضيّته[6] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة 23] وقيل بفرضيته[7] ، وقوله تعالى الذي قيل بفرضيته [8] : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[يونس 94] ، وقوله تعالى،الذي قيل بفرضيّته[9] : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير 27 / 105 .

[2] ينظر : الكشاف 4 / 235 ، والبحر المحيط 8 / 10 ،و التحرير والتنوير 25 / 225 - 227.

[3] ينظر : في ظلال القرآن 6 / 3399 .

[4] ينظر : مفاتيح الغيب 20 / 352 ، والبحر المحيط 6 / 41 ،وروح المعاني 15 / 117 ، والميزان 13 / 50 ، والتحرير والتنوير 14 / 100 .

[5] ينظر : في ظلال القرآن 5 / 2619 .

[6] ينظر : روح المعاني 20 / 423 ،وفي ظلال القرآن 5 / 2708 ،و الميزان 16 / 204 .

[7] ينظر : روح المعاني 1 / 260 ، والتحرير والتنوير 1 / 330 .

[8] ينظر : الكشاف 2 / 357 ،ومفاتيح الغيب 17 / 299 ، والبحر المحيط 5 / 190 ، وروح المعاني 11 / 251 .

[9] ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 257 .

[المزّمل 17] ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[آل عمران 168] وقيل بفرضيته[1] .

والافتراض مع علم البيان وثيق الصلة ، فهو مع المجاز ظاهر ، كما في قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] ، فهذا القول ((على سبيل المجاز ، والمعنى أنّ الجبل لو كان ممّا يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه ولتصدّع من عظم شأنه على غلظ أجرامه وخشونة أكنافه . والإنسان أحقّ بذلك منه ، إذ كان واعياً لقوارعه ، وعالماً بصوادعه))[2] . وقوله تعالى، وقد قيل بفرضيّته[3] : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾[الزخرف 5] ، حيث إنّ معنى الآية : ((أفننحني عنكم بالذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز))[4] . ونجد الافتراض مع التشبيه ، كما في قوله تعالى الذي قيل بفرضيته[5] : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة 261] ، وقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[النحل 75]، وقد قيل بفرضيّته[6] .

ونجد الافتراض يُستعمل كنايةً عن المعنى المقصود بطريقة غيرمباشرة ، كقوله تعالى، الذي قيل بفرضيّته[7] : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي

---

(1) ينظر : روح المعاني 4 / 452 .

(2) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضيّ / 330 .

3 ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة / 97 ،و شرح المختصر 1 / 136 .

(4) الكشّاف 4 / 230 .

(5) ينظر : الكشاف 1 / 306 ،و الميزان 2 / 356 ، وينظر : مجمع البيان 2 / 270 ، إذ قال في تفسيره لهذه الآية، إنّ هذا المثل ((متصوّر وإنْ لم يُرَ)) .

(6) ينظر : مفاتيح الغيب 20 / 68 ، والميزان 12 / 293 .

(7) ينظر : الكشاف 4 / 80 ، والبحر المحيط 7 / 376 ،وإرشاد العقل السليم 5 / 356 ، والتحرير والتنوير23/ 134 .

وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[سورة ص 23] . فتعبير الآية الافتراضيّ ((مثل ضربه الله سبحانه له ونبّهه على خطيئته به ، وورّى عن النساء بذكر النعاج))[1]. وقوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[يوسف 39] ، فالتعبير في قوله (أأرباب متفرّقون) ((كناية عن الأصنام))[2].

وتبرز الاستعارة في التعبير الافتراضيّ في قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[المزّمل 17] ، فـ ((هذه استعارة والمراد بها : أنّ الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أنْ يشيبوا لرائع خطب أو طارق كرب ، لشابوا في ذلك اليوم لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله))[3] . وقوله تعالى، وقيل بفرضيّته[4] : ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾[يس 66] ، فالتعبير بقوله (لطمسنا) ((استعارة . والمراد بالطمس ههنا : إذهاب نور الأبصار حتّى يبطل إدراكها ، تشبيهاً بطمس حروف الكتاب ، حتّى تشكل قراءتها))[5]. وقوله تعالى، وقد قيل بفرضيّته[6] :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران 91] . فقوله (ملء الأرض ذهباً) ، من باب الاستعارة التخييليّة والاستعارة بالكناية[7] ، ولعلّ في هذا التعبير من الشمول والمبالغة ما ليس موجوداً لو أنّه قال : ملء ذهب

---

[1] تأويل مشكل القرآن / 165 ، وينظر تلخيص البيان في مجازات القرآن / 279 ، وأصول البيان العربيّ في ضوء القرآن الكريم / 149 .

[2] التفسير البلاغيّ للإستفهام في القرآن الحكيم،عبد العظيم إبراهيم المطعنيّ 2 / 129 .

[3] تلخيص البيان في مجازات القرآن / 352- 353 .

[4] ينظر : البحر المحيط 7 / 328 ،والجواهر الحسان في تفسير القرآن 5 / 19 ، وروح المعاني 23 / 61 ، ومشاهد القيامة في القرآن / 110 .

[5] تلخيص البيان / 275 .

[6] ينظر : مفاتيح الغيب 8 / 116 ، والبحر المحيط 2 / 542 ، والتحرير والتنوير 3 / 149 .

[7] ينظر : الميزان 3 / 150 .

الأرض . فالتعبير في الآية الكريمة صوّر الأرض إناءً مملوءاً بالذهب ، ولو قال (ملء ذهب الأرض) ، لاقتصر المعنى على ما في الأرض من ذهب فقط [1].

أمّا مع علم البديع ، فإنّ الترابط مع الافتراض لا يقلّ عن سابقَيه ، فيلحظ أنّ الافتراض له علاقة وطيدة بالمحسّنات المعنويّة ، ولعلّ أهمّها (المذهب الكلاميّ – الاستدراج – إلجام الخصم بالحجّة – التسليم – التسجيل – الإلهاب والتهييج – سلامة الاختراع من الإتباع) وغيرها من المحسّنات المعنويّة التي تعطي معنى الافتراض ودلالته . فمثلاً في المذهب الكلاميّ[2] نجد الافتراض في قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء 22] . وفي الاستدراج[3] ، كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [المؤمن 28] . وفي التسليم[4] ، كقوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون 91] . وفي الإلهاب والتهييج[5] ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] .وفي سلامة الاختراع من الاتباع[6] ، كقوله تعالى، الذي قيل بفرضيّته[7]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[الحجّ 73] .

---

[1] ينظر : دلائل الإعجاز / 131 – 134 .

[2] ينظر: بديع القرآن / 65 .

[3] ينظر: المثل السائر 2 / 64 .

[4] ينظر: بديع القرآن / 378 ،والإتقان في علوم القرآن 2 / 266 .

[5] ينظر: كتاب الطراز / 567 .

[6] ينظر بديع القرآن / 268 – 269 ، ومعجم المصطلحات البلاغيّة ، أحمد مطلوب 68/1 .

[7] ينظر : روح المعاني 17 / 260 ،والميزان 14 / 346 ، والتحرير والتنوير 17 / 245 .

5- الافتراض بين المكيّ والمدنيّ :

أكثر المجتمع المكيّ من الجدل والحجاج مع النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ، وقد أملى لهم هذا الجدل ((أنّ (محمّداً بن عبد الله) يقرّ بأنّه بشر مثلهم ، وأنّه لم يأتهم بآية ممّا ٱقترحوه عليه . وردّاً على هذه المزاعم الجدليّة من المشركين ، بدأ القرآن من أواسط العهد المكيّ – الذي اشتدّ فيه الجدل ... - يواجههم بالتحدّي والمعاجزة حسماً لكلّ جدل أو ريب فيه ، وبرهاناً قاطعاً على إعجازه وحجّة بالغة على مَن زعموا أنّ محمّداً – ص – تقوّله وٱفتراه أو ٱكتتبه من أساطير الأوّلين))[1] .

وممّا يلحظ في هذه الردود على المزاعم أنّ ((المناظر مرتبط بخصمه مقيّد بأفكاره إلى حدّ ما ، فهو يستمع إليها أو يقرؤها ثُمّ يناقشها ، ولذلك يُردّد في عباراته كثيراً من ألفاظ نظيره وعباراته إذ كانت موضوع الحوار))[2] . وحينئذٍ بدأ التحدّي لهؤلاء المشركين بأنْ يأتوا بكلام من مثله ، ويبدو أنّ الترابط وثيقاً بين آيات التحدّي وأسلوب الافتراض ، إذ كانت الآيات تجادلهم وتطالبهم بالإتيان بمثله بأسلوب ملؤه التعجيز والتكذيب ((وأوّل ما نزل من آيات المعاجزة آية الإسراء المكيّة ، ردّاً على مَن جحدوا نبوّة الرسول لكونه بشراً مثلهم ، فكان إعجاز القرآن مع الإقرار ببشريّة الرسول عليه الصلاة والسلام تحدّياً جهيراً لهؤلاء الذين أبوا إلاّ كفوراً وٱستكباراً))[3] ، فقال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء 88] ، وقد قيل بفرضيّته[4].

وٱستمرّ التقريع للمشركين المعاندين – طوال العهد المكيّ – بأنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولِمَ لا يأتون بمثله ((واللغة لغتهم والبيان طوع ألسنتهم ... وبعدها في مستهلّ العهد المدنيّ نزلت آية البقرة أولى السور المدنيّات والتحدّي فيها بسورة من مثله إنهاءً لهذا الجدل الذي طال))[5].

---

[1] الإعجاز البيانيّ للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ / 66 – 67 .

[2] الأسلوب : أحمد الشايب / 92 - 93 .

[3] الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق / 66 – 67 .

[4] ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم 5 / 194 ،وروح المعاني 15 / 211 .

[5] الإعجاز البياني للقرآن / 68 .

ولِنقُل أيضاً إنهاءً لهذا النوع من الافتراض المتحدّي على الإتيان بمثل القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة 23] ، الذي قيل بفرضيّته[1]. لقد كان لطبيعة المجتمع المشرك في مكّة أنْ يكون موضوع الجدل والحجاج ((قضيّة الإيمان بالله – وجوده ، ووحدانيّته ، وقدرته ، ورحمته ، وسعة علمه – وقد عرضتها المشاهد في تصوير بياني رائع مخاطبةً البداهة والبصيرة مجليةً الحقيقة تجليةً لا خفاء فيها ولا لبس))[2] ، فقال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء22] وقال بفرضيّة هذا التعبير طائفة من المفسرين[3] .

إنّ أهمّ القضايا التي كانت مدار الجدل والمحاججة في القرآن – والتي كانت معظم الآيات الافتراضيّة تأتي مفنّدة لها – تدور في ثلاثة محاور : ((أحدها ذكر الله تعالى بما لا يليق به ،من أنّ الملائكة بناته ، وأنّ له ولداً وشريكاً ، وأنّه ثالث ثلاثة ، والثاني ذكر رسول الله (ص) بأنّه ساحر وكاهن وكذّاب ، وإنكار نبوّته ، وأنّه كسائر الخلق فلا يستحقّ أنّ يُتّبع ، وثالثها إنكار اليوم الآخر والبعث والنشور والجنّة والنار وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية ، وفي محاجّة الله تعالى إيّاهم بالحجج لطائف وحقائق ويوجد فيها الترياق الأكبر وآياته أيضاً كثيرة ظاهرة))[4] . وكان النصيب الأكبر في مناقشة هذه القضايا في السور المكيّة ؛ وذلك لكون الصفة العامّة للمجتمع المدنيّ أصبحت صفة الإسلام الذي يؤمن بالوحدانيّة لله تعالى ، والنبوّة للرسول – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وإيمانه باليوم الآخر ، ولذا فقد كان حال أهل المدينة ((مقتضياً تبعاً لإيمانهم وتصديقهم قبول أمور التشريع في العبادات والمعاملات الشخصية والدولية ، كما أقتضى الوجود المكاني لأهل المدينة المجاور لفريقين من غير المؤمنين بالرسالة المحمّديّة ، وهم المنافقون وأهل الكتاب أنْ

---

[1] ينظر : البحر المحيط 1 / 247 ، وروح المعاني 1 / 260 ، والتحرير والتنوير 1 / 330 .

[2] المشاهد في القرآن الكريم، حامد صادق قنيبيّ / 305 – 306 .

[3] ينظر : مجمع البيان 7 / 121 ، ومفاتيح الغيب 22 / 127 ، والبحر المحيط 6 / 281 ، وإرشاد العقل السليم 4 / 330 ،وروح المعاني 17 / 32 ، والتحرير والتنوير 17 / 31 .

[4] جواهر القرآن، الغزاليّ / 31 – 32 ، وينظر: مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد / 266 – 267 .

يكون فيه (أي المدني) ذكر لمواقفهم وإنكارهم وتجنّيهم على نبوّة محمّد (ص) ،إنّ الفرق بين المكّيّ والمدنيّ فرق خطابي أساساً يعتمد على الموضوعية التي تعتمد بدورها على الأحوال المكانيّة والزمانيّة في المسموع مكان أو زمان نزوله))[1] . وقد كان لنزول القرآن مفرّقاً على العهدين (المكّيّ والمدنيّ) ، ووجود آيات مفرّقة منقولة عن العهد الذي نزلت فيه ، كلّ ذلك جعل التفريق بين السور المكيّة والمدنيّة ((على سبيل الحسم يظلّ أمراً اجتهادياً ، فقد كان اجتهاد القدماء عادةً يركز في الترجيح بين المرويات دون أنْ يتجاوز ذلك إلاّ قليلاً إلى محاولة البحث عن خصائص أسلوبيّة فارقة إلى جانب المعيار الزمنيّ والمعيار الموضوعي))[2]. فالدعوة في مكّة في مرحلة الإنذار ، وحينما تنتقل إلى المدينة تكون في مرحلة الرسالة ، فالإنذار ((يعتمد على التأثير الذي يعتمد بدوره على لغة ذات أسلوب مركّز وموقّع ... ولكنّ الرسالة من جهة أخرى تخاطب المتلقّي وتنقل إليه محتوىً أوسع من مجرّد التأثير ، وهي من ثَم تحتاج لغةً مختلفةً على مستوى التركيب والبناء . في الرسالة يغلب جانب نقل (المعلومات) على جانب التأثير ، وإنْ كان لا يلغيه إلغاءً تامّاً ، وفي الإنذار تكون الأولويّة للتأثير ويقلّ جانب نقل (المعلومات) أو يصبح ثانويّاً بناءً على هذا المعيار))[3] .

اختلف التعبير الافتراضيّ في مكّة عنه في المدينة ، فطريقة التعبير الافتراضيّ مع أهل مكّة – في أغلبها – طريقة عقليّة على شكل مذهب كلاميّ وهو ((إيراد حجّة للمطلوب على طريقة القرائن (الاقترانيّة) لأستنتاج المطلوب ، مثاله قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء 22] ، أي الفساد منتفٍ فكذلك الآلهة منتفية . وقوله تعالى أيضاً : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [الأنعام 76] ، أي الكوكب أفل وربّي ليس بآفل ينتج من الثاني الكوكب ليس بربّي))[4].

---

[1] دلالة السياق، ردّة الله بن ردة الطلحيّ / 114 – 115 .

[2] مفهوم النص / 79 .

[3] المصدر نفسه / 79 – 80 .

[4] التعريفات / 169 .

أمّا التعبير الافتراضيّ في العهد المدنيّ فقد كانت معظم آياته تدور ، إمّا في دائرة الإلهاب والتهييج ، ولا سيّما في الخطابات الموجّهة للنبيّ عليه الصلاة والسلام ، أو التعجيز والتوبيخ في الخطابات الموجّهة للمنافقين ، منها قوله تعالى ، الذي قيل بفرضيّته[1] : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة 145] ، وقوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء 78] .

ويمكن أنْ نستنتج من هذا أنّ الافتراض في أغلب مواضعه من السور المكّيّة يكون أسلوباً إقناعيّاً مؤثّراً في المتلقّي الذي يرفض الأفكار التي جاء بها الوحي ((ولذلك إذا ذكر تعالى حجّةً على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرّة بإضافته إلى أولي العقل ، ومرّة إلى السامعين ، ومرّة إلى المفكّرين ، ومرّة إلى المتذكّرين تنبيهاً أنّ بكلّ قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها))[2]. وتغلب صفة المناظرة والجدل على أسلوب الافتراض في القرآن ، بل وفي غير القرآن ، ممّا جعله يستعمل العبارات ذات القياس المنطقي ، وحرص على ٱستعمال الألفاظ الخاصّة بموضوع المناظرة تسهيلاً للتفاهم وتحديداً للأفكار ، فجاءت العبارة دقيقة واضحة ليس فيها إسهاب مُخلّ ولا تكرار غير مفيد[3]. أمّا في العهد المدني ، فقد كان أسلوب الافتراض القرآني أسلوباً ذا دلالات بلاغية وغايات توجيهية ، أكثر منها جدليّة احتجاجية ، كما في العهد المكيّ ، فكان الأسلوب إمّا مهيّجاً ملهباً للنبيّ عليه الصلاة والسلام والمسلمين ، أو موبّخاً مكذّباً للمنافقين . وبصورة عامّة ، فإنّ

---

[1] ينظر: الكشاف 1 / 202 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 1 / 112 ، والبحر المحيط 1 / 606 ، وإرشاد العقل السليم 1 / 216 ، وتفسير القرآن الكريم / 22 ، والتحرير والتنوير 2 / 36 .

[2] البرهان في علوم الفرآن، الزركشيّ 2 / 17 – 18 .

[3] ينظر: الأسلوب / 100 – 101 .

((التوجّه إلى المشركين ومجادلتهم ، سمة المكيّ ، أمّا التوجّه إلى أهل الكتاب وأيضاً التوجّه إلى المنافقين ، فسمة المدنيّ))[1] .

6- إشكاليّات تحديد الافتراض عند المفسّرين :

كان لتحديد أسلوب الافتراض عند المفسّرين إشكاليّات متعدّدة ، منها ما يختص بالمعنى الدالّ على الافتراض ، ومنها ما يختص بالمفسّر نفسه ، فهو قد يقول في آية معيّنة : إنّها على الفرض . ولا يقول ذلك في آية أخرى مشابهة لها في المعنى . وقد تكون الإشكاليّة أنْ ينفرد مفسّر أو مفسّران في القول بالافتراض ، أو أنّ العلماء المفسّرين لا يصرّحون بأنّ المعنى على سبيل الافتراض ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة 18] ، فالزمخشريّ مثلاً يقول معلّقاً على قوله (فلِمَ يعذّبكم بذنوبكم) : ((فإنْ صحّ أنّكم أبناء الله وأحبّاؤه فلِمَ تذنبون وتعذّبون بذنوبكم فتمسخون وتمسّكم النار أيّاماً معدودات على زعمكم . ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب . ولو كنتم أحبّاءه لما عصيتموه ولما عاقبكم))[2]. فهذا التفسير الذي قاله الزمخشريّ ، ليس بينه وبين عدّه من باب الافتراض إلاّ أنْ ينطق بلفظ (الافتراض) ، أمّا المعنى الذي فسّره ، فلا يحتاج إلى جهد كبير ؛ لمعرفة أنّ للمعنى دلالة واضحة على الافتراض . وبمثل هذا المعنى قال علماء آخرون دون أنْ يصرّحوا بأنّه : على سبيل الافتراض . فالبيضاويّ يقول في تفسيرها : ((فإنْ صحّ ما زعمتم فلم يُعذّبكم بذنوبكم فإنّ مَن كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه ،وقد عذّبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ واعترفتم بأنّه سيعذّبكم بالنار أيّاماً معدودات))[3]. أمّا الثعالبيّ ، فقال : ((أي لو كانت منزلتكم منه فوق منازل البشر لما عذّبكم ، وأنتم قد أقررتم أنّه يعذّبكم))[4].

---

[1] المعنى القرآني بين التأويل والتفسير ، دراسة تحليليّةمعرفيّة في النص القرآنيّ ، عباس أمير / 228 .

[2] الكشّاف 1 / 606 .

[3] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2 / 309 .

[4] الجواهر الحسان في تفسير القرآن2 / 366 .

وفسّرها أبو السعود بقوله : ((أي إنْ صحّ ما زعمتم فلأيّ شيءٍ يعذّبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد عرفتم بأنّه تعالى سيعذّبكم في الآخرة بالنار أيّاماً بعدد أيّام عبادتكم العجل ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع))[1]. أمّا الآلوسيّ فقال : ((أي إنْ صحّ ما زعمتم فلأيّ شيء يعذّبكم يوم القيامة بالنار أيّاماً بعدد أيّام عبادتكم العجل ... أو فلأيّ شيءٍ أذنبتم بدليل أنّكم ستعذّبون ... أو إنْ صحّ ما زعمتم فلِمَ عذّبكم بالمسخ الذي لا يسعكم إنكاره))[2] .

ويلحظ أنّه قد تأتي مجموعة من الآيات لتدلّ على معنًى واحدٍ أو معنًى مقاربٍ للآخر ، إلاّ أنّ العلماء يقولون في بعضها بالافتراض ، ولا يقولون في الآخر بذلك ، فمثلاً نجد الآيات من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[آل عمران 91] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة 36] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس 54] ، وقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد 18] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر 47] .

فيلحظ أنّ الزمخشريّ[3] مثلاً لم يقل بالافتراض في جميع الآيات . وكذلك كان قول الطبرسيّ[4] . أمّا البيضاويّ فهو قد يتحدّث عن الافتراض دون التصريح به ، كقوله في آية المائدة ((إذ التقدير: لو ثبت أنّ لهم ما في الأرض ... والجملة تمثيل للزوم

---

[1] إرشاد العقل السليم 3 / 21 .

[2] روح المعاني 6 / 372 .

[3] ينظر الكشّاف 1/ 376 ،و1 / 616 ،و 2 / 340 ، و2 / 504 ، 4و / 128 .

[4] ينظر مجمع البيان 2 / 511 ، 3و / 469 ،و 5 / 286 ،و6 / 44 ،و 8 / 600 .

العذاب لهم وأنّه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه))[1] ، أو أنْ يفسّر الآية بدلالتها ، كقوله في آية الزمر ((وعيد شديد وإقناط كلّيّ لهم من الخلاص))[2] . أو أنْ يكون تفسيره موجزاً ،كما في الآيات الأخر[3] .

أمّا أبو السعود ، فقد صرّح بالفرض في آية المائدة[4] فقط . أمّا الآيات الأخرفهو إمّا يفسّرها تفسيراً موجزاً[5] ، أو أنْ يذكر الدلالة في التعبير فيها ، كقوله في آية الزمر((فهذا كما ترى وعيد شديد وإقناط كلّيّ لهم من الخلاص))[6] والواضح أنّ كلام أبي السعود مأخوذ بالنص من البيضاويّ .

أمّا الآلوسيّ ، فهو يُصرّح بالفرض في آيتي المائدة والزمر ، فهو في آية المائدة[7] يكرّر ما قاله أبو السعود . أمّا في آية الزمر ، فيقول : ((وحاصله أنّ العذاب لازم لهم لا يخلصون منه ، ولو فُرض هذا المحال ، ففيه من الوعيد والإقناط ما لا يخفى))[8]. ولا يُصرّح بالافتراض في الآيات الأخر ، بل كان تفسيره لها موجزاً[9] .

أمّا من المحدثين ، فيُصرح سيّد قطب بالافتراض في آيتي المائدة ويونس ، يقول في آية المائدة : ((إنّ أقصى ما يتصوّره الخيال على أساس الافتراض : هو أنْ يكون للذين كفروا كلّ ما في الأرض جميعاً ، ولكنّ السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض . فيفرض لهم أنّ ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، ويصوّرهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك))[10]. ويقول في آية

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2 / 322 .

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 70 .

(3) ينظر: المصدر نفسه 2 / 63 – 64 ،و 3 / 203 ، و3 / 326 .

(4) ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 33 .

(5) ينظر: إرشاد العقل السليم 2 / 57 ، و4 / 154 ، و5 / 17 – 18 .

(6) إرشاد العقل السليم 7 / 258 .

(7) ينظر: روح المعاني 6 / 408 .

(8) روح المعاني 24 / 364 .

(9) ينظر: روح المعاني 3 / 288 – 292 ، و11 / 181 – 182 ،و13 / 165 – 167.

(10) في ظلال القرآن، سيد قطب 2 / 882 .

يونس ((وبينما نحن معهم على هذه الأرض في ٱستنباء وجواب إذا نحن فجأة – مع السياق في نقلة من نقلات الأسلوب القرآني المصوّر – في ساحة الحساب والجزاء . مبدئيّاً على وجه الفرض والتقدير . (ولو أنّ لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به) فلا يُقبل منها حتّى على فرض وجوده معها . ولا تكتمل الآية حتّى يكون الفرض قد وقع وقُضي الأمر))[1]. وهو لا يأتي على ذكر الافتراض في الآيات الأخر[2] .

أمّا الطباطبائيّ ، فلا يصرّح بالفرض إلاّ في آية الرعد ، حيث يقول : ((لو كانوا يملكون غاية مناهم في الحياة ، وما فوق هذه الغاية رضوا أنْ يفتدوا بهذا الذي يملكونه فرضاً عمّا يفوتهم من الحسنى))[3]. ولا يُصرّح بالافتراض في الآيات الأخر[4] .

أمّا ٱبن عاشور ، فهو يُصرّح بالافتراض في آيتي آل عمران[5] والمائدة[6] ، فيما يفسّر الآيات الآيات الأخر تفسيراً موجزاً ، وإنْ كان قد أشار إلى دلالة الآية في سورة الزمر[7] .

ويلحظ أيضاً ، أنّه قد ينفرد مفسّر أو مفسّران بالقول بالافتراض في آية ما ، كالذي نراه في تفسير أبي السعود لقوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء 47] . فهو يقول في قوله (إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً) : ((ما تتبعون إنْ وجد منكم الإتباع فرضاً أو ما تتبعون باللغو والهزء))[8]. ويلحظ أنّ الآلوسيّ[9] قد ردّد ما قاله أبو السعود في تفسير الآية .

---

[1] في ظلال القرآن 3 / 1798 .

[2] ينظر: في ظلال القرآن 1 / 424 ، و4 / 2054 ، و5 / 3056 .

[3] الميزان 11 / 148 .

[4] ينظر: المصدر نفسه 3 / 150 ،و 5 / 146 ، و10 / 211 ،و 17 / 118 .

[5] ينظر: التحرير والتنوير 3 / 149 – 150 .

[6] ينظر: المصدر نفسه 5 / 98 .

[7] ينظر: المصدر نفسه 11 / 106 ،و 12 / 170، و24 / 106 .

[8] إرشاد العقل السليم 5 / 176 .

[9] ينظر: روح المعاني 15 / 115 .

وينفرد الآلوسيّ بالقول بالافتراض في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأنعام 15] ، فيقول في تفسيرها : ((وفي الكلام مبالغة أخرى بالنظر إلى ما يفهم ممّا تقدّم في قطع أطماعهم ، وتعريض بأنّهم عصاة مستحقّون للعذاب ، حيث أسندإلى ضمير المتكلّم ما هو معلوم الإنتفاء . وقرن بـ (إنْ) التي تفيد الشك وجيء بالماضي إبرازاً له في صورة الحاصل على سبيل الفرض))[1].

وقد ٱنفرد سيّد قطب – على حد ما اطلعت عليه - بالقول بالافتراض في قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾[الكهف 51] ، فقال في تفسيره لها : ((إنّما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها وٱستئصالها ، فالذين يتولّون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنّما يسلكون هذا المسلك توهّماً منهم أنّ للشيطان علماً خفيّاً وقوّة خارقة . والشيطان مضلّ ، والله يكره الضلال والمضلّين . فلو أنّه – على سبيل الفرض والجدل – كان متّخذاً له مساعدين ، لما ٱختارهم من المضلّين))[2].

وٱنفرد الطباطبائيّ – على حد ما ٱطلعت عليه - بالقول بالافتراض في قوله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[من سورة يوسف 76] ، فقال في تفسيرها : ((وفي قوله (وفوق كلّ ذي علم عليم) بيان أنّ العلم من الأمور التي لا يقف عند حدّ ينتهي إليه بل كلّ ذي علم يمكن أنْ يفرض مَن هو أعلم منه))[3]. وٱنفرد أيضاً بالقول بالافتراض في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾[من سورة يونس 12] ، فقال في تفسيره للآية : ((أي دعانا على أيّ حال من أحواله فرض من ٱنبطاح أو قعود أو قيام))[4].

وقد يكون معنى الآية واضح الدلالة على الافتراض ، ولا يقول به واحد من علماء التفسير ، كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء 78] .

---

[1] روح المعاني 7 / 142 .

[2] في ظلال القرآن 4 / 2275 .

[3] الميزان 11 / 99 - 100 .

[4] الميزان 10 / 190 .

الفصل الأوّل :

طرق التعبير عن معنى الافتراض :

1- الشرط : (إنْ – لو – لئنْ – مَنْ) .

2 - الطلب :

أ- الاستفهام : (الهمزة – أم المنقطعة)

ب- النهي .

ج- الأمر .

3- النفي .

4 - المثل : (العقليّ – المجازيّ) .

1- الشرط :

جاء الافتراض القرآني متناغماً إلى درجة كبيرة مع بعض أدوات الشرط ، ويبدو أنّ هذا التناغم جاء ؛ لكون أسلوب الشرط يقوم على أساس الشرط وجواب الشرط أو السبب والنتيجة ، فيتوقف حصول النتيجة على حصول السبب ، فمعنى الشرط في الاصطلاح هو ((تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد الأوّل وجد الثاني، وقيل : الشرط: ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجاً عن ماهيته ولا يكون مؤثراً في وجوده ، وقيل : الشرط :ما يتوقف ثبوت الحكم عليه))[1] ، ورأى بعض المحدثين أنّ تعليق حصول الجزاء أو الجواب بفعل الشرط لا يشترط أنْ يكون الشرط سبباً للجزاء ، وذلك نحو : إنْ كان النهار موجوداً كانت الشمس طالعة . فوجود النهار ليس سبباً في طلوع الشمس ، إنّما هو ملزوم ، والجواب لازم له ؛ ولهذا يقولون : إنّ الشرط ملزوم دائماً والجزاء لازم ، سواء أكان الشرط سبباً أم غير سبب[2] . ومن أهمّ أدوات الشرط التي أعطت الدلالة على الافتراض :

إنْ :

من حروف الشرط ،وهي عند سيبويه أمّ الجزاء ،فقال عنها :((وزعم الخليل أنّ (إنْ) هي أمّ حروف الجزاء ،فسألته :لِمَ قلت ذلك ؟ فقال :من قِبل أنّي أرى حروف الجزاء قد يتصرّفنَ فيكنّ ٱستفهاماً، ومنها ما يفارقه ما فلا يكون فيه الجزاء ،وهذا على حال واحدة ابداً لا تفارق المجازاة))[3]. وقد فرّق عبد القاهر الجرجانيّ بين ٱستعمال (إنْ) و(إذا) في الشرط ،ورأى أنّ

---

[1] التعريفات / 104 .

[2] ينظر : النحو الوافي ، عباس حسن 4 / 318 .

[3] كتاب سيبويه 63/3،وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المراديّ /208.

(إنْ) ((فيما يترجح بين أنْ يكون وأنْ لا يكون ، وإذا فيما عُلم أنّه كائن))[1].وقد أضاف الزمخشريّ،معنى آخر لـ (إنْ)،إذ راى أنّها تستعمل في مواضع اليقين لأغراض بلاغيّة دقيقة،منها التهكم ،كقوله:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[البقرة23] .فقد كان المشركون مرتابين حقّاً ،ولكنْ جيء بـ (إنْ) التي للشك لغرض التهكم بهم ((كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه :إنْ غلبتك لم أُبقِ عليك ،وهو يعلم أنّه غالبه ويتيقنه تهكماً به))[2].

ويرى الدكتور فاضل السامرّائيّ أنّ(إنْ) تستعمل ((في المعاني المحتملة الوقوع ،والمشكوك في حصولها ،والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى ،فهي لتعليق أمر بغيره عموماً))[3].

وجاء بمجموعة أمثلة على ذلك[4]،فمن ٱستعمالها في المعاني المحتملة الوقوع ،قوله تعالى :﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾[البقرة191].أمّا في المعاني المشكوك في حصولها، فكقوله تعالى :﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[الأعراف 143]. وأمّا في المعاني المفترضة التي لا وقوع لها في المشاهدة ،فكقوله تعالى :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص71].و في المعاني المستحيلة ،فكقوله عزّ وجلّ :﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81].

تستعمل (إنْ) إذاً في الأمور المشكوك بوقوعها ، أو المستحيلة ، أو النادرة ،وفي هذا تناسب كبير مع معنى الافتراض الذي يستحضر ويوجد أشياء لا وجود لها في أحيانٍ كثيرةٍ ،ويبني عليها نتائج لأغراض بلاغيّة كثيرة ،فاستعمال (إنْ) بهذه المعاني جاء متوافقاً مع هذا المعنى ، ولعلّ ممّا يؤيد ذلك ما نقله أحد المستشرقين ، من أنّ (إنْ) الشرطيّة ترجمة للكلمة الأكدية

---

[1] دلائل الإعجاز /118.

[2] الكشاف 107/1 ،وينظر: البلاغة تطور وتأريخ، شوقي ضيف /251 ،والتراكيب الإسناديّة:عليّ أبو المكارم/158 ،والمباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآنيّ ، أحمدجمال العمريّ /179.

[3] معاني النحو 59/4.

[4] ينظر: معاني النحو 59/4.

(summa)،ومعناها الدقيق هوقولنا : ٱفتراضاً[1] .وقد تستعمل (إنْ) في الأمور الممكنة الحصول لأغراض ،منها ((التوبيخ على الشرط وتصوير أنّ المقام لاشتماله على ما يقلعه عن أصله لا يصلح إلا لفرضه كما يُفرض المحال))[2]. كقوله تعالى :﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ﴾[الزخرف 5].ومنها الدلالة على الحال ،ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[البقرة23].فـ ((هذا الافتراض لحالتهم آنذاك))[3].

وممّا جاء في التعبير القرآنيّ فرضاً مباشرا ًبالأداة (إنْ) ،قوله تعالى :﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[يونس 94].

فقد جاءت كثير من الآيات الكريمات مخاطبةً للنبيّ ﷺ،وظاهر هذه الآيات أنّ الأفعال أو الأقوال المذكورة ،هي ممّا يقوم به النبيّ، ولكنْ عصمة النبيّ عن ٱرتكاب مثل هذه الأفعال تكون مدعاةً إلى أنّ المقصود بالخطاب ليس النبيّ ﷺ،بل هو للمسلمين عامة. فلو أخذنا الأمر على ظاهر الآية لكان النبيّ يساوره الشكّ في أمر الدعوة ،فيلجأ إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى ،ليؤكّدوا له صحة دعواه أو عدمها . وهذا ممّا لاوجود له في الواقع .لقد فسّر المفسّرون هذه الآية على أنّها واردة على سبيل الفرض[4] ،فـ (إنْ) الشرطيّة ((تقتضي تعليق شيء على شيء ولا تستلزم تحتم وقوعه ولا إمكانه ،بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً))[5]. وقد جاء التعبير بـ (إنْ)

---

[1] ينظر : التطور النحويّ للغة العربيّة ، براجستراسر / 198 .

[2] الإيضاح في علوم البلاغة/97.

[3] اسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم /48.

[4] ينظر: الكشّاف 357/2،ومفاتيح الغيب 299/17ـــــ302،وأنوار التنزيل وأسرار التأويل123/3ـــ124،والبحر المحيط 6 / 106،وإرشاد العقل السليم 273/3،وتفسيرشبّر/219،وروح المعاني 251/11 ، ومختصر تفسير الخازن 2 / 758 .

[5] البحر المحيط6 / 105 .

الدالّة على المشكوك في وقوعه ،وفي قوله(في شكّ) للدلالة على ((شك ما يسير))[1]،أي أنّ الشك لم يكن إنكاريّاً،بل شك موصل لليقين،وفي قوله(ممّا أنزلنا) تعظيم للشيء المنزَّل،ففيه توكيد على النزول من السماء ثُمّ إسناد الفعل للضمير(نا) المعظِّمة للذات الإلهية،وفي قوله (إليك) تخصيص للنبيّ باصطفائه من دون غيره للنبوّة.ودلالة الفاء والفعل(فاسأل) على عدم تحقّق الفعل بعدُ،وإنّما هو للاستقبال،وفي تعريف(الكتاب) إشارة إلى كتابٍ متعارف عليه بينهم ،والمقصود به ما أنزل على موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ من توراة وإنجيل ، ليأتيَ قوله تعالى (لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين) ليؤكّد بأكثر من توكيد أنّ ما انزل هو الحقّ ،فيجب أنْ لا يبقى أي شك فيه ،فقد أكّد الكلام باللام، وقد، وتعريف (الحقّ) ،وفي إسناد كلمة (ربّ) إلى كاف الخطاب ، ونون التوكيد[2] في قوله (تكوننّ).لذا فإنّ هذا الشرط الافتراضيّ بالحرف (إنْ) ((لا يستلزم وجود ريبٍ في قلب النبيّ ــصلّى الله عليه وآله وسلم ـــ ،ولا تحقّق شكّ منه ،فإنّ هذا النوع من الخطاب كما يصحّ أنْ يخاطب من يجوز عليه الريب والشكّ كذلك يصحّ أنْ يخاطب به مَن هو على يقين من القول وبيّنة من الأمر على نحو من التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبِر ممّا تعاضدت عليه الحجج وتجمّعت عليه الآيات ، فإنْ فرض من المخاطب أو السامع شكّ في واحدةٍ منها كان له أنْ يأخذ بالأخرى))[3].

ونحو هذا من التعبير الافتراضيّ نجده في حوار مؤمن آل فرعون مع قومه ،في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر 28].

فقد ٱرتبطت بعض طرق الجدل والمحاججة بالسبر والتقسيم ، حيث يقوم المحاجج بتتبع كلّ الاحتمالات الممكنة في مناقشة القضيّة التي يدور حولها الجدل ، فيفرض كلّ وجه يمكن أنْ تتبادر

---

[1] روح المعاني 251/11.

[2] ينظر: التعبير القرآنيّ/133.

[3] الميزان 230/10.

إلى الذهن إمكانيّته . وهذا ما يلحظ في الحوار الذي دار بين مؤمن آل فرعون حين حاجج قومه في قضيّة تصديقهم أو تكذيبهم لموسى عليه السلام،فجدله ((آستدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ... ثُمّ أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أنْ يكون كاذباً أو صادقاً(فإنْ يك كاذباً فعليه كذبه) أي يعود عليه كذبه ولا يتخطّاه ضرره(وإنْ يك صادقاً يصبكم بعض) ما يعدكم به إنْ تعرضتم له))[1].

إنّ طبيعة الدعوة التي جاء بها موسى عليه السلام توجب على المبعوث إليهم آختياراً واحداً غير متأرجح ،كما أنّها تكون إمّا صادقة أو كاذبة ،لذا نجد مؤمن آل فرعون((يفرض لهم أسوأ الفروض ، ويقف معهم موقف المنصف أمام القضيّة تمشّياً مع أقصى فرض يمكن أنْ يتّخذوه (وإنْ يك كاذباً فعليه كذبه) وهو يحمل تبعة عمله ويلقى جزاءه ويحتمل جريرته وليس هذا بمسوّغ لهم أنْ يقتلوه على أيّة حال . وهناك الاحتمال الآخر ، وهو أنْ يكون صادقاً ، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال ،وعدم التعرض لنتائجه (وإنْ يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم) وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقلّ احتمال * في القضيّة ، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه .وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام))[2]. فهذا الأسلوب الذي آستعمله مؤمن آل فرعون قد أبدى فيه حرصاً وتعاطفاً مع قومه ، كما ((هوّن من أهميّة القضيّة من جانب ، ثمّ ربطها بمصلحة القوم من جانب ثانٍ في حال صدق موسى بدعواه ، ممّا يجعل القوم – دون أدنى شك – مطمئنّين إلى مشاعره حيالهم ثمّ تدرج ... في تصعيد الموقف من خلال تذكيرهم بالأقوام البائدة ثمّ بشخصيّة يوسف وتشكيكهم برسالته))[3] .

وقد جاء التعبير الافتراضيّ بالأداة (إنْ) الشرطيّة المتبوعة بالفعل الناقص (يك) مخفّفاً بحذف النون منه ،ولعلّ في ذلك دلالة على ((الإسراع فإنّ المقام قد يقتضي الإسراع ،ولا يقتضي الإطالة في الكلام شأن التحذير والإغراء))[4]. وجاء جواب الشرط الفرضيّ الأوّل بالجملة

---

[1] الكشّا ف 158/4 ،وينظر: البحر المحيط 9 / 252 .

* كذا وردت .

[2] في ظلال القرآن 3079/5.

[3] قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً ، محمود البستانيّ2 / 357 .

[4] معاني النحو 210/1.

الاسميّة ،وقدّم شبه الجملة (عليه)،ولعلّ في ذلك دلالةً على أنّ عاقبة الكذب لا تصيب إلا صاحبها ،أمّا في الفرض الثاني ، فقد جعل عاقبة صدقه (يصبكم)،وقد جاءت جملة فعليّة؛ للدلالة على الحدوث في الاستقبال. والضمير المنصوب فيها للمخاطبين ،والظاهر أن ّفيه إشارة إلى أنّ أثر صدقه يكون بإنزال العذاب عليهم ،ثُمّ يأتي بكلام فيه تحذير للطرفين (إنّ الله لايهدي مَن هو مسرفٌ كذّاب) ((فإذا كان موسى فإنّ الله لايهديه ولايوفقه ،فَدعوه له يلاقي منه جزاءه .وٱحذروا أنْ تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربّه وتسرفون ،فيصيبكم هذا المآل))[1].

ومن التعابيرالتي جاءت فيها (إنْ) ، وقدأعطت معنى الافتراض ،قوله تعالى :﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81].

فقد اهتمّ النصّ القرآنيّ المقدّس بتنزيه الله تعالى عن الأوصاف التي وصفه بها المشركون من جهة ،وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة أخرى ، ومن هذه الصفات تنزيهه عن الصاحبة والولد ،كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً ﴾[الجنّ 3]،وقوله تعالى :﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الإسراء 111].ويلحظ أنّ بعضاً من الآي الحكيم تفرض وجود الولد ـــ وهو فرض مستحيل ـــ من أجل إفحام الخصم وإلجامه بالحجّة،وبيان أنّ وجود هذا الولد بالبرهان القاطع يوجب العبادة له كما يعبد الله ؛ لكونه الامتداد لله ،وإرضاؤه إرضاءٌ لله تعالى ،فإذا صحّ ((ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجّة واضحة تدلون بها (فأنا أوّل) من يعظّم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ،كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ،وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه))[2].وهذه الآية كما

---

[1] في ظلال القرآن 3079/5،وينظر: روح المعاني 435/24.

[2] الكشّاف 258/4،وينظر: مفاتيح الغيب 645/27 ــ649، والبحر المحيط 9 / 390،وتفسيرالقرآن العظيم ، ابن كثير 228/6ــ229 ، و تفسيرشبّر /495،وأضواء البيان 148/7ــ153،والتحرير والتنوير 296/25ــ298 ، ومختصر تفسير الخازن 3 / 1386 .

هوظاهر مركّبة من شرط وجزاء ،وهي((قضيّة شرطيّة حقّة من شرطٍ باطل ومن جزاء باطل ،لأنّ قولنا :كان للرحمن ولد باطل، وقولنا : أنا أوّل العابدين لذلك الولدباطل أيضاً))[1].

ورأى ٱبن كثير [ت 774هـ] أنّ معنى الآية هو أنّه ((لو فُرض هذا لعبدته على ذلك لأنّي عبد من عبيده ،مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي ٱستكبار ولا إباء عن عبادته ،فلو فُرض كان هذا ، ولكنْ هذا ممتنع في حقّه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز))[2].

لقد جاء التعبير في الآية الكريمة مُصدّراً بـ (قل) الدالّة على التلقين بالجواب،وجيء بـ (إنْ) الدالّة على الشكّ بدل (لو) الدالّة على الامتناع ((وكان مقتضى المقام أنْ يقال : لو كان للرحمن ولد ،لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف))[3]. ولعلّ في الإتيان بٱسم (الرحمن) بدل لفظ الجلالة (الله) لتذكيرهم بأ نّ الرحمة الإلهيّة موجودة لمخلوقاته ، فلا يحتاج معها للولد ليكون رحيماً بهم . ويلحظ أنّ في تنكير (ولد) دلالةً على الجهل له ،ولو كان لله ولد لما جهله .ثُمّ جاء بجواب الشرط المصدّر بالفاء ،وبعدها ضمير المتكلم (أنا) إظهاراً للإنصاف والمسايرة لهم في زعمهم ،و(أوّل) اسم تفضيل جاء به ليُظهر لهم أنّه سيكون أسبقهم إلى عبادة هذا الولد إنْ صحّ زعمهم .

ورأى الطبرسيّ والآلوسيّ والطباطبائيّ أنّ من معاني العابدين ، ((الآنفين من عبادته لأنّ مَن كان له ولد لا يكون إلا جسماً ، ومن كان كذلك لا يستحقّ العبادة ؛ لأنّه لا يقدر على النعم التي يستحقّ بها العبادة))[4].

ومن أمثلة ذلك أيضاً،قوله تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[الأحقاف 8].

فمن المزاعم التي ٱدّعاها المشركون لدحض دعوى النبوّة ،اتهامهم للنبيّ ﷺ بالافتراء على الله تعالى ، وأنّ كلامه مختلق على الله أو هو إفك قد ساعده عليه بعض المطّلعين على التوراة

---

[1] مفاتيح الغيب 645/27-649.

[2] تفسيرالقرآن العظيم 228/6-229.

[3] الميزان 227/17.

[4] مجمع البيان 142/9 ،وينظر : روح المعاني 25 /145 ،و الميزان 17/ 227.

والإنجيل ، قال جلّ شأنه :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾[الفرقان 4].وجاءت بعض الآيات مسايرةً لهم في ادّعائهم لإرخاء العنان لهم لإيقاعهم في حجّتهم ،فمعنى الآية الكريمة (قل إنْ ٱفتريته)الواردة ((على سبيل الفرض: عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه .فلا تقدرون على كفّه عن معاجلتي ،ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني ، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه؟))[1].

لقد كان هذا الردّ على شبهة الافتراء على الله عزّ وجلّ تلقيناً منه تعالى لنبيه ﷺ ، ولعلّ في هذا التلقين دليلاً على صدق الدعوة ، فالله تعالى لايهب علمه لمَن يفتري عليه ويختلق كلاماً من نفسه وينسبه إلى الخالق سبحانه .وجاء التعبير في هذه الآية مبدوءاً بالإضراب الدالّ على التوبيخ[2]، الذي تعطيه الأداة (أم) ، ثُمّ جاء التلقين بالجواب من الله تعالى لنبيّه على هذا الزعم ، بقوله (قل)،وجاء الافتراض مباشراً بأداة الشرط (إنْ) الدالّة على الأمر المشكوك فيه ، وجواب (إنْ) ((محذوف وهو عاجلني ،وما ذكر مسبّب عنه أقيم مقامه أو تجوّز به عنه))[3]. وقوله تعالى (فلا تملكون لي) نتيجة لجواب شرط (إنْ) أي : إنْ عاجلني بالعقوبة فلا تملكون لي ، وجاء بالفعل المضارع تملكون الدالّ على وصف حالهم في الحال والاستقبال ، وقد يكون في التعبير بقوله (شيئاً) دلالة على عجزهم أمام إرادة الله تعالى ،فلا تكون لهم قدرة على منع إرادته .وجاء بالضمير (هو) بدلاً عن لفظ الجلالة ؛ لكون الضمير المخبر عن الأعلم لا يكون إلا لله تعالى،وفي قوله (بما تُفيضون فيه) ،أي ((بالذي تأخذون فيه من القدح في وحيّ الله تعالى ...وٱستعمال الإفاضة في الاخذ في الشيء والشروع فيه قولاً كان أو فعلاً مجاز مشهور ،واصلها إسالة الماء ،يقال :أفاض الماء إذا أساله))[4].ويبدو أنّ في التعبير بالإفاضة دلالة على كثرة قدحهم بالقرآن والنبيّ ﷺ والله أعلم .

---

[1] الكشّا ف 289/4 ،وينظر: مفاتيح الغيب 8/28 ،والبحر المحيط 9 / 434 ،والجامع لأحكام القرآن ، القرطبيّ 16/ 123 ،وتفسير شبّر /503 ،وأضواء البيان 7/ 214 – 215 .

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 79/8 ،وروح المعاني 26 / 229.

[3] روح المعاني 26 / 230.

[4] روح المعاني 26 /230 .

لو :

من حروف الشرط التي يمتنع فيها الجواب لامتناع الشرط .قال عنها سيبويه [180 هـ] ((وأمّا لو فلِما كان سيقع لوقوع غيره))[1].وقال عنها الرمانيّ[386هـ] : ((وهي من الحروف الهوامل ،وفيه معنى الشرط ،ومعناها اٌمتناع الشرط لامتناع غيره))[2].

ويبدو أنّ لـ (لو)أكثر من معنى بحسب السياق الذي ترد فيه،لذا قد تتعدد الوظائف التي تؤديها ،ويلحظ أنّ الأشمونيّ[900هـ] ،قد عدّ لها في شرحه على الألفية خمسة أقسام ،وزاد الصبّان [ت 1206 هـ] قسماً سادساً في حاشيته على شرح الأشمونيّ.فالأقسام الخمسة عند الأشمونيّ هي:-

الأوّل:أن تكون للعرض،نحو:لو تنزل عندنا فتصيب خيراً.

الثاني:أن تكون للتقليل،نحو :تصدّقوا ولو بظلف محرق .

الثالث:أن تكون للتمنّي،نحو:لو تأتينا فتحدّثنا .

الرابع:أن تكون مصدريّة بمنزلة (أنْ)إلا أنّها لا تنصب ،نحو قوله تعالى :﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم 9] . ومن الواضح هنا أنّها أعطت معنى التمني أيضاً ؛ لأنّ الفعل (ودّ) قد سبقها فأعطت هذه الدلالة .

الخامس :أن تكون شرطيّة،وهي على قسمين:امتناعيّة،وهي للتعليق في الماضي .والثانية :إن تلاها مضارع تخلص للاستقبال ،كما أنّ (إنْ) الشرطيّة كذلك [3].

وأمّا القسم السادس الذي زادّه الصبّان ،فهو التحضيض[4] ،ومثّل له بقوله :لو تأمر فتطاع .

وقد عدّ بعض المحدثين الوظائف النحويّة لـ (لو)،ولم يذكر وظيفتي العرض والتحضيض .وميّز بين (لو) الامتناعيّة و(لو) الشرطيّة[5] .

---

(1) كتاب سيبويه 224/4.

(2) معاني الحروف، الرمانيّ /133.

(3) ينظر: شرح الأشمونيّ على ألفيّة إبن مالك 3/ 278 – 286 .

(4) ينظر: حاشية الصبّان على شرح الاشمونيّ، الصبّان 46/4.

(5) ينظر: تعدّد المعنى الوظيفي للأدوات النحويّة، عبد الكاظم محسن الياسريّ /81ـ83.

إنّ الشرط متجدّد غير ثابت ،لذا اختصّ ((بالأفعال لأنّها تتجدّد،والأفعال متجدّدة،فلا جرم ناسب معناها الفعل فٱختصّت به ... وأمّا (لو) فهي للشرط في الماضي دلالةً على ٱمتناع الشيء لامتناع غيره ،قال الله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء22] ،أي ٱمتناع الفسادلامتناع وجود الآلهة))[1]. ونقل السيوطيّ عن ٱبن عبّاس أنّ ((كلّ شيء في القرآن (لو) فإنّه لا يكون أبداً))[2]

ويرى التفتازانيّ أنّ دخول (لو) على الماضي يلزم عدم الثبوت والمضيّ في جملتيها فالثبوت ينافي التعليق ، والاستقبال ينافي المضيّ،فلا يعدل في جملتيها عن الفعليّة الماضويّة إلا لنكتة ، ودخولها على المضارع في نحوقوله تعالى:﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[الحجرات 7] ،أي :لوقعتم في جهد وهلاك؛لقصد ٱستمرار الفعل فيما مضى وقتاً فوقتاً ، وإنّ المضارع يفيد الاستمرار ودخول (لو)عليه يفيد ٱمتناع الاستمرار[3].

وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ ﴾[الأنعام 27] ،((فقد دخلت (لو) في الآيات الكريمة على المضارع لتنزيله منزلة الماضي فيتحقق الوقوع لصدوره عمّن لا خلاف في إخباره))[4].

ويرى الدكتور فاضل السامرائيّ أنّ(لو) قد تكون ((شرطيّة غير ٱمتناعيّة ،نحو قوله تعالى :﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنفال 23] ،إذ لا يصح أنْ يقال : ٱمتنع التولّي لامتناع الاسماع بل هم متولّون على كلّ حال))[5].وجعل منه قوله تعالى :﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات

---

[1] كتاب الطراز /538ـــ539.

[2] معترك الأقران 2 / 295 .

[3] ينظر : شرح المختصر /144ـــ146 ، ومن بلاغة النظم العربيّ، عبد العزيز عبد المعطي عرفة/255ـ256 ،واللغة في الدرس البلاغي، عدنان عبد الكريم جمعة /256ـــ257،وبلاغة التراكيب،توفيق الفيل/161ـــ162،وجواهر البلاغة/140ـــ141.

[4] من بلاغة النظم العربيّ/255ـ256،وينظر جواهر البلاغة /140ـ141.

[5] معاني النحو، فاضل السامرائيّ 76/4 .

الله﴾[لقمان 27] ،وقوله تعالى :﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾[الإسراء 100] ، وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [بالنساء 83] .ويرى أيضاً انّ(لو) لاتطابق (إنْ) ؛لأنّ شرط (لو) يلحظ فيه بعد الوقوع ،وهو أبعد من (إنْ) ونقل عن صاحب الكلّيات ،قوله :((والأصل في فرض المحالات كلمة (لو) دون (إنْ) ؛لأنّها لما لاجزم بوقوعه ،ولا وقوعه ،والمحال مقطوع بلا وقوعه))[1]. ويذهب فاضل السامرّائيّ إلى القول :إنّه ((يدلّ على ذلك الاستعمال ، قال تعالى :﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[الزمر 4] ...ولا تحسن(إنْ) لذلك ،ونحوه ما ذكروا أنّها بمعنى (إنْ) .فإنّ قوله تعالى :﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء 78] جاء فيه بـ (لو) الدالّة على البعد))[2].

غير أنّ البحث وجد ما لا يوافق ذلك في التعابير القرآنيّة المفترضة*

وتحذف (لو) وشرطها من الجملة في بعض الأحيان ،ويستدلّ على حذفها من وجود الأداة (إذاً) ،وهذه ((الأداة تؤدي معنى الاستنتاج في السياقات التي تدخل فيها))[3] .ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون 91] ((تقدير ذلك :إذ لو كان معه آلهة لذهب كلّ إلهٍ بما خلق))[4].ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾[الإسراء 74–75] ،((أي :لو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛لأنّ

---

(1) الكليّات / 177 .

(2)معاني النحو 77/4– 78

*ينظر : ص / 99 - 105 من الرسالة التي تتحدّث عن الإفتراض الممكن .

(3) تعدّد المعنى الوظيفيّ للأدوات النحويّة /100–101 .

(4) المثل السائر 86/2 ،وينظر: تعدّد المعنى الوظيفيّ للأدوات النحويّة /100–101،وأسلوب الحذف في القرآن الكريم واثره في المعاني والإعجاز،مصطفى شاهر خلوف /52 .

الذنب العظيم جرم كبير يستحقّ مضاعفة العذاب ،والغرض من الآية : بيان فضل الله على الرسول في تثبيته على الحقّ وعصمته من الفتنة ،ولو تخلّى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء))[1] .

أمّا حذف جواب (لو)،فكقوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة 170] ،((فجواب الشرط محذوف تقديره :لاتبعوهم))[2].

وقد أعطت (لو)معنى الافتراض في سياقات متعدّدة من التعبيرالقرآنيّ سواءً أكانت ٱمتناعيّة أم شرطيّة،ففي قوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] ،قد أعطت معنى الفرض[3] ، وقد جاءت ((مسوقةً لنفي التعدّد في الآلهة بامتناع الفساد .الآية للاستدلال،إذ نرى ٱمتناع الجواب ، وهو فساد الكون لزمنا الحكم بامتناع الشرط وهوتعدّدالآلهة))[4].أمّا الشرطيّة ، فكقوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[لقمان 27] .فسياق الآية دلّ على الفرض [5]،فـ ((كلمات الله لن تنفد سواء أكان البحر مداداً أو الشجر أقلاماً أم لم يكونا))[6].

وامّا المنطقيّون فقد جعلوا (إنْ) و(لو) أداتي لزوم ،وإنّما يستعملونها في القياسات لحصول العلم بالنتائج ،فهما عندهم للدلالة على أنّ العلم بانتفاء الثاني علة بانتفاء الأوّل ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم من غير التفات إلى أنّ علة انتفاء الجزاء في الخارج ما هي ،وقوله

---

[1] البلاغة عرض وتوجيه وتفسير،محمد بركات حمدي أبو على /130–131.

[2] أسلوب الحذف في القرآن الكريم /52.

[3] ينظر: مجمع البيان 121/7 ،مفاتيح الغيب 127/22 ،البحر المحيط 7 / 419،إرشاد العقل السليم 61/6،روح المعاني 32/17 ،التحرير والتنوير 31/17.

[4] اسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم،صبحي عمر شو /23–24.

[5] ينظر: روح المعاني 132/21 .

[6] أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم /23–24.

تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] وارد على هذه القاعدة لكنّ الاستعمال على قاعدة اللغة هو الشائع المستفيض[1].

ومن الأمثلة الإفتراضيّة في القرآن الكريم التي جاءت فيها (لو)دالّةً على الافتراض :-

قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران 91].

فمن القضايا التي كانت مثاراً للجدل والمحاججة مع الكفار ،قضيّةالإشراك بالله تعالى ،وعدم الإيمان باليوم الآخر ،لذا جاءت كثير من الآيات تحذر من الدوام على الكفرأو الموت عليه ،وذلك غير مغتفر في يوم القيامة ،حتى لو ٱفتدى الكافر نفسه بأعزّ الأشياء عنده وأثمنها وهو الذهب ،فالتعبير هنا ورد على سبيل الافتراض[2] على تقدير : ((لو أنّ الكافر قدر على أعزّ الأشياء ،ثمّ قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أنْ يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله ،وبالجملة ،فالمقصود أنّهم آيسون من تخليص النفس من العقاب))[3].

ولعلّ في التعبير بـ (ملء الأرض ذهباً) بياناً للكثرة المتعذرة أولاً ،ولبيان أنّ ذلك ما ((لا يمكن عادةً أنّ أحداً يملك ملء الارض ذهباً بحيث لو بذله على أيّ جهة بذله لم يُقبل منه))[4] ثانياً.

وممّا يلحظ في تعبير الآية حذف جواب شرط الأداة (لو) لدلالة الكلام المتقدّم ،وفيه توكيد على عدم تحقّق الجواب وتيئيس من الخلاص من العذاب ،وقد زيدت (الفاء) للإشعار بامتناع قبول الفدية ممّن مات على الكفر[5] . وفيما يبدو أنّ بناء الفعل للمجهول (تقُبّل) قد يراد به الاهتمام بالفعل دون النظر إلى محدثه . ويبدو أنّ التعبير (من أحدهم) بدل (منهم) قد يراد منه تهويل

---

[1] ينظر: شرح المختصر /142ــ144.

[2] ينظر: مفاتيح الغيب 8/ 116 ، و البحر المحيط 3 / 257 ،والتحرير والتنوير 149/3ـــ150 ،ومختصر تفسير الخازن 1/ 249 .

[3] مفاتيح الغيب 116/8.

[4] البحر المحيط 3 / 258.

[5] ينظر: إرشاد العقل السليم 2 /57 .

الأمر حتّى لا تقبل الفدية ولو لواحد منهم . وممّا يلحظ في هذا التعبير الشرطيّ المفترض أنّه ورد على سبيل الصورة ، إذ أنّ قوله (ملء) يعني ((مقدار ما يأخذه الإناء الممتلئ))[1]. ولذا فإنّ التعبير ((اعتبر الأرض إناءً يملؤه الذهب ، فالجملة من قبيل الاستعارة التخييليّة والاستعارة بالكناية))[2] .

وممّا ورد تعبيراً مفترضاً بـ (لو) ، قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء 42] .

حيث ٱستعملت (لو) لافتراض[3] شيء غير موجود ، وهو ((إنّا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضاً ، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع))[4] . أي معنى الكلام : ((لابتغوا إليه سبيلاً في إفساد ملكه ومضاهاته في قدرته))[5] . وفي هذا الافتراض دليل على أنّه لا يجوز أنْ أنْ يكون مع الله تبارك وتعالى غيره ، وذلك ((أنّا لو فرضناه لفرضنا أنْ يريد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريكه ، ومستحيل أنْ تنفذ الإرادتان ، ومستحيل أنْ لا تنفذا جميعاً ، فيكون الجسم لا متحرّكاً ولا ساكناً ، فإنْ صحّت إرادة أحدهما دون الآخر فالذي لم تتم إرادته ليس بإله ، فإنْ قيل نفرضهما يختلفان ، قلنا ٱختلافهما جائز غير ممتنع عقلاً))[6] . ويلحظ أنّ التعبير المفترض بدأ بـ (قل) الدالّة على التلقين للنبيّ عليه السلام بالجواب ؛ وذلك لأنّ الله تعالى ((أعرض عن مخاطبتهم ، فصرف الخطاب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بأمره أنْ يكلّمهم في أمر التوحيد ونفي الشريك . والذي يقولون به أنّ هناك آلهة دون الله يتولّون جهات التدبير في العالم على ٱختلاف مراتبهم ،

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهانيّ / 776(ملأ) .

[2] الميزان 3 / 150 .

[3] ينظر: مفاتيح الغيب 20 / 346 ،والجواهر الحسان3 / 476 ،والميزان 13 / 46 – 47 .

[4] مفاتيح الغيب 20 / 346 .

[5] الجواهر الحسان 3 / 476 .

[6] الجواهر الحسان 3 / 476 .

والواحد منهم ربّ لِما يدبّره كإله السماء وإله الأرض وإله الحرب وإله قريش))[1] . وممّا يلحظ في هذا التعبير أنّه جاء بكلمة (آلهة) النكرة المؤخّرة ، وقد يكون في ذلك دلالة على التقليل من شأنها وتحقيرها ، وفي الإتيان بفعل الشرط وجوابه ماضيين دلالة على أنّ عدم تحققهما ، يوجب إنكار ادّعاء الكفّار لهم بالربوبيّة ، و ذكر العرش هنا ((يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدّعون أنّها آلهة (مع) الله وهي تحت عرشه وليست معه))[2] . وفضلاً عن ذلك فقد أضيف (ذي) إلى (العرش) ، إذ جاء ((التعبير عنه تعالى بذي العرش ، وهو من الصفات الخاصّة بالملك للدلالة على أنّ ٱبتغاءهم السبيل إليه إنّما هو لكونه ذا العرش))[3] .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف 109] .

فهذه الآية الكريمة واردة في بيان علم الله تعالى وحكمته ،وأنّ علمه لا يحيط به أحد من البشر مهما كانت درجة علمه ، لذا يلحظ أنّ الآية الكريمة تفرض لهم ممّا يكبر في نفوسهم في سعته وعِظمه ،وهي البحار التي يصّورها لهم مداداً للكتابة و((تقرير الكلام أنّ البحار كيفما فُرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية،والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي))[4] . وليس معنى ذلك أنّ كلمات الله تعالى قد تنفد ((ولكن لمّا بُني الكلام على الفرض والتقدير بما يدلّ عليه(لو) كان المعنى : لوكان البحر مداداً لكلمات ربيّ وكانت كلمات ربيّ ممّا ينفد لنفد البحر قبل أنْ تنفد كلمات ربيّ ،وهذا الكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى))[5]. بل نجد في آية أخرى أنّ التعبير يجعل الفرض ممّا لا يترك مجالاً للشك في عدم تناهي علم الله عزّ وجلّ،فقال تعالى :﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم﴾[لقمان 27] .ولعلّ في الآية الكريمة مقارنة بين قدرة المخلوق

---

[1] الميزان 13 / 46 – 47 .

[2] في ظلال القرآن 4 / 2230 .

[3] الميزان 13 / 47 .

[4] مفاتيح الغيب 503/21 ، وينظر: روح المعاني 494/16ـــ465،والتحرير والتنوير 147/15.

[5] التحريروالتنوير 147/15.

وتناهيها ،وفنائه ماديّاً ومعنويّاً، وقدرة الخالق الذي لا تحدّه حدود ولا تحيط بعلمه أبحر المداد((وكلّ ذرة من ذرات البحر وإنْ فُرض ما فُرض لا تفي بثبت دلالة نفسها في مدى وجودها على ما تدلّ عليه من جماله وجلاله تعالى ،فكيف إذا أضيف إليها غيرها ؟))[1].

وممّا يلحظ في التعبير الافتراضيّ ،أنّه بدأ بـ (قل) الدالّة على التلقين ، وجاء الافتراض بالاداة (لو) .وفي تعريف البحر دلالة على جنس البحر[2].وقد ورد (البحر) مكرّراً ((بلفظه،وكذا (ربيّ) وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه التثبيت والتأكيد ،وكذا تخصيص الربّ بالذكر ،وإضافته إلى ضمير المتكلم مع ما فيه من تشريف المضاف إليه))[3].وفي ٱستعمال (كلمات) جمع القلّة دلالة على أنّ البحر لا يفي بالقليل منها فضلاً عن الكثير [4]. والمعنى في قوله(قبل أنْ تنفد) أي :من غير أنْ تنفد لعدم تناهيها ،فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر[5].وقوله(ولو جئنا بمثله مدداً) فهو - كما يبدو - ٱفتراض آخر مؤكّد للافتراض الأوّل ،وهو ((كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقّن جيءبه لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد))[6].فضلاً وتأكيد))[6].فضلاً عمّا يلحظ في التعبير من التشاكل الصوتي بين (مداداً) و(مدداً) وهو ممّا له الأثر الأثر في تكثيف المعنى المفترض [7].

وممّا ورد فيه الفرض مباشراً بـ (لو)، قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء 22] .

---

[1] الميزان 171/13.

[2] ينظر : إرشاد العقل السليم 251/5.

[3] الميزان 171/13.

[4] ينظر: إرشاد العقل السليم 75/7. حيث أشار إلى هذه الدلالة في آية مشابهة لهذه الآية من سورة لقمان الآية(27).

[5] ينظر: إرشاد العقل السليم 251/5.

[6] إرشاد العقل السليم 251/5،وينظر روح المعاني 494/16 .

[7] ينظر: التشاكل الصوتي القرآني وأثره في تكثيف الدلالات ، للدكتورة سعاد كريم الإزيرجاويّ / ، بحث مخطوط ، مقبول للنشر في 7 / 10 / 2004 – مجلة جامعة ذي قار .

لعلّ من أكثر المضامين التي ٱحتواها الافتراض ،مسألة وحدانيّة الله تعالى ،ونفي التعدّد للآلهة ،لذا يلحظ مقارنة صفات ما يعبدون من دون الله عزّ وجلّ ، من أصنامٍ ونجوم وبشر وغيرها ،مع ما هو حاصل في واقع الحياة التي يعيشونها ،فيظهر لهم كون تلك الصفات محدودةً أو زائلةً ،فكانت هذه المقارنات تنتهي إلى نتيجةٍ عقليّةٍ منطقيّة حتميّة في الواقع ،هي وحدانيّة الخالق ((وهذه حجّة تامّة في مسألة التوحيد ،فنقول القول بوجود إلهين يفضي إلى ٱمتناع المقدور لواحدٍ منهما ،وإذا كان كذلك وجب أنْ لايقع البتة ،وحينئذٍ يلزم وقوع الفساد قطعاً ، أو نقول :لو قدّرنا إلهين ،فإمّا أنْ يتفقا أو يختلفا ،فإنْ ٱتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ،ومراد لهما ،فيلزم وقوعه بهما ،وهو محال ،وإنْ ٱختلفا ،فإمّا أنْ يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما ،أو يقع أحدهما دون الآخر ،والكلّ محال ،فثبت أنّ الفساد لازم على كلّ هذه التقديرات))[1].

فبمثل هذه العبارات الكلاميّة ناقش المفسّرون تفسير هذه الآية،ورأوا أنّ ٱفتراض وجود إلهين يفضي إلى ٱختلاف إرادة أحدهما عن الآخر ،وهذا بدوره يؤدي إلى الفساد ،وهو غير متحققّ على أرض الواقع [2]. وتسمّى هذه الطريقة في الاستدلال على الوحدانيّة (برهان التمانع)((ووجه تسميته برهان التمانع أنّ جانب الدلالة فيه على ٱستحالة تعدّد الإله هو فرض أنْ يتمانع الآلهة ،أي يمنع بعضهم بعضاً من تنفيذ مراده))[3].

وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية بالاداة (لو) المتبوعة بالفعلين الماضيين (كان) ،(لفسدتا) في الشرط وجوابه ،ولعلّ في ذلك دلالةً على عدم التحقّق ، لكون الماضي قد حصل وٱنتهى ،ولم يحصل الفساد الناتج عن وجود الآلهة المفترضة .ويبدو أنّ في تنكير (آلهة) ٱستخفافاً بها ،وإثباتاً لبطلان ٱستحقاقها لأنْ تُعبد مع الله تعالى .وقوله(إلا الله) ،فـ (إلا) بمعنى (غير) قال سيبويه في ((باب ما يكون فيه إلاّ وما بعده وصفاً بمنزلة مثل وغير،وذلك قولك : لو كان معنا رجلٌ إلا زيد لغُلبنا .والدليل على أنّه وصفٌ أنّك لو قلت : لوكان معنا إلا زيد لهلكنا وانت تريد

---

[1] مفاتيح الغيب 127/22،وينظر: مجمع البيان 121/7 ،والبحر المحيط 7 / 419 ،وإرشاد العقل السليم330/4،وروح المعاني 32/17ـــ35،والتحرير والتنوير 31/17.

[2] ينظر: البحر المحيط 7 / 419 ،ورشاد العقل السليم 330/4 ،ومعترك الأقران 1 / 349.

[3] التحرير والتنوير 31/17.

الاستثناء لكنت قد أحلت .ونظير ذلك قوله عزّ وجلّ ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء 22])) [1]. وشبه الجملة (فيهما) الدالّة على السماء والأرض ((والمراد بهما العالم كلّه علويّه وسفليّه ،والمراد بالكون فيهما التمكّن البالغ من التصرّف والتدبير لا التمكّن والاستقرار))[2].والفساد في قوله (لفسدتا)،يعني : ((خروج الشيء عن الاعتدال ،قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً))[3]. وقد ذيّل* التعبير الافتراضيّ بقوله (فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون) ؛((لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانيّة بالبرهان ، أي : فسبّحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عمّا لا يليق به من الأمور التي من جملتها أنْ يكون له شريك في الألوهيّة ، وإيراد الجلالة في موضع الإضمار ؛ للإشعار بعلّة الحكم ، فإنّ الألوهيّة مناط لجميع صفات كماله التي تنزهه تعالى عمّا لا يليق به ، ولتربية المهابة وإدخال الروعة))[4] .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقّة 44ــ46].

فاختيار النبيّ المرسل أمر سماويّ خاص بعلم الله تعالى وحكمته ،والنبيّﷺ، هو الناطق باسم الله تعالى ، فهو ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم 3ــ4]. وهو منزّه عن ٱرتكاب صغائر الذنوب فضلاً عن الكبائر.ولعلّ الافتراء على الله تعالى من أخطر الذنوب وأعظمها التي نفاها النصّ الإلهيّ عن النبيّ ﷺ،لذا نجد آيات كثيرةً تدافع عن النبيّ ﷺ،وتنزّهه عن ٱرتكاب مثل هذه الذنوب ، ومن اللافت للنظر أنّ الله تعالى في مسألة الثواب والعقاب يحقّق العدالة ، فلا

---

[1] كتاب سيبويه 331/2ــ332،و معاني القرآن : الأخفش / 90 ،و معترك الأقران 2 / 59 ، وينظر: الإستثناء في القرآن الكريم ،صلاح بن عوض بن عبدالله مريبش /47.

[2] روح المعاني 32/17 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن /636(فسد).

* التذييل هو : عبارة عن الإتيان بجملة مستقلّة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير لحقيقة الكلام ، وذلك التحقيق قد يكون لمنطوق الكلام ، وتارة لمفهومه . الطراز / 453 ، والبرهان في علوم القرآن 3 / 46 .

[4] إرشاد العقل السليم 6 / 62 ، وينظر : روح المعاني 17 / 38 ،والميزان 14 / 286 .

ٱعتبار لمكانة نبيّ إنْ ٱفترى على الله تعالى ،أو قال غير ما أمر الله به.إنّ التعبير القرآنيّ يصف الكلام المفترى المدّعى أنّه لله عزّ وجلّ ،بالفعل (تقوّل) وبنسبته إليه بكلمة (علينا) ،أي تظاهر بصدور الكلام عن الله عزّ وجلّ للدلالة على أنّ القول ليس ممّا أوحاه الله إليه ،ليصف لنا بعد ذلك عقوبة مَن يفتري على الله تعالى ، بالجزور التي تنحر فيقطع منها الوتين ،وهو((عرق معلّق به القلب ،ولو قُطع مات صاحبه))[1] ، فشبّه التعبير ((عقاب مَن يُفرض تقوّله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها))[2] ، وهذا التمثيل لعقوبة من يفتري على الله الكذب ((من مبتكرات القرآن))[3].ويلحظ أنّ أبا حيّان يرفض كون الضمير في (تقوّل) عائداً على النبيّﷺ،ولو ٱفتراضاً ،فيقول :((ولا يكون الضمير في تقوّل عائداً على الرسول ﷺلاستحالة وقوع ذلك منه ،فنحن نمنع أنْ يكون ذلك على سبيل الفرض في حقّه عليه الصلاة والسلام))[4] .

وفيما يبدو نتيجة الاستقراء أنّ الرأي الأوّل اقرب إلى الصواب ،لكون الآيات التي تفترض أفعالاً للنبيّ كثيرة ، وهي من ألوان الفرض المستحيل الذي لا يقع ، وكذلك فإنّ الآيات السابقة لهاتين الآيتين تؤيد كون الضمير عائداً على النبيّ ﷺ، فقوله تعالى﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقّة 40ــ43] ،يبين عائديّة الضمير في(تقوّ ل) على الرسول ﷺ.

وممّا يلحظ في هذا التعبير الافتراضيّ أنّه جاء بقوله (تقوّل) إذ إنّ الافتراء سمّي ((تقوّلاً لأنّه قول متكلف ،والاقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها))[5]. فضلاً عن أنّ هذه الأقاويل هي قليلة ،إذ جاء التعبير عنها بـ (بعض) ،وفي هذا دلالة على عظم جزاء الافتراء والتقوّل على الله بالباطل ،وإنْ كان قليلاً محتقراً كما عبّر عنه السياق .

---

[1] لسا ن العرب 396/6،(وتن)،وتاج العروس 238/36(وتن)،وينظر: مفردات ألفاظ القرآن/852 ،إذ قال:إنّ الوتين ((عرق يسقي الكبد ،وإذا إنقطع مات صاحبه)).

[2] التحرير والتنوير 29 / 135 .

[3] المصدر نفسه 29 / 135 .

[4] البحر المحيط 10 / 266 .

[5] إرشاد العقل السليم 9 / 27 .

وقد يرد التعبير الافتراضيّ مباشراً غير أنّ الاداة (لو) تكون محذوفة ، مدلولاً عليها بـ (إذاً) ، ومن ذلك قوله عظم شأنه :﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت 48] .

ففي تعبير الآية الكريمة تقدير محذوف هو (لو وشرطها) ،أي ((ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى ٱكتساب الشك في أمرك وإلقاء الريبة لضعفة الناس في نبوتك ،ولقالوا :إنّما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الاوّلين فلمّا ساويتهم في المولد والمنشأ ثُمّ أتيت بما عجزوا عنه وجب أنْ يعلموا أنّه من عند الله تعالى ،وليس من عندك إذ لم تجرِ العادة أنْ ينشأ الإنسان بين قوم يشاهدون أحواله من عند صغره إلى كبره ويرونه في حضره وسفره لا يتعلم شيئاً من غيره ثمّ يأتي من عنده بشيءٍ يعجز الكلّ عنه وعن بعضه ويقرأ عليهم أقاصيص الاوّلين))[1].

فمنكرو النبوّة من المشركين ومن أهل الكتاب ما كانوا ليتوانوا عن دحض هذه الحجّة لو كانوا على علم بمعرفته ﷺ بالقراءة والكتابة ((وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ٱرتيابهم على فرض كونه ﷺأميّاً وفي ... هذا فرض وتمثيل دلالةً على أنّ مدار الأمر على المُعجِز وأنّ كونه عليه الصلاة والسلام أميّاً لايخطّ ليس ممّا لا يتم دعواه به،وتلك الدلالة لاتختلف ، والمُنكِر مُبطِل))[2].
والريبة في قوله (لأرتاب) الواقعة في جواب الشرط المحذوف تعني ((أنْ تتوهم بالشيء أمراً ما فينكشف عمّا تتوهّمه))[3]. وفي وصف الكفّار بـ (المبطلون)((بٱعتبار ٱرتيابهم وكفرهم وهو عليه الصلاة والسلام أميّ فكأنّه قيل : إذاً لارتاب هؤلاء المبطلون وكان إذ ذاك لارتيابهم وجه))[4].

---

[1] مجمع البيان 48/8.

[2] روح المعاني 8/21.

[3] مفردات ألفاظ القرآن /368(ريب).

[4] روح المعاني 8/21

لئنْ :

هذه الاداة مكوّنة من اللاّم الموطئة للقسم وحرف الشرط (إنْ) ، وتستعمل اللاّم قبل حرف الشرط ؛ توطئةً للجواب[1]. ونقل آبن السرّاج عن سيبويه قول الخليل فيها ، إذ قال :((وإنّما يقع ما بعدها من الماضي في معنى المستقبل .لأنّها مجازاة)) [2].ورأى آبن هشام أنّ هذه ((اللاّم الداخلة على اداة شرط للإيذان بأنّ الجواب بعدها مبنيّ على قسم قبلها لا على الشرط ،ومن ثَمّ تسمّى اللام المؤذنة ، وتسمّى اللاّم الموطئة أيضاً ؛ لأنّها وطّأت الجواب للقسم ،أي مهّدته له)) [3].

ومن الامثلة الواردة في القرآن الكريم التي تاتي دالّةً على الافتراض ، قوله تعالى :﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة 145].

فهذا تعبير وارد على ((سبيل الفرض والتقدير))[4]. وظاهر الآية ينطق بآحتدام الجدل مع أهل الكتاب وعدم موافقتهم لتغيير القبلة حتىّ لو جاءهم النبيّ ﷺ بكلّ دليل وبرهان يثبت فيه صحّة شريعته ، وفضلاً عن ذلك فقد ألمح التعبير الافتراضيّ بالتحذير ، وهو ما يؤكّد عدم التهاون في امر الدين من لدنْ المسلمين حتّى أوجد السياق هذا الفرض المستحيل الذي يجعل النبيّ ﷺ ، لو كان متّبعاً لأهوائهم بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الامر لكان من الظالمين[5].

---

[1] ينظر : الجنى الداني / 137 .

[2] الاصول في النحو 190/2 ، وينظر: كتاب سيبويه 3/ 108 ــ109 .

[3] مغني اللبيب 262/1 ،وينظر: الجنى الداني /136 .

[4] الكشّاف 202/1 ،وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 112/1 ، والبحر المحيط2 / 30 ، وإرشاد العقل السليم 1/ 216،وتفسير شبّر /22،و التحرير والتنوير 2/ 36.

[5] ينظر الكشّاف 202/1 ،والبحر المحيط 2 / 31 .

وقد جاء التعبير الافتراضيّ (ولئنْ ٱتبعت) مصدّراً بـ (لئنْ) التي تدلّ على القسم والشرط ،وجاء الفعل بعدها بصيغة الماضي دلالةً على أنّ الفعل مشكوك بوقوعه ،أو للفرض ((وإلاّ فلا معنى لٱستعمال إنْ الموضوعة للمعاني المحتملة بعد تحقّق الانتفاء فيما سبق))[1]. وفي قوله تعالى (من بعد ما جاءك من العلم) ،أي ((من الدلائل والآيات التي تفيد لك العلم وتحصّله ،فأطلق ٱسم الأثر على المؤثر وسمّى تلك الدلائل علماً ،مبالغةً وتعظيماً وتنبيهاً على أنّ العلم من أعظم المخلوقات شرفاً ومرتبةً.ودلّت الآية على أنّ توجّه الوعيد على العلماء أشد من توجّهه إلى غيرهم))[2]. ولقد كثرت المؤكّدات في الآية الكريمة ،وهي ((القسم المدلول عليه باللاّم ،واللاّم الموطئة للقسم ؛ لأنّها تزيد القسم تأكيداً،وحرف التوكيد في جملة الجزاء ،ولام الابتداء في خبرها ،وٱسميّة الجملة ،وجعل حرف الشرط الحرف الدالّ على الشكّ ،وهو (إنْ) المقتضي أنّ أقلّ جزء من اتّباع أهوائهم كافٍ في الظلم ،والإتيان بإذاً الدالّة على الجزائيّة ،فإنّها أكّدت ربط الجزاء بالشرط،والإجمال ثُمّ التفصيل في قوله (ما جاءك من العلم) ... وجعل ما نزل عليه هو نفس العلم ،والتعريف في الظالمين الدالّ على أنّه يكون من المعهودين بهذا الوصف الذي هو لهم سجيّة)) [3]. وفي كثرة المؤكّدات دلالة على عظم الأمر المتحدّث عنه . ورأى ابو السعود انّ وقوع (إذاً) بين ٱسم إنّ وخبرها ؛ ((لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقّها أنْ تتقدّم أو تتأخّر فلم تتقدّم لئلاّ يُتوهّم أنّها لتقرير النسبة التي بين الشرط وجوابه المحذوف لأنّ المذكور جواب القسم ولم تتأخّر لرعاية الفواصل))[4].

ونحو هذا قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] .

---

[1] روح المعاني 2/ 561.

[2] البحر المحيط 2 / 30 .

[3] التحرير والتنوير 2 /36ــ 39 ، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1/ 112،و روح المعاني 561/2 .

[4] إرشاد العقل السليم 1/ 176 .

فسواء أكان هذا الخطاب موجّهاً للنبيّ ﷺ أم للأنبياء والرسل عليهم السلام قبله ، فإنّ فيه تحذيراً من الإشراك بالله تعالى ، وعبادة من دونه معه ،والمعلوم أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وكذلك الأنبياء السابقين معصومون من آرتكاب المعصية ، منزّهون عن الإشراك بالله- عزّ وجلّ- ،فالله تعالى يعلم أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ،فالكلام إذاً ((على سبيل الفرض ،والمحالات يصحّ فرضها))[1]. فالآيةً تحذّر من الارتداد في شأن الإيمان بالله تعالى ،حين فرضت المستحيل ((لأنّ فرض إشراك النبيّ ﷺ غير متوقّع))[2].

وقد رأى بعض العلماء أنّ ((هذا أدب عن الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلم وتهديد لغيره لأنّ الله تعالى قد عصمه من الشرك ومداهنة الكفّا ر ، وليس في هذا ما يدلّ على صحّة القول بالإحباط على ما يذهب إليه أهل الوعيد لأنّ المعنى فيه أنّ من أشرك في عبادة الله غيره من الأصنام وغيرها وقعت عبادته على وجه لا يستحقّ عليها الثواب به،ولذلك وصفها بأنّها محبطة))[3].

والآية الكريمة تحمل في طيّاتها أكثر من توكيد للدلالة على خطر شأن القضيّة المتحدّث عنها ،فقد أكّد الكلام باللاّم ،وقد ، ولام القسم ،ونون التوكيد في موضعين من الفعلين (يحبط)، و(تكون)،فالآية بالقدر الذي تؤكد الإيمان بالاله الواحد تتوعّد مَن يشرك بالله بإحباط العمل والانتهاء مع زمرة الخاسرين . ويلحظ في التعبير الذي وقع جواباً لـ (لئنْ) أنّه ورد على سبيل التشخيص *،حينما جعل الأعمال تحبط ، إذ الحبوط ((من الحَبَط ،وهو أنْ تكثر الدابّة أكلاً حتّى

---

(1) الكشّاف 4 /137 ،وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 /48 ،و البحر المحيط 9 / 219، وإرشاد العقل السليم 5 /402 ،وتفسير شبّر /465 ،والتفسير الواضح ، محمد محمود حجازيّ 2/ 333 .

(2) التحرير والتنوير 24 /127.

(3) مجمع البيان 8 /612.

* ويعني ((خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعيّة ، والإنفعالات الوجدانيّة)) ، التصوير الفنّي ، سيد قطب / 63 .

ينتفخ بطنها))[1]،فصورت الأعمال ،وهي معانٍ لا مادّيات بصورة الدواب المسمومة التي تنتهي إلى الموت والهلاك .

ونحو هذا من الفرض الذي دلّت عليه الاداة (لئنْ) ،قوله عظُم شأنه :﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾[الكهف 36].

فسياق الآية الكريمة يعرض لوناً من ألوان الغرور والتكبّر الذي قد يصل إليه الإنسان ،إذ يصوّر التعبير إصرار هذا المتكبّر الشاكّ في يوم القيا مة على تكبّره وغروره ويؤكّد ((أنّه إنْ رُدّ إلى ربّه على سبيل الفرض والتقدير ،وكما يزعم صاحبه ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنّته في الدنيا تطمّعاً وتمنّياً على الله وادّعاءً لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنّه ما أولاه الجنّتين إلاّ لاستحقاقه واستئهاله ، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجّه))[2].

وممّا ورد على هذا السبيل ،قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر 41].

فهذا تعبير سلك مسلك الافتراض[3]، وقد ورد بالاداة الشرطيّة (لئنْ) .فالآية الكريمة تُظهر تفرد القدرة الإلهية في القيام بتثبيت مسارات الارض والكواكب والنجوم ،في المدارات والأفلاك التي حدّدها لها ، ويتحدّى الله تعالى كلّ مدّعٍ للربوبيّة ،لو زال أيٌّ منها عن موضعه لما كان أحد على وجه الارض لا البشر ولا الاصنام قادراً على إعادة ذلك الكوكب إلى مداره الصحيح الذي

---

[1] مفردات ألفا ظ القرآن/216.(حبط) .

[2] الكشّا ف 694/2 ،وينظر: البحر المحيط 7 / 176 .

[3] ينظر: البحر المحيط 9 / 39 ، وروح المعاني 516/22 .

وضعه الله له ،أي ((وإنْ قُدر أنْ تزولا عن مراكزهما ما أمسكهما احد ولا يقدر على إمساكهما أحد (من بعده) ... تعالى))[1].

وقد جاء التعبير مفترضاً الإزالة ، ثُمّ أردف بتعبير على سبيل النفي المؤكّد ،إذ أعطت (إنْ) معنى (لا) النافية، وأكّد النفي بـ (من) الزائدة إعرابيّاً المؤكّدة دلاليّاً .وقوله (زالتا) المسند إلى السماوات والأرض يعني :شارفتا على الزوال ((إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك))[2].

وعبّر عن عدم الإمساك بقوله (إنْ أمسكهما) أي: ما يمسك دلالةً على أنّ الفعل غير متحقّق ، و(مِن) في قوله (من بعده) ابتدائيّة[3] ، ثمّ جاء التعبير بعد ذلك معلّلاً هذا التثبيت لمسارات الكون بقوله (إنّه كان حليماً غفوراً) أي : إنّه تعالى ((غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جنايتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأنْ تهدّا هدّاً))[4].

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ ،في بيان حال المنافقين :﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[الحشر 12].

فإذا كان الافتراض في العهد المكّيّ جاء في موقف الجدل مع المشركين المنكرين للوحدانيّة وليوم القيامة وللنبوّ ة ،فقد جاء في العهد المدنيّ في مواضع كثيرة في مقام بيان حال المنافقين ، وما يضمرونه للمسلمين من كراهية وحقد ، وتربّص الدوائر التي تدور على المسلمين ، لذا نجدهم في معظم المعارك أوّل من يعلن ٱنهزامه من المعركة ،بل لا يكتفون بذلك ، فيُشيعون الفتنة والأخبار الكاذبة التي توهن صفوف المسلمين ،ولا يكتفون عند هذا الحدّ، بل إنّهم يحاولون غواية أهل الكتاب من يهود المدينة على التكتّل والتجمّع لقتال المسلمين وطردهم من المدينة ، وهم كما تبينهم الآية الكريمة وتصوّر نكثهم لوعودهم في ثلاثة مواقف مُتتالية ، هي (لئنْ أخرجوا لايخرجون معهم)، (ولئنْ قوتلوا لا ينصرونهم) ،(ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار). وكان الموقفان

---

[1] مجمع البيان 368/8 .

[2] الميزان 17/ 26 ،وينظر: روح المعاني 516/22.

[3] ينظر : إرشاد العقل السليم 5 / 286 .

[4] إرشاد العقل السليم 286/5 ،وينظر: روح المعاني 516/22ــ517.

الأوّل والثاني قد تحقّقا فعلاً ،عند حصار بني النضير[1]،ثُمّ إخراجهم من المدينة ، أمّا الموقف الثالث ــ وهو موقف النُصرة لهم في المعركة ــ فلم يتحقّق من هؤلاء المنافقين ،وهذه هي حالهم المعروفة عنهم عند الشدائد ، فنجد التعبير هنا قد صوّر لنا حالهم فـ ((لو فُرض أنّهم أرادوا نصرهم فإنّ أمثالهم لايترقب منهم الثبات في الوغى ، فلو أرادوا نصرهم وتجهّزوا معهم لفرّوا عند الكريهة))[2].

وممّا يلحظ في هذا التعبير الافتراضيّ أنّ الفعل الوارد بعد (لئنْ) الشرطيّة الدالّة على الافتراض قد جاء بزمن المضيّ لا الاستقبال الذي ينسجم مع معنى الشرط ، وما ذلك إلاّ لجعل هذا الفعل المفترض بمنزلة الواقع والمتحقّق .وقوله (ليولّنّ الأدبار) الذي ورد جواباً للشرط ،فقد جاء مستقبلاً،والتولّي من ((ولاّه دبره إذا أنهزم))[3]. وقد أكّد هذا التولّي ، بقوله (ثمّ لا يُنصرون) .

مَنْ:

أسم شرط جازم ،يشترك في لفظه مع (مَنْ) الدالّة على الاستفهام والموصولة ، ويفترق عنهما بجزم الفعلين بعده ، وعدم عمل الاستفهاميّة والموصولة فيما بعدها [4]،ومن أمثلة القرآن الكريم التي أستعملت هذه الاداة للدلالة على الافتراض ،قوله تعالى :﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء 29].

فتعبير الآية الكريمة قد أفترض ما يكون حصوله مستحيلاً،وهو أدّعاء الملائكة للربوبيّة من دون الله تعالى . وقد جاء الافتراض مباشراً عن طريق أداة الشرط (مَنْ) المردفة بفعل مضارع ممّا يجعل حدث القول غير متحقّق ،إذ إنّ الواضح أنّ هذا الكلام جاء ((على سبيل الفرض والتمثيل

---

[1] ينظر : البحر المحيط 10 / 145،وروح المعاني 28 /349 ،والتحرير والتنوير 28 /90.

[2] التحرير والتنوير 28 /90 ،وينظر: الكشّاف 4 /494 ،و مجمع البيان 9 /646 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 /201 ،و البحر المحيط 10 / 145،و إرشاد العقل السليم 6 /229ــ230، وتفسير شبّر /547 ،وروح المعاني 28 /349.

[3] مفردات ألفاظ القرآن /887 (ولي).

[4] ينظر: كتاب سيبويه 56/3 ،69 ،ومغني اللّبيب 358/1ــ361.

مع إحاطة علمه بأنّه لا يكون كما قال:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[الانعام 88]. قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد))[1].

وقد ورد التعبير الافتراضيّ في الآية الكريمة مصدّراً بأداة الشرط (مَنْ) الدالّة على العاقل في الأغلب ، حيث عدل عن (إنْ) الشرطيّة إلى (مَنْ) ((للدلالة على العموم مع الإيجاز .وأدخل ٱسم الإشارة في جواب الشرط لتحقيق التعليق بنسبته الشرط لأداته للدلالة على جدارة مضمون الجزاء بمن ثبت له مضمون الشرط ،وفي هذا إبطال لدعوى عامّة النصارى إلهيّة عيسى عليه السلام،وأنّهم يقولون عليه ما لم يقله))[2]. والظاهر من الآية أنّ التعبير بـ (مَنْ) فيه تعريض بمن ٱدّعى الربوبيّة من دون الله تعالى ، أمثال النمرود وفرعون .كما أنّ في الإتيان باسم الإشارة الدالّ على البعد (ذلك) إيحاء ببعده عن رحمة الله تعالى .أمّا التعبير في قوله تعالى (كذلك نجزي الظالمين)، فالتشبيه الوارد فيه ((مؤكّد لمضمون ما قبله أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها ويتعدّون أطوارهم ، والقصر المستفاد من التقديم معتبَر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة ،أي لا جزاء أنقص منه))[3].

ونحو ذلك من الافتراض المباشر المصدّر بـ(مَنْ) الشرطيّة ،قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾[الأحزاب 30].

فتعبير الآية الكريمة قد خاطب نساء النبيّ ﷺ خاصّة ، من دون غيرهنّ من النساء ، إذ جعل الحدّ الشرعيّ الذي وضعه الله تعالى لمَن ترتكب الفاحشة منهنّ مضاعفة العذاب لهنّ ضعفين عمّا لو كانت الفاعلة للفاحشة إحدى نساء المسلمين ، لأنّ بيت النبوّة هو القدوة والمثال الذي ينظر إليه أبناء المجتمع المسلم ، فمضاعفة العقوبة كانت ((مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أنْ تأتيها إحداهنّ عذاباً مضاعفاً))[4].

---

[1] الكشّاف 110/3 ،وينظر: إرشاد العقل السليم 64/6 ، وتفسير شبّر /324 ،وروح المعاني 17 /45 .

[2] التحريروالتنوير 39/17.

[3] إرشاد العقل السليم 64/6.

[4] التحرير والتنوير 21 /236 ، وينظر: في ظلال القرآن 5 /2857 .

ويلحظ في هذا التعبير الافتراضيّ أنّه كسابقه أردفت فيه (مَنْ) الشرطيّة بحدث مضارع ، وهذا دليل على عدم تحقّق الفعل وثبوته ،وقد ورد التعبير الإفتراضيّ مبتدئاً بالنداء (يا نساء النبيّ) لقصد الاهتمام لما سيلقى إليهنّ ، وفي الإضافة إلى النبيّ ﷺ تشريف وتكليف خاصّ لهنّ [1]. وقوله (بفاحشة مبيّنة) أي ((الفعلة البالغة في الشناعة والقبح ، وهي الكبيرة، كإيذاء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والافتراء والغيبة ، وغير ذلك ، والمبيّنة هي الظاهرة))[2]. و في تقديم الجار والمجرور (لها) على (العذاب) نائب الفاعل ـ على ما يبدو ـ دلالةً على خصّها بالوعيد ، وفي تعريف (العذاب) دلالة على أنّه العذاب الإلهيّ الذي لا يشابهه عذاب . وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) فيه توكيد لذلك الوعيد ، وتثبيت للأمر الإلهيّ الذي لا يمنعه مكانة ولا شفاعة .

2- الطلب :

أ: الاستفهام :

برز الافتراض منسجماً مع أسلوب الاستفهام ؛ وذلك لكون ((تركيب الاستفهام من أهم التراكيب التي اُعتمدها القرآن الكريم في المجادلة ، لما لهذا الأسلوب من قدرة على حمل المجادل على التفكير والتأمل الدلاليّ ، ليدخل دائرة الاقتناع ، ويسير على خطى الحقيقة بنفسه ، فيصل إلى القناعة الذاتيّة))[3] . ولعلّ من أهمّ الأدوات الاستفهاميّة التي أعطت الدلالة على الافتراض من خلال عدد من السياقات التي وردت فيها :

---

(1) ينظر: روح المعاني 21 / 243 .

(2) الميزان 16 / 308 .

(3) بنى الجدل في الخطاب القرآنيّ : خولة عبد الحميد . أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كليّة التربية للبنات 2006 م/ 115 .

الهمزة :

تستعمل الهمزة مع أسلوبين من أساليب الطلب ،هما : أسلوب الاستفهام ، وأسلوب النداء ، وعند آستعمالها مع الاستفهام يكون إمّا حقيقةً كقولنا : (أ قام زيد ؟) ، أو (أزيد عندك أم عمرو ؟) حينما يتطلّب ذلك جواباً على سبيل الحقيقة . أو أنْ يخرج مجازاً معها لمعانٍ أخر ، كالإنكار ،أو التوبيخ ، أو التعجّب ، أو التهكّم ،وغيرها [1]. وتكون الهمزة تقريراً وتحقيقاً[2]. إذا دخلت على (ما) أو (لم) أو (ليس) ،كقولنا : أما أحسنت إليك ؟ ألم أكرمك ؟ ألست بخيرٍ من زيدٍ ؟ . وجوابها يكون (بلى) ، ومنه قوله تعالى :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ﴾[آل عمران 172] . وتختصّ الهمزة دون (هل) من حروف الاستفهام بالدخول على جملة الشرط ((وذلك قولك : أإن تأتني آتك . ولا تكتفي بمَنْ لأنّها حرف جزاء ، ومتى مثلها ، فمن ثَمّ أدخل عليه الألف ، تقول : أمتى تشتمني أشتمك ، وأمَنْ يفعل ذلك أزره))[3].

ويرى أحمد بن فارس [ت 395هـ] ، أنّ من الاستفهام بالهمزة الداخل على الشرط ، هو في الحقيقة للجزاء ((وذلك كقول القائل (إنْ أكرمتك تكرمني) ، المعنى : أتكرمني إنْ أكرمتك ؟ قال الله جلّ ثناؤه ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾[الأنبياء 34] ، تأويل الكلام : أفهم الخالدون إنْ متّ ؟، ومثله ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران 144] ، تأويله : أفتنقلبون على أعقابكم إنْ مات ؟))[4]

وتحذف همزة الاستفهام من الكلام ، ويفهم حذفها من سياق الكلام ، وقد يدلّ على وجودها أم المعادلة [5].

---

[1] ينظر: البلاغة والتطبيق ، أحمد مطلوب وكامل حسن البصير /132 ــ 138 ، وعلم المعاني : عبد العزيز عتيق / 75 ــ 88 .

[2] ينظر : معاني الحروف /41 ــ 43 ،وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني /30ــ 34 .

[3] كتاب سيبويه 3 / 82 ــ 83 .

[4] الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها /295ــ 296 .

[5] ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني / 34 .

إنّ لحذف الهمزة أو تقدير حذفها أثراً في تفسير بعض الآيات القرآنيّة الكريمة ،فقد رأى بعض العلماء ، أنّه لا حذف في قوله تعالى :﴿فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً فقال هذا ربّي ﴾[الأنعام 76]. فٱبن قتيبة يرى أنّ إبراهيم عليه السلام((يريد أنْ يستدرجهم بهذا القول ويعرّفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم شأن النجوم وقضائهم على الأمور بدلالتها . فأراهم أنّه مُعظّم ما عظّموا وملتمس الهدى من حيث ٱلتمسوا ، وكلّ مَنْ تابعك على هواك وشايعك على أمرك كنت به أوثق ... (فلمّا أفل) أراهم النقص الداخل على النجم بالأفول ، لأنّه ليس ينبغي لإله أنْ يزول ولا أنْ يغيب فـ (قال لا أحبّ الآفلين) وٱعتبر مثل ذلك في الشمس والقمر حتّى تبيّن للقوم ما أراد ، من غير جهة العناد والمباداة بالتنقّص والعيب))[(1)] .

وقد وافق ٱبن قتيبة في هذا الرأي الطوسيّ وأبو السعود مع فارق بينهم ، فرأوا أنّ إبراهيم عليه السلام كان ((فارضاً مقدّراً لا مخبراً ، بل على سبيل الفكر والتأمل ، كما يقول الواحد منّا لغيره إذا كان ناظراً في شيء ومحتملاً بين كونه على إحدى صفتين : إنّا نفرضه على إحداهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض من صحّةٍ أو فساد))[(2)].

ورأى آخرون أنّ الهمزة محذوفة في الآية الكريمة ، والتقدير : أهذا ربّي ؟!. وقوله هذا ((قاله على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم ، فأظهر انّه موافق لهم ليهشّوا إلى ذلك ثُمّ يكرّ عليهم بالإبطال إظهاراً للإنصاف وطلب الحقّ))[(3)].

وممّا ورد فيه التعبير مستفهماً على سبيل الافتراض ، قوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف 39] .

فالاستفهام ، هو طلب معرفة شيء غير معلوم بالنسبة للسائل ، أمّا إذا كان الجواب معلوماً للسائل فالاستفهام غير حقيقيّ ، فهذا السؤا ل المعلوم الجواب قد يأتي به السائل طلباً للجدل

---

(1) تأ ويل مشكل القرآن / 202.

(2) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسيّ 4/ 168 – 169 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 2 / 405ــ 406 .

(3) التحرير والتنوير 6 / 177 ، وينظر: معاني القرآن :الفرّاء 1 /341 ،و الصاحبيّ في فقه اللغة /297 ، ونحو المعاني : أحمد عبد الستّار الجواريّ / 77 .

والمحاججة مع المسؤول . وهذا ما يلحظ في كلام النبيّ يوسف عليه السلام مع السجينين ، إذ إنّ ((الاستفهام تقريريّ ، وقد رتّب الاستدلال بوجه خطابيّ ... إذ فرض لهما إلهاً واحداً مستفرداً بالإلهيّة ... وفرض لهما آلهةً متفرّقين كلّ إله منهم إنّما يتصرّف في أشياء معيّنة ... ثُمّ فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين حال الإله المنفرد بالإلهيّة والأحوال المتفرّقة للألهة المتعدّدين ليصل بذلك إلى إقناعهما بأنّ حال المنفرد بالإلهيّة أعظم وأغنى))[1].

فالاستفهام في الآية جاء السؤال فيه ((على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنّها إنْ كانت أرباباً فهي خير أم الله الواحد القهّار)) [2].

وجاء التعبير الافتراضيّ في هذه الآية مسبوقاً بالنداء الذي بدأ به النبيّ يوسف عليه السلام في قوله (يا صاحبي السجن) ((ولعلّه إنّما ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودّة وتتمحّض النصيحة ليُقبلا عليه ويقبلا مقالته)) [3].

ثُمّ جاء بالاستفهام الذي يحدّد لهم فيه أحد خيارين : الأوّل (أأ رباب متفرّقون) ، فكثرة العدد مع الاختلاف بينهم ، وقد جاء معبّراً عنهم بالتنكير ،ويبدو أنّ فيه الدلالة على عدم ٱستحقاقهم للعبادة ، ثُمّ جاء بـ (أم) المعادلة بين الاختيارين ، ثُمّ قال (الله الواحد القهّار) ، فقد جاء بلفظ الجلالة ، وقد وصفه بالصفا ت المناقضة لما قبل (أم) ، فالواحد في مقابل أرباب ، والقهّار في مقابل متفرّقون [4].

وقد جاء الاستفهام لبيان الأفضل للعبد ، فاستعمل ٱسم التفضيل (خير) ، ويحتمل بذلك احتمالين ، إمّا أنْ يكون ((على ظاهر المتعارف منه ،وهو التفضيل بين مشتركات في صفة .ويجوز أنْ يكون (خير) مستعملاً في معنى الخير عند العقل ، أي الرجحان والقبول . والمعنى : ٱعتقاد وجود أرباب متفرّقين أرجح أم ٱعتقاد أنّه لا يوجد إلاّ إله واحد))[5].

---

[1] التحرير والتنوير 12 / 64 ، وينظر: الميزان 11 /78 ـــ 79 .

[2] مفاتيح الغيب 18 / 457 .

[3] روح المعاني 12 /592 .

[4] ينظر : مفاتيح الغيب 18 / 112 .

[5] التحرير والتنوير 12 / 65 .

ونحو هذا الافتراض الاستفهاميّ ، قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾[النجم 12].

فقد ٱستعملت الهمزة في هذه الآية لاستنكار التشكيك في مصداقيّة النبيّ ﷺ في ما رأى عند قيامه بالإسراء والمعراج في السماوات ، وجاء هذا التكذيب شكاً منهم في كون النبيّ ﷺ ، قد رأى فعلاً بعينيه ما يخبرهم به ،أم أنّ هذا الكلام يتصوّره أو أن يكون قد سمعه ، لذا كان معنى ((الاستفهام في قوله (أفتمارونه على ما يرى) مستعملاً في الفرض والتقدير ، أي : أفستكذّبونه فيما يرى بعينيه كما كذّبتموه فيما بلّغكم عن الله))[1].

إنّ الاستفهام في الآية الكريمة ينعى إلى الكفّار مكابرتهم ومجادلتهم حين سألهم عن الشكّ حتّى في الرؤية البصريّة التي وصفها النبيّ ﷺ ، لهم فإذا كنتم تشكّكون في الكلام الملقى إليه ، وترون أنّه إفك مفترى أو أساطير الأوّلين فما يكون حالكم فيما رآه بعينه؟ ، أيكون للشكّ بعد ذلك موضع؟ ، وفرض الشكّ بعد الرؤية غايته إفحامهم وإلقاء الحجّة عليهم . ويلحظ أنّ الافتراض ورد في هذه الآية معبَّراً عنه بالهمزة الاستفهاميّة الدالّة على الإنكار ، وقوله تعالى (تمارونه) ((وهو المجادلة ، واشتقاقه من مرى الناقة إذا مسح ظهرها وضرعها ليخرج لبنها وتدرّ به ، فشبّه به الجدال ، لأنّ كلاً من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجّة فكأنّه يستخرج درّه))[2]. وجيء بالفعل المضارع (يرى) إمّا ((ٱستحضاراً للصورة الماضية لما فيها من الغرابة))[3]. أو ((إشارةً إلى ما يمكن حدوثه بعد))[4] .

أمْ المنقطعة :

أم، نوعان : متّصلة ومنقطعة ، فالمتّصلة تربط ما قبل (أم) بما بعدها ، وتسمّى (أم) المعادلة . أمّا المنقطعة فتكون دالّةً على الإضراب والاستفهام معاً ، وفي ذلك يقول سيبويه : ((أمّا أم فلا

---

[1] التحرير والتنوير 27 / 105 .

[2] روح المعاني 27 / 71 ، وينظر : مفردات ألفاظ القرآن / 766 .

[3] المصدر نفسه 27 /72 .

[4] البحر المحيط 10 / 12.

يكون الكلام بها إلاّ ٱستفهاماً ، ويقع الكلام بها في الاستفهام على وجهين : على معنى أيهما ، وأيهم ، وعلى أنْ يكون الاستفهام الآخر منقطعاً من الأوّل))[1].

ويوضّح سيبويه الفرق بين معنى (أم) المتّصلة والمنقطعة بقوله : ((وذلك قولك : أعمرو عندك أم عندك زيد ، فهذا ليس بمنزلة : أيّهما عندك . ألا ترى أنّك لو قلت : أيّهما عندك عندك ، لم يستقم إلاّ على التكرير والتوكيد . ويدلّك على أنّ هذا الآخر منقطع من الأوّل ، قول الرجل : إنّها لإبل ، ثُمّ يقول :أم شاء يا قوم . فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعة ، كذلك تجيء بعد الاستفهام ، وذلك أنّه حين قال : أعمرو عندك ، فقد ظنّ أنّه عنده ، ثُمّ أدركه مثل ذلك الظنّ في زيد بعد أنْ استغنى كلامه وكذلك : إنّها لإبل أم شاء ، إنّما أدركه الشكّ حيث مضى كلامه على اليقين))[2]. وقد جعل منه قوله تعالى :﴿ الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ [السجدة 1ـ 3] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾[الزخرف 16] ، ((فجاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى ذلك من قولهم ، ولكنّ هذا على كلام العرب ليُعرّفوا ضلالتهم))[3] . ولكون معنى الإضراب ملازماً لها ، فهي ((لا تكون في أوّل الكلام مثل بقيّة أدوات الاستفهام بل لا بدّ أنْ يسبقها كلام ، فلا تقول ابتداءً (أم أنت فقير) ، ولا (أم فعل هذا) ، بل لا بدّ أنْ يكون المتكلّم ٱبتدأ بشيء ثُمّ أضرب عنه إلى شيءٍ آخر))[4]. وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾[القلم 35 –37] . ويرى أبو عبيدة [ت 210هـ] ، أنّ ((أم ، تجيء بعد كلامٍ قد ٱنقطع وليست في موضع هل ولا ألف الاستفهام))[5] ومثّل له بقوله تعالى :﴿ أَمْ كُنتُمْ

---

[1] كتاب سيبويه 3 / 169 ، وينظر: معاني الحروف /80 ، و الجنى الداني في حروف المعاني /205 ــ 207 .

[2] كتاب سيبويه 3 /172 .

[3] كتاب سيبويه 3 / 173 .

[4] معاني النحو 4 / 218 .

[5] مجاز القرآن /34 .

شُهَدَاء ﴾[البقرة 133] . ويرى أنّ (أم) في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾[البقرة 140] ، في موضع إستفهامٍ ، وأنّها بمعنى : أتقولون؟ [1].

أمّا ٱبن قتيبة[2] ، فيرى أنّ (أم) بمعنى الهمزة في قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾[الطور 39] ، ويرى أنّ معناها : أله البنات ؟ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾[الطور 40].ويبدو أنّ رأي ٱبن قتيبة أقرب إلى المعنى ، وإنْ كان قد ٱقتصر على الاستفهام فقط غير أنّنا نجد أنّ الاستفهام فيها غير حقيقيّ ، بل هو إضراب على كلام متقدّم عليه . وما يؤيد ذلك أنّ بعض العلماء يرى أنّها تقدّر بـ (بل) والهمزة[3] .

ومن أمثلة (أم) في القرآن الكريم التي جاءت دالّة على الافتراض ، قوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾[الزخرف 16] .

فالتعبير قد ٱستعمل (أم) المنقطعة في الآية ، وتحمل ٱستفهاماً وإضراباً بسؤال هؤلاء الكفّار عن ٱختيار الله تعالى للبنات لنفسه ، وخصّهم بالبنين مع علمه أنّ معاييرهم وأعرافهم تأنف من الأنثى ، ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[النجم 21 ــ 22] . فالآية الكريمة ترخي العنان للمشركين وتسايرهم بادّعاء ((أنّ إضافة اتخاذ الولد جائزةً فرضاً وتمثيلاً ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ؟ ومن ادّعائكم أنّه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، وترك له شرّهما وأدناهما))[4]. وفي التعبير الافتراضيّ ٱستعمل الفعل (اتّخذ) ، وقد أوثر هذا الفعل لأنّه يشمل الاتّخاذ بالولادة ، أو بالتبنّي [5]، ثُمّ قال تعالى (ممّا يخلق) فجيء بالفعل المضارع بدل الماضي (خلق) دلالةً على أنّ الخلق مستمرّ لله تعالى في الحال والاستقبال ، وفيه إلزام الحجّة لهم بالقدرة على اتّخاذ الذكور مع الإناث ، أو الذكور فقط ما

---

[1] ينظر : مجاز القرآن / 35.

[2] ينظر : تأويل مشكل القرآن 292 .

[3] ينظر : البحر المحيط 9 / 574 .

[4] الكشّاف 4 / 235 ــ 236 ، وينظر : البحر المحيط 9 / 363، والتحرير والتنوير 25 / 225 ــ 227 .

[5] ينظر : التحرير والتنوير 25 /225 ــ227 .

دام الخلق بيده . وفي تنكير (بنات) وتعريف (البنين) دلالة على التحقير والتفخيم [1]على الترتيب .

ونحو هذا من التعبير الافتراضيّ بـ (أم) المنقطعة ، قوله :﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[الطور 35] .

شكّلت مجموعة الآيات من الآية (30 ــ43) من سورة الطور تشكيلاً يبدأ بالأداة (أم) المنقطعة التي تعطي معنى الإضراب مع الاستفهام ، وكلّ آية ((إضراب أنتقاليّ إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكار البعث)) [2]. والآية الكريمة تحمل في طيّاتها إضرابين مع أستفهامين ، وذلك بأنّ المحاججة معهم تستنطقهم ، هل خُلقوا من عدم أم أنّهم أوجدوا أنفسهم بأنفسهم ((ووجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل ، أمّا أنْ يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنّه لا يبقى إلاّ الحقيقة التي يقولها القرآن الكريم . وهي أنّهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يُشاركه أحد في الخلق والإنشاء ، فلا يجوز أنْ يشاركه أحد في الربوبيّة والعبادة)) [3].

ويلحظ أنّ التعبير الافتراضيّ جاء مُصدّراً بـ (أم) المنقطعة الدالّة على الاستفهام والإضراب ، وجيء بالفعل (خُلقوا) مبنيّاً للمجهول ، ولعلّ فيه دلالةً على عدم أمتلاكهم لأمرهم ، وجاء التعبير بقوله (شيء) النكرة ليعطي دلالةً عامّةً [4]، إمّا للدلالة على الخالق المُقدّر أو للدلالة على العلّة والغاية أو الحيّ ، فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات ، ثُمّ جاء الفرض الآخر (أم هم الخالقون) والتعبير فيه يخاطبهم مخاطبة الغائب ، ولعلّ في ذلك تهكّماً وتوبيخاً لهم .

---

[1] ينظر: روح المعاني 25 /97 ، والميزان 17 / 212 .

[2] التحرير والتنوير 27 / 78 .

[3] في ظلال القرآن 6 / 3399ــ3400.

[4] ينظر: روح المعاني 27 / 54 ــ55.

ب- النهي :

هو طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، وله صيغة واحدة ،هي المضارع المقرون بـ (لا) الناهية[1] .

ومن أمثلته في القرآن دالاً على الافتراض ، النهي الذي يُوجّه الخطاب فيه للنبيّ ﷺ ،كقوله تعالى :﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء 213] .

فقد جاء الخطاب القرآنيّ الموجّه للنبيّ ﷺ في كثير من الآيات الكريمة بصيغة النهي ، ولو أخذنا الكلام بظاهره لكان معنى الكلام أنّ النبيّ ﷺ، يقوم بأفعال لا تصحّ منه ، ولذا فالله تعالى ينهاه عن القيام بها . ولكنْ علمنا بأنّ النبيّ معصوم عن ٱرتكاب مثل هذه الأفعال ، وبشهادة القرآن الكريم له :﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم 3-4] . فهذا العلم يقودنا إلى معرفة أنّ الخطاب موجّه في ظاهره للنبيّ ، وهو في الحقيقة موجّه للمسلمين ((وحين يكون الرسول ﷺ متوعّداً بالعذاب مع المعذّبين ، لو دعا مع الله إلهاً آخر . وهذا محال ولكنّه فرض للتقريب . فكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب مَن يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟! وليس هنالك محاباة ، والعذاب لا يتخلف حتّى عن الرسول ، لو ٱرتكب هذا الإثم العظيم))[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية مُصدّراً بالفاء الرابطة ، أو هي جواب لشرط محذوف ((وكإنّ الفاء فصيحة أي إذا علمت ما ذكر فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر))[3] . ثُمّ جاء قوله (لا تدعُ) ، حيث (لا) الناهية عن عمل الفعل لمَن لا يتوقّع منه القيام به . وفي تقديم (مع الله) على المفعول (إلهاً) ، دلالة على الاهتمام وتخصيص الدعاء لله تعالى وحده . ولعلّ في قوله (إلهاً) ثُمّ وصفه بـ (آخر) دلالة التوكيد على عدم الإشراك . وجيء بالفاء الواقعة في جواب الطلب لبيان عاقبة مَن لا ينتهي عن هذا الأمر ، وتبعها الفعل المضارع (تكون) الواقع في جواب الطلب ، وفيه دلالة الاستقبال التي توحي بعدم التحقّق. ولعلّ في تعريف (المعذبين) دلالة على صنف بعينه يعرفه المخاطب .

---

[1] ينظر: البلاغة والتطبيق / 129 ، وعلم المعاني : عبدالعزيز عتيق / 65.

[2] في ظلال القرآن 5 / 2619 .

[3] روح المعاني 19 / 179 .

ج – الأمر :

هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، وله أربع صيغ ، هي : فعل الأمر ، والفعل المضارع المقرون بلام الأمر ، وٱسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر[1] . ويلحظ أنّ العلماء القدامى والمحدثين قد خرّجوا صيغة الأمر لأغراض مجازيّة يحدّدها السياق ، منها : الإهانة ، التعجيز ، الاستهزاء . وهي غايات أكثر من كونها أسلوباً . وقد ذكر الزركشيّ في باب (خطاب التعجيز) مجموعة من الآيات ذات الصيغة الأمريّة ، منها قوله تعالى : ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[البقرة 23] ، وقوله تعالى :﴿ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾ [آل عمران 168] ، وقوله تعالى :﴿ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾[الإسراء 50] . ونقل عن ٱبن عطية ، أنّ التعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب ، وإنّما معنى الآية : كونوا بالتوهّم والتقدير كذا[2] . وممّا يلحظ في ذلك ، أنّ بعض الآيات التي ٱستشهد بها ، عدّها جماعة من العلماء من باب الفرض ، ثمّ أنّ هذه الآيات تحمل دلالة التعجيز ، فهي كلّها ممّا لا يقدر عليه المخاطب ، ولعلّ في قول ٱبن عطيّة (بالتوهم والتقدير) ٱنسجاماً كبيراً مع أسلوب الافتراض ، في تصوّر الأمر وتخييله .

فقوله تعالى : ﴿ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾[الإسراء 50] ،جاء ردّاً على تعجّب الكفّار في أكثر من آية كريمة من الإعادة إلى الحيا ة بعد الموت ، وجاء الجواب لهم في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[يس 78] ، وقوله تعالى :﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[الصافّات 16] . وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق يشبه هذا السياق ، فالآية التي قبلها ، قوله تعالى :﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [الإسراء 49] . فورد الجواب بهذه الآية الكريمة ، وهو صيرورتهم حجارةً أو حديداً ، وهو أبعد ٱرتباطاً عن الأجساد من العظام والرفات ، فالمراد ((أنّ أبدان الناس وإنْ انتهت بعد موتها إلى أيّ صفة فُرضت ، وأيّ حالة قُدّرت ، وإنْ كانت في غاية البعد عن

---

[1] ينظر : البلاغة والتطبيق / 123—124 ،وعلم المعاني : عبد العزيز عتيق /58– 60 .

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن 2 / 156 .

قبول الحياة فإنّ الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها))[1] . وقد ورد الافتراض في الآية معبّراً عنه بفعل الأمر (كونوا) ، والأمر فيه ليس أمراً حقيقياً ،بل جيء به لغاية ، وهي التعجيز لهؤلاء الكفّار . ورأى بعض العلماء ، أنّ صيغة الأمر في الآية تحتمل ثلاثة وجوه[2] : أحدها أنْ تكون للتسوية ،أي : إنّكم مبعوثون سواءً كنتم عظاماً ورفاتاً أو كنتم حجارةً أو حديداً ، تنبيهاً على أنّ قدرة الله لا يتعاصى عليها شيء ، والثاني : ٱستعمالها للفرض ،أي : لو فُرض أنْ يكون الأجساد من الأجسام الصلبة لكم إنّكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك وٱستبعدتم إعادة الحياة فيها ، والثالث : أنْ يكون قوله (قل كونوا حجارة) كلاماً مستأنفاً ، ليس جواباً على قولهم (أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً). ولعلّ في مجموع الوجهين الأوّل والثاني دلالة على تكثيف المعنى المفترض في الآية .

3 – النفي :

وهو ((عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل))[3]. ومن أمثلة النفي الافتراضيّة ، قوله تعالى :﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدّثر 48] .

فقد جاءت الآية الكريمة بصيغة نفي الشيء بإيجابه ، وهو أنْ يكون ظاهر الكلام يفيد إثبات الشيء إلاّ أنّ باطنه يفيد نفيه مطلقاً . والغرض تأكيد النفي . فالآية الكريمة في سياق الكلام عن أحوال يوم القيامة ، وتصوير حال الكفّار في ذلك اليوم ، وسؤالهم عن سبب دخولهم النار ، وٱعترافهم بعدم الإيمان بالله تعالى ، لذا لامناص لهم ولا مهرب من العذاب ((فقد قُضي الأمر ، وحقّ القول ، وتقرّر المصير ، الذي يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك مَن يشفع للمجرمين أصلاً . وحتّى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !)) [4]. فكلّ ذنبٍ يحتمل

---

[1] مفاتيح الغيب 20 / 352 ، وينظر: البحر المحيط 7 / 63،وروح المعاني 15 / 117 ــ 118 ، والميزان 13 / 50 ــ 51 ،والتحرير والتنوير 14 / 100 .

[2] ينظر : التحرير والتنوير 14 / 100.

[3] التعريفات /197 .

[4] في ظلال القرآن 6 / 3762 ،وينظر: تفسير شبّر /577 ، وروح المعاني 29 / 206 ــ 207 .

المغفرة أو تنفع معه الشفاعة إلاّ ذنب الكفر بالله تعالى فلا مغفرة له ولا شفاعة . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مُصدّراً بالنفي بـ (ما) متبوعة بالفعل المضارع (تنفعهم) الدالّ على الاستقبال ، وهذا الجواب المنفي جاء ردّاً على كلام محذوف ، قدّره بعض العلماء بـ ((لوشفعوا لهم جميعاً))[1] ، أو ((لو شفعوا لهم فرضاً))[2] . وفي إضافة (شفاعة) لـ (الشافعين) المعرّف بـ (ال) دلالة على أنّ في الآخرة شفاعة لكنّها لا تكون للكافر ، تيئيساً لمن يصرّ على كفره وإشراكه بالله تعالى . وفي تعريف(الشافعين) دلالة على الاستغراق [3] .

ونحو هذا من الافتراض الوارد بأسلوب النفي ،قوله عزّ و جلّ :﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾[الصافّات 30] .

فالتعبير يصوّر الحوار والجدل الذي دار بين أهل النار ، إذ يتّهم أحدهم الآخر بالإضلال ، وباستعمال التهديد والوعيد والضغط عليهم كي لا يؤمنوا بالنبيّ المرسل إليهم ، فنجد الآيتين السابقتين تشيران إلى هذا الاتّهام ، وجزء من ردّ المتَّهمين عليهم ، فقال تعالى :﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[الصافّات 28 ـ 29] . فيحتجّ الطرف الآخر عليهم بهذا الكلام الذي تُعبّر عنه هذه الآية ،مدّعين عليهم ((بل لم تكونوا مؤمنين ، أي : لم نكن السبب الموجب لإجرامكم وهلاككم بخلوّكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا إنّا جرّدناكم من الإيمان ... ولو فرض أنّه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتّى نسلبه منكم ونجرّدكم منه))[4]. فليس لهم من قهر وتسلّط حتّى أجبروهم على الكفر ،بل هم الذين آختاروه ،فنفي هذا الإتّهام في كونهم هم ((مجاوزين الحدّ في العصيان مختارين له مصرّين عليه جواب آخر تسليميّ على فرض إضلالهم بأنّهم لم يجبروهم عليه ، وإنّما دعَوهم له فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دعَوا له هواهم))[5].

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 418 ، وإرشاد العقل السليم 9 / 62 .

[2] تفسير شبّر / 577 .

[3] ينظر: روح المعاني 29 / 207 .

[4] الميزان 17 /60 .

[5] روح المعاني 23 / 110

لقد جاء التعبير على سبيل النفي منكراً أيّ ٱرتباطٍ بين الطرفين المتخاصمين ، من خلال استعمال (اللام) الدالّة على التملّك للمتّهَمين ، واستعمال (على) الدالّة على التسلط والجبروت على المتّهِمين . وبتأخير المبتدأ المجرور بـ (مِن) المؤكّدة قد تلمح الدلالة على نفي أي نوع من أنواع التأثير عليهم في ٱختيارهم لطريق الكفر والله أعلم .

ومنه أيضاً ، قوله تعالى :﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف 51] .

فقد دلّ معنى الآية الكريمة على الافتراض[1] ، وجاء في سياق النفي في قوله (وما كنت متّخذ المضلّين عضداً) . فالنفي هنا قام على ٱفتراض مقدّر ، قدّره بعض العلماء ، بقوله : ((فلو أنّه – على سبيل الفرض والجدل – كان متّخذاً له مساعدين ، لما ٱختارهم من المضلّين))[2] . وقوله (المضلّين) من الفعل (أضلّ) المتعدّي بالهمزة ، ولعلّ فيه دلالةً على أنّ الضلال قد طغى لديه حتى أضلّ غيره ، وفي التصريح بقوله : (المضلّين) بعد ٱستعمال المضمر في الكلام السابق له ؛ ذمّ لهم بالإضلال[3] . وفي قوله (عضداً) ٱستعارة ، فالعضد ((ما بين المرفق إلى الكتف ... ويستعار العضد للمعين))[4] .

4 - المثل :

يستعمل المثل في القرآن الكريم ، بل وفي الكلام بصورة عامّة ، إمّا لإقناع الغير ، أو لتوضيح فكرةٍ ، أو لأخذ عبرةٍ أو غير ذلك .ولعلّ من أهمّ ميزات المثل القرآنيّ ، الصورة الفنيّة التي يرسمها خلال توضيحه لفكرةٍ ما . فالنصّ القرآنيّ يرسم صورةً حيّةً تُبرز المشهد المضروب له المثل حيّاً واقعيّاً في ذهن السامع أو المخاطب ؛ ((لأنّ التصوير الحسيّ والتشبيه في المشاهدات ٱنتقال من الأمور الذهنيّة الصرفة إلى العيان والنظر ، وٱنصراف من القضايا العقليّة

---

[1] ينظر : في ظلال القرآن 4 / 2275 .

[2] المصدر نفسه 4 / 2275 .

[3] ينظر : البحر المحيط 7 / 191 .

[4] مفردات ألفاظ القرآن / 571 .

المحضة إلى إنعام الحواس بما تدركه دون جهدٍ عقليّ في تصوّر أمرٍ مفروض ،أو معنًى ذهنيّ مُجرّد ، لا يتحقّق مصداقه في الخارج إلاّ بما هو حسيّ فيزول عندئذٍ الغموض والإبهام وتدرك بعدها حقائق الأشياء))[1]. ولعلّ هذا التصوير الذهنيّ للموضوع أو القضيّة هو الذي وثّق الصلة بين المثل القرآنيّ وأسلوب الافتراض من حيث إنّ الافتراض يوجد أمراً متصوّراً ويبني عليه نتيجةً تكون أمراً محتوماً لحصول الأوّل .

إنّ الناظر في المثل القرآنيّ يجده قد ٱستعمل طريقتين[2]، في ضرب الأمثلة : الأولى منهما ، عقليّة بأنْ يخاطب المثلُ العقلَ الإنسانيّ ، ويجعله الحكم على صدق القضيّة التي يتحدّث عنها المثل ، فتكون هذه الطريقة ٱحتجاجيّة . والأخرى منهما ، مجازيّة تحمل دلالات بلاغيّة إمّا للمبالغة أو الكناية أو التشبيه .

المثل العقليّ :

إذا كان المثل وسيلة من وسائل الإقناع وإيصال الفكرة ، فهو إذاً يستعمل أسلوباً منطقيّاً ٱستدلالياً في التوصّل إلى البرهنة على صدق الفكرة وإبراز الحقيقة ، لذا ((ٱنتهج المثل القرآنيّ منهجاً عقلياً في الاستدلال بعدة مجالات تدور حول إبطال الباطل ،وإبراز الحقّ ، ودفع الشبهة ، وإقامة الدليل ،وإدلاء الحجّة))[3].

ولعلّ أهمّ قضيّة يدور حولها المثل القرآنيّ قضيّة وحدانيّة الله تعالى ، وبطلان ما يعبد من دونه من آلهة ، خاصّة الأصنام منها ، لذا نجد المثل القرآنيّ يضرب لهم مثلاً على عجز هذه الأصنام وعدم قدرتها على فعل شيء حتّى تجاه مَن يقوم بعملٍ يقلّل من شأنها ومكانتها ، فقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[الحجّ 73] ،

---

[1] الصورة الفنيّة في المثل القرآنيّ ، محمد حسين علي الصغير / 170 ــ 171 .

[2] ينظر : المصدر نفسه / 170ــ 171 ، و255 ــ 260 ،و359 ــ 362 .

[3] المصدر نفسه / 359.

وارد على سبيل الافتراض[1]عن طريق المثل الذي ضُرب ، فقد بيّن تعبير الآية ((أنّ هذه الأصنام التي ظللتم عليها عاكفين لا تخلق أبسط مخلوقات الله وأحقرها فيما وهب لها من التركيب والحياة ،وهو الذباب ، وأنّى لها هذا والآلهة المدّعاة لا تستطيع إنقاذ ما يسلبه الذباب منها . وماذا يسلب الذباب ؟ يسلب الشيء التافه الحقير الذي لا يستعاد نظراً لتضاؤله في الحجم والكيفيّة ، ويسلب الشيء العظيم الخطير الذي لا يعوّض بالوقت نفسه ... وقد كان التحدّي في لغة الاحتجاج متناولاً الأصنام وعبدتها ، وقد ثبت الوهن المشترك من الجانبين بالاستدلال المنطقيّ وبداهة البرهان))[2]. إنّ هذا الافتراض لسلب الطعام وغيره من الذباب وعجز الأصنام عن ٱستنقاذه أو عمل شيء لمنعه يعطي العقل البرهان الدافع والدليل القارع على ضلال هؤلاء الكفّار في عبادتهم ((فهذا البيان الموجز قد أغنى عن الدخول في تفصيلات تعدّد الآلهة عند البشر وبطلان ذلك بما ٱستدلّ عليهم من عجزها وهوانها))[3] .

وقد ورد التعبير الافتراضيّ في المثل مبدوءاً بقوله (يا أيّها الناس) المنبّهة لجميع البشر ليشمل الخطاب كلّ الطوائف المشركة بالله تعالى ، دون ٱستثناء ، وفي الإتيان بالفعل (ضُرب) المبنيّ للمجهول للاهتمام بالحدث[4]، ولعلّ في تنكير (مثل) تشويقاً للمخاطب وإثارة لانتباهه ، ثُمّ جاء بالجملة الاسميّة المؤكدة بـ (إنّ) للمبالغة في التوكيد . وقوله (لن يخلقوا) بالنفي للمستقبل؛ تعجيزاً لهم على أنْ تفعل آلهتهم ذلك العمل ، ثُمّ جاء بـ (ذباباً) وهو ٱسم جنس ، وقد جاء نكرةً للتحقير[5]. ثُمّ جاء الفرض بـ (لو ٱجتمعوا) ليشمل الفرض فيه الحال والاستقبال ، أي : ولو يجتمعون . و جواب الشرط محذوف وقد دلّ عليه الكلام المتقدّم (لن يخلقوا ذباباً) ويبدو أنّ في ذلك تقريعاً للكفّار وتحقيراً لآلهتهم .

---

(1) ينظر: روح المعاني 17 / 260 ، والتحرير والتنوير 17 / 245 ،و الميزان 14 / 346 .

(2) الصورة الفنّيّة في المثل القرآنيّ /361 ــ 362 .

(3) المصدر نفسه / 222.

(4) ينظر: التحرير والتنوير 17 / 243 .

(5) ينظر: المصدر نفسه 17 / 246 .

ويضرب الله تعالى مثلاً للكافرين بشخصين ، فيفترض[1] أحدهما عبداً مملوكاً والآخر حراً طليقاً ، واسع الرزق ينفقه على مَن يريد ، ويكنّي بالأوّل عن آلهتهم العاجزة ، وبالآخر عن الذات الإلهيّة القادرة المسيطرة ، قال تعالى :﴿ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل 75] . ((وهنا يتميّز التعبير الرمزيّ عن الأوثان والأصنام والتمثيل الحسيّ للعجز والقدرة والتطوير في خصائص الأسلوب الاحتجاجيّة ببداهة من التعبير والإقناع))[2] .

إنّ في ضرب هذا المثل تجسيداً واقعيّاً من محيط المجتمع المشرك للعجز الدائم لأصنامهم والقدرة الواسعة للإله الحقّ ((إنّه أطرف وأدقّ مثل في تصوير ضعف الشركاء ، ومهانة الآلهة المدّعاة وعجز الأصنام تنطق بذلك كلّه تلك الصورة القرآنيّة التي مثّلت الضعف في أبين صورة وجسّمت المهانة تجسيماً صادقاً واقعيّاً ، وأبرزت عجز هؤلاء الذين ٱدّعى المشركون أنّهم آلهة قادرون يمنحون ويمنعون))[3]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ للمثل مبدوءاً بالجملة الفعليّة (ضرب الله) للتوكيد على أنّ ضرب الأمثلة تكون من العليم الحكيم ، وورد قوله (مثلاً) نكرةً مبهماً وفي ((إبهام المثل أولاً ثُمّ بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة))[4]. وجاءوصف العبد بالمملوك في قوله (عبداً مملوكاً) ؛ توكيداً على أنّه عبد للبشر، لا عبداً من عبيد الله[5]، ثُمّ وصف حاله بقوله (لا يقدر على شيء) ولعلّ في ذلك مبالغة في عجزه عن التصرّف من ذاته ، ثُمّ قابله بقوله (ومَن رزقناه منّا رزقاً حسناً) فكان المقابل له الذي يملك حرّيته ، فلا مالك له إلاّ الله الذي رزقه الرزق الوفير ثُمّ عقّب على ذلك بوصفه حرّ التصرّف فيما رزقه ، فهو ينفقه على كلّ حال (سرّاً وجهراً) وجاء قوله (هل يستوون) ولعلّ دلالة الاستفهام فيه مجازيّة لغرض التوبيخ لهم . ثُمّ ٱستأنف الكلام بقوله (الحمد لله) وهي جملة ٱسميّة فيها دلالة

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب 20 / 68 ،والميزان 12 / 293 .

[2] الصورة الفنّيّة في المثل القرآنيّ / 288.

[3] المشاهد في القرآن الكريم / 326 .

[4] إرشاد العقل السليم 5 / 129.

[5] ينظر: المصدر نفسه 5 / 129 .

الثبوت والدوام في كلّ حين . ثُمّ بيّن الله تعالى أنّ طبائع البشر تأبى الإذعان والاعتراف مع وجود الأدلّة والبراهين بقوله : (بل أكثرهم لا يعلمون) ، فهم مصرّون على كفرهم وعدم إيمانهم ، فلا يؤمن منهم إلاّ القليل .

المثل المجازيّ :

إذا كان المثل العقليّ يؤدي وظيفةً منطقيّةً ٱستدلاليّةً ، فإنّ هذا المثل يؤدي وظيفةً بلاغيّةً تخرج لبيان غرض معيّن من المثل ، منها المبالغة ، والكناية[1] ، فمن هذه الأمثلة المجازيّة التي تعطي دلالة الافتراض[2] ، قوله تعالى :﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] . فترى أنّ الآية بالقدر الذي تشخّص فيه الجبل وتضفي عليه صفة الحياة ، فهو يخشع ويتصدّع خوفاً من الله تعالى ، فهي أيضاً تنكر على الناس هذا التجمّد الذي لا يستشعر عظمة القرآن ، فـ ((لو أنزلنا القرآن على جبلٍ ، وكان الجبل ممّا يتصدّع إشفاقاً من شيء أو خشيةً لأمر لتصدّع من صلابته وقوّته ، فكيف بكم يا معاشر المكلّفين مع ضعفكم وقلّتكم ، وأنتم أولى بالخشية والإشفاق))[3] .

وممّا يلحظ في هذا التعبير الافتراضيّ البيان الأكبر في تقصير الإنسان عن التفكّر في القرآن الكريم ، والأخذ بمضامينه والاسترشاد بهديه وأحكامه وذكر الجبل وخشوعه وتصدّعه يدلّل على هذا التقصير لا أنّ الجبل يخشع ((إذ ليس من شأن الجبل أنْ يخشع ولا أنْ يخشى والخشوع والخشية كلاهما أفعال القلوب التي لا تصدر عن جماد إلاّ أنْ يكون ذلك من صنع البيان إذ يبثّ الحياة في الصخر الأصمّ))[4] . وجاء التعبير الافتراضيّ في هذا المثل بالطريقة المباشرة بـ (لو) الشرطيّة المتبوعة بالفعل الماضي (أنزلنا) وفي ذلك دلالة على عدم تحقّق

---

[1] ينظر: الصورة الفنّيّة في المثل القرآنيّ /255 ــ 260 .

[2] ينظر: التحرير والتنوير 28 / 103، وينظر: إرشاد العقل السليم 8 / 233 ، حيث سمّاه تمثيلاً وتخييلاً .

[3] أمالي المرتضى ، الشريف المرتضى 1 / 408 ، وينظر: الصورة الفنّيّة في المثل القرآنيّ /255 .

[4] الإعجاز البيانيّ للقرآن / 226 .

الحدث . وجيء بقوله (على جبل)بالتنكير ، أي : أيّ جبل ؛ لأنّ الجبل ((مثال لأشدّ الأشياء صلابة وقلّة تأثر بما يقرعه))[1]. وقوله (خاشعاً متصدّعاً) أي لنزل أعلاه إلى الأرض خشوعاً ولتزلزل وتشقّق من مخافة الله تعالى ، وقوله (لرأيته) ضمير الفاعل ((لغير معيّن فيعمّ كلّ مَن يسمع هذا الكلام ، والرؤية بصريّة ، وهي منفيّة لوقوعها جواباً لحرف (لو) الامتناعيّة))[2]. وقوله (وتلك الامثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون) تذييل للمثال لبيان أنّ الغاية ممّا ساق من الأمثلة لأجل أنْ يتفكّر الإنسان ويتأمل ، فعسى أن تحصل له الهداية والرشا د .

وتبرز المبالغة في المثل في تصوير الثواب الإلهي الذي أعدّه الله لمَن ينفق المال ٱبتغاءً لرضى الله تعالى ، حيث يأتي هذا المثل الافتراضيّ [3]في قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة 261] ، حيث يلحظ أنّ الآية الكريمة تُحفّز المسلمين على التصدّق على الفقراء في سبيل الله ، وإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها ، فإنّها في باب الصدقة وعلى سبيل المبالغة - والله أعلم - بسبع مئة حسنة ، لما فيها من منفعة لا تقف عند المتصدّق بل تتعدّاه إلى أبناء المجتمع ، فحال المتصدّق تصوّر ((مشهد الحياة النامية ، مشهد الطبيعة الحيّة . مشهد الزرعة الواهبة ثُمّ مشهد العجيبة في عالم النبات : العدد الذي يحمل سبع سنابل ، والسنبلة التي تحوي مئة حبّة وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتّجه الضمير البشريّ إلى البذل والعطاء))[4] .

وقد ورد التعبير الافتراضيّ في هذا المثل عن طريق التشبيه ، فالمثل مصوّر للبركة التي يجعلها الله تعالى في ثواب مَن يتصدّق بما يملك ، فجاء قوله (أموالهم) للدلالة على أنّ هذه الأموال ملكهم الخاصّ لا ملك غيرهم ولا مشارك لهم فيها ، وفي قوله (في سبيل الله) بيان للغاية التي تُنفق فيها الأموال ويكون المثل مصداقاً لها . وقوله (حبّة) التي جاءت نكرةً ؛ تصغيراً لشأنها

---

[1] التحرير والتنوير 28 / 104 .

[2] المصدر نفسه 28 /104 .

[3] بنظر: الكشاف 1/ 306 ، والميزان 2 /356 ، وينظر: مجمع البيان 2 /270 ، حيث قال في تفسيره لهذه الآية إنّ المثل ((مُتصوّر وإنْ لم يُرَ)) .

[4] في ظلال القرآن 1 / 306.

في ذاتها ولعلّ في العدد سبعة في قوله (سبع سنابل) بياناً للكثرة لا العدد نفسه ، فضلاً عن أنّ التعبير بجمع التكسيرفيه دلالة الكثرة[1] . ودلّ قوله (في كلّ سنبلة) على الاستقصاء للسنابل واحدةً واحدة . ثُمّ يترك الله أمر الثواب والزيادة مفتوحاً تبعاً لإرادته ومشيئته ، ويبين إحاطته وعلمه بمَن يستحقّ الزيادة بقوله: (والله واسع عليم) الذي ورد مقرّراً للتعبير السابق له .

وكان الأدب القرآنيّ في طرح عدد من القضايا يستعمل الأسلوب الرمزيّ أو يضرب الأمثلة لبيان حكمٍ شرعيّ أو تصحيح لخطأ في تصرّفٍ ما ، وجاء البيان أحياناً من خلال ٱفتراض لشيء غير موجود في الواقع ، فقوله تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[سورة ص 23] ، ورد فيه التعبير متحدّثاً عن خصمين ((وقد فرضا أنفسهما أخوين وفرضا الخصومة في معاملات القرابة وعلاقة النسب وٱستبقاء الصلات))[2]، كما فرض التعبير وجود تجاوزٍ من أحدهما على الآخر ، وظلمه له ((على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرّة غير تلبسٍ بشيء منها ، فمثّلوا بقصّة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المئة ، فطمع في نعجة خليطه وأراد ٱنتزاعها منه ، وحاجّه في ذلك محاجّة حريص على بلوغ مراده ... وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدلّ على المراد))[3].

وقد ورد التعبير الافتراضيّ في هذا المثل مؤكّداً بقوله تعالى (إنّ هذا أخي) ، ولعلّ في ٱستعمال ٱسم الإشارة (هذا) بياناً أنّ المخاصِم له قريب له تربطه معه رابطة الأخوّة . وقوله (له تسع وتسعون نعجة) حيث قدّم الجار والمجرور لبيان أنّ المخاصِم هو صاحب الملك الكثير والكبير . وقيل في التعبير بـ (نعجة) إنّه كناية عن المرأة ، والعرب تكنّي عن المرأة بالنعجة[4].

---

[1] ينظر: كتاب سيبويه 3 / 490 ــ 493 ،ومعاني الأبنية، فاضل السامرائيّ / 135 ، والتعبير القرآنيّ ، فاضل السامرائيّ /40 .

[2] التحرير والتنوير 23 / 134ــ 135 .

[3] البحر المحيط 9 / 149، وينظر: الكشاف 4 / 80 ــ 83 ، وإرشاد العقل السليم 7 / 221 .

[4] ينظر: الكشّاف 4 / 80 ــ 83 ، ومجمع البيان 8 / 518 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 27 ، والبحر المحيط 9 / 149.

وقوله (اكفلنيها) ورد بصيغة الأمر ، وقد جاء أمراً حقيقياً لا التماسيّاً ، وفيه من القهر والتسلّط الذي يُجبره على الإذعان للأمر . وقوله (عزّني في الخطاب) ، أي غلبني في المخاطبة فلم أستطع ردّاً لما قال لي ، إذ يقال : عزّ عليّ كذا بمعنى : صعب ، وعزّه كذا بمعنى : غلبه ، وقيل في معنى الآية ، أي صار أعزّ منّي في المخاطبة والمخاصمة[1] .

الافتراض ـ كما تقدّم ـ من أساليب التعبير في القرآن الكريم ، وهذا الأسلوب لا يأخذ نمطاً واحداً يسير عليه أو يأخذ به ، وإنّما يُفهم من سياق التركيب أو العبارة التي يرد فيها . لذا فقد ٱرتبط ببعض الأساليب اللغويّة منها : الشرط ، الاستفهام ، وضرب الأمثلة . ويبدو أنّ ٱرتباطه بالشرط كان أكثر وأشيع من غيره لما في هذا الأسلوب من ربط حصول الجواب بحصول شرطه وهو ما عليه الافتراض في الكثير من سياقاته .

إنّ الافتراض طريقة من طرق الاستدلال على صحّة قضيّة أو مسألة أو نفي صحّتها ، فهذه القضيّة قد تكون غامضة على المخاطب أو يكون شاكّاً فيها أو جاهلاً لها ، أو قد لا يكون له أيّ تصوّر عنها ، فالافتراض يقتضي ((أنْ يسوق المستدلّ في برهانه بعض القضايا التي ليس في مقدوره أنْ يجزم بصدقها ، فينسب إليها الصدق ليبني عليها أحكاماً أو يستنتج منها نتائج تفيد الدعوى))[2] .

إذاً الافتراض الحاصل بالجملة الشرطيّة تعبير ((يختصّ بإفادة التقدير من غير أنْ يذكر بلفظه ، هذا التعبير هو بالذات (الجملة الشرطيّة) إذ يكون فيها (فعل الشرط) باصطلاح النحاة أو (المقدّم) باصطلاح المناطقة بمنزلة الجزء المقدّر و(جواب الشرط) باصطلاح النحاة أو (التالي) باصطلاح المناطقة بمنزلة الجزء المبني على ما قُدّر))[3]

لعلّ الغاية الأولى والأخيرة للافتراض – في معظم أمثلته - ، هو إثبات صحّة قضيّة أو إنكارها ، وهذا الإثبات أو الإنكار ، لغموض البرهان المتيقّن فيه يُلجئ المُبرهِن إلى فرضيّات

---

[1] ينظر : مفردات ألفاظ القرآن / 564 (عزّ).

[2] اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ ، طه عبد الرحمن / 356 .

[3] اللسان والميزان /356 .

يرتّب عليها نتائج ، وهذه الفرضيّات هي ((المقدّمات التي تكفي لحصول النتيجة المطلوبة ، فقد يحتاج إلى أكثر من مُقدّمة واحدة كما أنّه قد يطوي منها ما يعلم أنّ الغير محيط به ، أو مشارك له في معرفته ، وقد يغيّر ترتيب دليله فيبدأ بذكر النتيجة ، ثُمّ يأخذ في التدليل عليها كانْ يقول : ليس في الأرض والسماء آلهة غير الله ؛ لأنّه لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا والأرض والسماء لم تفسدا))[1] . وهذا ما نطقت به الآية الكريمة :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء 22] .

[1] اللسان والميزان / 140.

الفصل الثاني :

أنواع الافتراض:

1-الافتراض الممكن .

2-الافتراض المحال .

3-الافتراض الزمانيّ .

4-الافتراض المكانيّ .

5-الافتراض التصويريّ .

6-الافتراض للواقع .

7-الافتراض للذي سيقع .

تعدّدت أنواع الافتراض القرآني حتّى يمكن تمييز خمسة[1] منها ، هي الافتراض (الممكن – المحال – الزماني – المكاني – التصويري) فضلاً عن نوعين آخرين هما : الافتراض للواقع ، والافتراض لما سيقع ، وهما لا يقومان على ما قامت عليه الأنواع السابقة ، وهذه الأنواع ليست منفصلة عن بعضها ، بل هي متداخلة ومتمازجة مع بعضها ، فيكون الافتراض زمانيّاً وهو محال ، أو يكون مكانيّاً وهو ممكن ، أو يكون محالاً وهو على سبيل التصوير وهكذا .

1- الافتراض الممكن :

الممكن لغةً :

مكّنه الله من الشيء وأمكنه منه بمعنى . وفلان لا يمكنه النهوض أي : لا يقدر عليه ، وتمكّن من الشيء واستمكن ظَفِر ، والاسم من كل ذلك المكانة ، وأمكنني الأمر يمكنني فهو ممكن ، ولا يقال : أنا أمكنه بمعنى : ٱستطيعه[2] .

الممكن ٱصطلاحاً :

عرّف الجرجانيّ الإمكان بقوله : ((عدم ٱقتضاء الذات الوجود والعدم))[3]، ثُمّ عرّف الإمكان الاستعداديّ بعد أنْ رأى أنّه يمكن تسميته الإمكان الوقوعيّ بقوله : ((وهو ما لا يكون طرفه المخالف واجباً لا بالذات ولا بالغير ، ولو فُرض وقوع الطرف الموافق لا يلزم المحال بوجه))[4]. ونُقل عن ٱبن سينا ، قوله : ((إنّ الواجب الوجود هو الموجود الذي متى فُرض غير موجود ، عرض منه محال . وإنّ الممكن الوجود هو الذي متى فُرض غير موجود أو موجوداً ، لم يعرض منه محال . والواجب الوجود هو الضروري الوجود ، والممكن الوجود هو الذي لا ضرورة فيه بوجه ، أي لا في وجوده ولا في عدمه))[5] . ورأى جعفر الحسينيّ أنّ الإمكان هو ((تساوي

---

(1) ينظر: الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم ، بحث مخطوط للدكتورة سعاد كريم الإزيرجاويّ / 5 .

(2) ينظر: لسان العرب 6 / 83 ، وتاج العروس 36 / 187 – 192 (مكن) .

(3) التعريفات / 29 .

(4) التعريفات / 29 .

(5) المعجم الفلسفيّ 2 / 424 (ممكن) .

وجود شيء مع عدمه فهو وسط بين الضرورة والاستحالة أو الامتناع))[1] ، ورأى أنّ الممكن الحقيقيّ هو ((الذي لا يمنعه شيء من الحدوث حتّى ولو لم يحدث))[2] . ولذا فإنّ ((كلّ أمر خلا من التناقض فهو ممكن إمكاناً مطلقاً أو منطقيّاً وكلّ أمر استوفى الشروط العامّة للتجربة فهو ممكن إمكاناً طبيعيّاً ، ويطلق ٱصطلاح الممكن الطبيعيّ على كلّ أمر لا يناقض ظواهر الطبيعة ، أو لا يتعارض مع قانون من قوانينها الثابتة))[3] .

ونجد من العلماء المحدثين ، السيد محمد باقر الصدر يقسّم الإمكان على ثلاثة معانٍ[4] هي : الإمكان العمليّ والإمكان العلميّ والإمكان المنطقيّ أو الفلسفيّ . فالإمكان العمليّ ، هو أنْ يكون الشيء متحققاً ، مثل السفر عبر المحيط ، الصعود إلى القمر ، لكونها أشياء أصبح لها إمكان عمليّ فعلاً . أمّا الإمكان العلميّ ، ففي الأشياء التي لا إمكان عملياً لممارستها كالصعود إلى كوكب الزهرة ، ولكنْ لا يوجد لدى العلم ما يُبرر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصّة . أمّا الصعود إلى قرص الشمس فإنّه غير ممكن علميّاً . والمقصود بالإمكان المنطقيّ أو الفلسفيّ أنّه لا يوجد لدى العقل ما يبرّر رفض الشيء والحكم باستحالته . فدخول الإنسان في النار دون أنْ يحترق وصعوده للشمس دون أنْ تحرقه بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقيّة . وقد عُطّل هذا القانون الطبيعيّ التجريبيّ لحماية حياة إبراهيم عليه السلام حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلك القانون ، فقيل للنار حين ألقي فيها :﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء 69] .

ولعلّ من اللافت أنّ معجزات الأنبياء في وقتنا الحاضر من قبيل الإمكان الفلسفيّ ، أمّا في وقتها فهي من الإمكان العمليّ . أمّا معجزة الإسلام (القرآن الكريم) ، فهي من قبيل الإمكان العملي منذ نزول الوحي إلى يوم القيامة .

---

[1] معجم مصطلحات المنطق / 45 .

[2] المصدر نفسه / 306

[3] المعجم الفلسفيّ 2 / 424 .

[4] ينظر : بحث حول المهديّ ، مقدّمة كتاب موسوعة الإمام المهديّ ، محمّد باقر الصدر / 26 – 40 .

الممكن في القرآن الكريم :

وردت ألفاظ في القرآن الكريم تدلّ على معنى الإمكان أو التمكين ، من ذلك قوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾[يوسف 21] أي ((جعلناه ملكاً يتصرّف فيها بأمره ونهيه))[1]، وقوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص 57] ، أي ((ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن))[2]. أمّا الافتراض الممكن في القرآن ، فمنه ما كان القيام به ممكناً على البشر ، أي إنّه في مقدور البشر تحقيقه ، ومنه ما كان مستحيلاً على البشر الإتيان به ، ولكنّه ممكن إنْ تعلّق حصوله بالمشيئة والأمر الإلهي .

والافتراض الممكن هو الذي يرد ((بأسلوب يلمح فيه إمكانيّة الوقوع للأمر المفترض))[3] . فمن ذلك ، قوله تعالى : ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر 12] . فقوله (ولئن نصروهم) جاء على سبيل ((الفرض والتقدير))[4] ، وهو فرض ممّا يمكن وقوعه[5] .

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي تفترض الممكن ، قوله تعالى :﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة 137] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّة على الافتراض[6] ، فمعنى الآية ((إنْ حصّلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحّة والسداد فقد آهتدوا))[7].والآية الكريمة قد عبّرت بـ (مثل ما آمنتم) ،

---

[1] الكشاف 2 / 437 .

[2] إرشاد العقل السليم 7 / 19 .

[3] الفرضيّة في التعبير القرآني الكريم / 5 .

[4] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 321 .

[5] ينظر : الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم / 5 .

[6] ينظر: الكشّا ف 1 / 194 ،وروح المعاني 1 / 539 .

[7] الكشّا ف 1 / 194 .

والمعنى : بما آمنتم به[1]. فـ (مثل) في الآية الكريمة ليس غير ما آمن به المسلمون ((إذ لا مثل لما آمن به المسلمون ولا دين كدين الإسلام))[2]، فلذا يكون البحث عن المثل أمراً مستحيلاً ، ولا يكون ممكناً إلاّ إذا كان الإيمان بالذي آمن به المسلمون ، فـ ((دينهم الذي هم عليه ، وكلّ دين سواه مغاير له غير مماثل ،لأنّه حقّ وهدى وما سواه باطل وضلال))[3]. وقد يكون المعنى للمثل ليس الدين وإنّما للإيمان لكون من الممكن لأهل الكتاب أنْ يؤمنوا بالذي آمن به المسلمون لو أنّهم ((آمنوا إيماناً مثل إيمانكم بما ذكر مفصّلاً وأنْ تكون للملابسة أي : فإنْ آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإنْ آمنوا إيماناً ملتبساً بمثل ما آمنتم إيماناً ملتبساً به من الإذعان والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام ، فإنْ وجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لا عينه بخلاف المؤمن به فإنّه لا يتصوّر فيه التعدّد (فقد ٱهتدوا) إلى الحقّ وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق))[4].

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر 14] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّة على الافتراض[5] . والمقصود بالذين يدعونهم إمّا الأصنام ، ((هذا إذا كان الكلام مع عبدة الأصنام ويحتمل أنْ يكون مع عبدتها وعبدة الملائكة وعيسى وغيرهم من المُقرّبين))[6]. فقوله (إنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) ، فإنْ كان المعبود الأصنام ، فهي جماد ليس من شأنه السماع . أمّا غير الأصنام ؛ فلأنّه ((في شغلٍ شاغل وبعد بعيد عن عابده

---

[1] ينظر: الميزان 1 / 137 .

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل1 / 411 .

[3] الكشّا ف 1 / 194 .

[4] إرشاد العقل السليم 1 / 167 .

[5] ينظر:الكشّا ف 3 / 587 ،وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 4 / 415 ،وإرشاد العقل السليم 7 / 148 ،وتفسير شبّر / 436 ،وروح المعاني 22 / 486 ،و مختصر تفسير الخازن 3 / 1277 .

[6] روح المعاني 22 / 485 .

كعيسى عليه السلام ... أو لأنّ الله عزّ وجلّ حفظ سمعه من أنْ يصل إليه مثل هذا الدعاء لغاية قبحه وثقله على سمع مَن هو في غاية العبوديّة لله سبحانه))[1]. فيأتي الفرض في قوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ، أي ((بأنْ يخلق الله لها سمعاً))[2] ، فهذا ممّا كان ممكناً على الله تعالى غير محال . وأمّا عدم الاستجابة فـ ((لأنّهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهيّة ويتبرّؤون منها))[3]. ورأى أبو السعود أنّ عدم الاستجابة ((لعجزهم عن الأفعال بالمرّة لا لما قيل من أنّهم متبرّئون منكم وممّا تدّعون لهم فإنّ ذلك ممّا لا يُتصوّر منهم في الدنيا))[4]. أمّا الآلوسيّ فذكر أنّ عدم الاستجابة ((لأنّهم لم يرزقوا قوة التكلّم ، والسماع لا يستلزم ذلك ، فالمراد بالاستجابة الاستجابة بالقول ، ويجوز أنْ يُراد بها الاستجابة بالفعل ، أي ولو سمعوا ما نفعوكم ؛ لعجزهم عن الأفعال بالمرّة ، هذا إذا كان المدعوون الأصنام وأمّا إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المُقرّبين فعدم الاستجابة القوليّة ؛لأنّ دعاءهم من حيث زعم أنّهم آلهة وهم بمعزل عن الإلهيّة فكيف يُجيبون زاعم ذلك فيهم ، وفيه من التهمة ما فيه ، وعدم الاستجابة الفعليّة يحتمل أنْ يكون لهذا أيضاً ويحتمل أنْ يكون لأنّ نفع مَن دعاهم ليس من وظائفهم ، وقيل لأ نّهم يرون ذلك نقصاً في العبوديّة والخضوع لله عزّ وجلّ))[5] . ويبدو أنّ مجموع الرأيين يُستفاد من معنى الآية . ثُمّ يأتي قوله تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) تفنيداً لمزاعمهم ، فالله تعالى يُنطقهم ((لتوبيخ عابديها فيقولون لهم : لِمَ عبدتمونا وما دعوناكم إلى ذلك ؟))[6].

---

[1] روح المعاني 22 / 485 .

[2] مجمع البيان 8 / 346 .

[3] الكشّا ف 3 / 587 .

[4] إرشاد العقل السليم 7 / 148 .

[5] روح المعاني 22 / 486 .

[6] مجمع البيان 8 / 346 .

ومن الافتراض الممكن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[الشورى 8] .

فقد أعطت الآية الكريمة معنى الافتراض[1]، وجاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بـ (لو) متلوّة بفعل المشيئة المسند لله تعالى ، وما دامت المشيئة له تعالى ، فكلّ مستحيل يصبح ممكناً ، ومفعول المشيئة محذوف والتقدير: ((ولو شاء الله أنْ يحملهم على دين واحد وهو الإسلام بأنْ يُلجئهم إليه لفعله ، ولكنّه لم يفعله لأنّه يؤدي إلى إبطال التكليف والتكليف إنّما يثبت مع الاختيار))[2]. وجواب الشرط (لجعلهم أمّةً واحدةً) ، فالفعل (جعل) من أفعال التحويل ، أي لم يكونوا مؤمنين ثُمّ كانوا ((مؤمنين كلّهم على القسر والإكراه))[3]. ورأى أبو السعود والآلوسيّ أنّ قوله (أمّة واحدة) ، أي إمّا يكونوا مهتدين أو ضالّين ، على دين واحد[4] . ثُمّ جاء الاستدراك للافتراض في قوله (ولكن يُدخل مَن يشاء في رحمته) ، فإدخال مَن يشاء في رحمته لاستحقاق الرحمة لهؤلاء الداخلين[5] . وجاء قوله (والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير) ، ولم يقل عزّ وجلّ : ويدخل مَن يشاء في عذابه ((للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء ٱختيارهم لا من جهته عزّ وجلّ كما في الإدخال في الرحمة))[6] . ولعلّ في ٱختيار الجملة الفعليّة (يدخل مَن يشاء يشاء في رحمته) دلالةً على الحدوث والتجدّد ، واختيار الجملة الاسميّة (والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير) ، أي مَن مات ظالماً لنفسه بالكفر بالله والإشراك ، فجزاؤه ثابت لا ينفع معه (من وليّ ولا نصير) ((يمنع عنهم عذاب الله))[7]. وقد أكّد كلامه بالجملة الاسميّة مرّتين وبـ (مِن) المؤكّدة وبـ (لا) الزائدة لتوكيد النفي .

---

[1] ينظر: إرشاد العقل السليم 8 / 23 ،وروح المعاني 25 / 22 .

[2] مجمع البيان 9 / 57 .

[3] الكشّاف 4 / 205 .

[4] ينظر:إرشاد العقل السليم 8 / 23 ، وروح المعاني 25 / 22 .

[5] ينظر: روح المعاني 25 / 22 .

[6] المصدر نفسه 25 / 22 .

[7] مجمع البيان 9 / 57 .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[الشعراء 30] .

فقد أعطت الآية الكريمة الدلالة على الافتراض[1] . والفرض في الآية الكريمة جاء ردّاً على قول فرعون في الآية السابقة لها ، وهي قوله تعالى :﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء 29] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بالهمزة الاستفهاميّة الداخلة على الجملة المصدّرة بواو الحال[2]. ورأى آخرون أنّها للعطف[3] . ويبدو أنّ دلالة الحال أقرب للمعنى . وجيء بـ (لو) ؛ ((لبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كلّ حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاة له ليظهر تحقّقه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولويّة أي : أتفعل فيّ ذلك حال عدم مجيئي بشيء مبين وحال مجيئي به))[4] . والافتراض فيها للاستقبال لا للمضي ((وتصدير المجيء بلو دون إنْ ليس لبيان ٱستبعاده في نفسه بل بالنسبة إلى فرعون))[5]. والتعبير بقوله (بشيء) للتهويل[6] ، ووصفه بقوله بقوله (مبين) أي : موضّح لصدق دعواي [7]، وهو من أبان الذي يكون لازماً ومتعدّياً[8]، واللازم واللازم بمعنى : بان ، وجعله من أبان المتعدّي أنسب للمقام [9]. ولا يخفى أنّ الإتيان بالدليل على صدق الدعوى والنبوّة أمر ممكن لا من النبيّ موسى عليه السلام، وإنّما هذا الأمر ممكن لله سبحانه وتعالى المؤيّد لهذا النبيّ .

---

(1) ينظر:إرشاد العقل السليم 6 / 240 ــ 241 ، وروح المعاني 19 / 100 .

(2) ينظر: الكشّاف 3 / 300 .

(3) ينظر: إرشاد العقل السليم 6 / 240 ، وروح المعاني 19 / 100 .

(4) روح المعاني 19 / 100 .

(5) المصدر نفسه 19 / 100 .

(6) ينظر:إرشاد العقل السليم 6 / 240 ، وروح المعاني 19 / 100 .

(7) ينظر: إرشاد العقل السليم 6 / 240 ، وروح المعاني 19 / 100 .

(8) ينظر: مختار الصحاح / 72 (بين) ، وروح المعاني 19 / 100 .

(9) ينظر : روح المعاني 19 / 100 .

2- الافتراض المُحال :

المُحال لغةً :

المحال من الكلام : هو ما عُدِل به عن وجهه . وحوّله : جعله محالاً ، وأحال : أتى بمحال ، وكلام مستحيل أي محال . ويقال : أحلت الكلام أحيله إحالةً إذا أفسدته [1].

المحال ٱصطلاحاً :

عرّف السيد الجرجانيّ المحال بقوله : ((ما يمتنع وجوده في الخارج . والمحال الذي أحيل على جهة الصواب إلى غيره ، ويراد به في الاستعمال ما ٱقتضى الفساد من كلّ وجه كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد))[2] . وعرّف جعفر الحسينيّ المحال بقوله : ((ما ينافي المنطق ، ويخالف المعقول فلا يمكن تصوّره لأنّه يناقض العقل مناقضةً بيّنة ، والحكم المحال أعمّ من المتناقض مناقضةً بيّنة))[3]، كما عرّف المستحيل بأنّه ((ما ٱمتنع وجوده ضرورةً))[4]. وذكر الاستدلال بالمحال[5] ، ورأى أنّه يرادف برهان الخلف ، وعرّف برهان الخلف بأنّه ((برهنة أساسها إثبات صحّة المطلوب بإبطال نقيضه أو إبطال قضيّة ٱستناداً إلى فساد النتيجة اللازمة منها . وهو نوع من أنواع البرهان غير المباشر ، ويعرف ــ أيضاً ــ باسم البرهان المؤدّي إلى المحال))[6]. وعُرّف المحال أيضاً بأنّه ((ما يناقض ظواهر الطبيعة ، يتعارض وقوانينها الثابتة ، ، أو يكون غير مستوفٍ لشروط الوجود الواقعيّة))[7].

---

[1] ينظر: لسان العرب 2 / 190 ، وتاج العروس 28 / 365 ــ 384 (حول) .

[2] التعريفات / 167 .

[3] معجم مصطلحات المنطق / 281 .

[4] المصدر نفسه / 287 .

[5] ينظر: المصدر نفسه / 18 .

[6] معجم مصطلحات المنطق / 55 .

[7] المعجم الفلسفيّ 2 / 350 (محال) .

إنّ المحال بمعناه الاصطلاحيّ وارد في القرآن الكريم ، فقد كثر ما جاء من تعابير ٱفتراضيّة واردة على طريقة الفرض المحال ، وقد وجِد في مواضع إثبات الوحدانيّة لله تعالى ، أو نفي ٱتخاذ الولد أو الصاحبة أو الشريك . وجاء أيضاً في مواضع تنزيه النبيّ- ﷺ - عن الافتراء على الله تعالى أو الركون إلى ما يُطلب منه من قِبل الكفّار أو من أهل الكتاب ، وجاء أيضاً في مواضع تنزيهه عن الإشراك بالله تعالى . فضلاً عن وروده في مواضع تنزيه الملائكة عن ٱدّعاء الربوبيّة مع الله سبحانه وتعالى . فالافتراض المحال يفيد ما كان حصوله غير واقع أو ما كان مقطوعاً بعدم حصوله . واللافت للنظر أنّ التعبير القرآنيّ قد ٱستعمل الأداة (لو) في معظم الآيات الدالّة على إثبات الوحدانيّة لله تعالى ، أو تنزيهه عمّا لا يجوز من الصفات ، كقوله تعالى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾[الإسراء 42] ، وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء 22] ، وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[الزمر 4] . وأمّا قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81] . فقد ٱستعملت فيها (إنْ) بدل (لو) ، ولعلّ السبب في ذلك كونها مستعملة في مقام مجاراة الخصم لغرض تبكيته ، فٱستعملت (إنْ) الدالّة على الشك . ويلحظ أيضاً أنّ التعبير القرآنيّ ٱستعمل (لو) في موضع دفاع الله تعالى عن نبيّه وتنزيهه عن الافتراء عليه ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾[الحاقّة 44] . أمّا عندما يكون الجواب مُلقّناً للنبيّ ﷺ في موضع دفاعه عن نفسه ، فقد ٱستعملت (إنْ) بدل (لو) ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾[الأحقاف 8] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾[هود 35] . ويلحظ أيضاً أنّ الافتراض المحال في مواضع الركون من قِبل النبيّ ﷺ إلى الكفّار أو أهل الكتاب ، أو في مقام فرض إشراك النبيّ ، يستعمل التعبير القرآنيّ (لئنْ) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[البقرة 120] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة 145] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] . ويلحظ أنّ الافتراض المحال في تنزيه الملائكة عن ٱدّعاء الربوبيّة

يستعمل فيه الأداة (مَن) ، وقد علّلها بعض العلماء[1] ؛ لدلالة العموم مع الإيجاز ، كقوله تعالى :﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء 29] .

فمن الافتراض المحال ، قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء 22] .

فقد دلّت الآية على الافتراض[2]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً الأداة (لو) الدالّة على الامتناع ، ومنها سمّيت هذه الطريقة من الافتراض (دليل التمانع)[3]. وهو من الطرق التي بنى عليها المتكلّمون مسألة التوحيد ((وتقرير ذلك أنّه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين ، والقدم من أخصّ الصفات ، فالإشراك فيه يوجب التماثل فيجب أنْ يكونا قادرين عالمين حيين ، ومن حقّ كلّ قادرين أنْ يصحّ كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من إماتة وإحياء أو تحريك وتسكين أو إفقار وإغناء ونحو ذلك ، فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو إمّا أنْ يحصل مرادهما وذلك محال ، وإمّا أنْ لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين ، وإمّا أنْ يقع مراد إحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون مَن لم يقع مراده من غير وجهِ منعِ معقولِ قادراً ، فإذاً لا يجوز أنْ يكون الإله إلاّ واحداً))[4] .

ويلحظ أنّ التعبير الافتراضيّ قد أستعمل (إلاّ) الاستثنائيّة ، وهي هنا ((بمعنى غير على أنّها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ما قبلها لما بعدها وإفضائه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذٍ على أنّ الفساد لكونهما فيهما بدونه تعالى))[5]. والفساد في قوله (لفسدتا) معناه : ((خروج الشيء من الاعتدال ، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ... ويستعمل ذلك في النفس ،

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير 17 / 39 .

[2] ينظر: مجمع البيان 7 / 121 ، ومفاتيح الغيب 22 / 127 ، والبحر المحيط 7 / 419،وإرشاد العقل السليم 6 / 61 ، وروح المعاني 17 / 32 – 35 ، والميزان 14 / 286 ، والتحرير والتنوير 17 / 31 .

[3] ينظر: مجمع البيان 7 / 127 .

[4] المصدر نفسه 7 / 121 .

[5] إرشاد العقل السليم 6 / 61 ، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل / 88 ، وتفسير شبّر / 323 .

والبدن ، والأشياء الخارجة عن الاستقامة))[1]. وهي هنا للدلالة على أنّ الفساد المفترض ((سواء توافقا أم تخالفا أمّا الثاني فظاهر ، وأمّا الأوّل فلأنّ تأثير كلّ منهما فيه يمنع تأثير الآخر فيه مرّة أخرى لاستحالته))[2] . وجاء قوله (فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون) بياناً لـ ((أكمل تنزيه عن أنْ يكون من دونه تعالى آلهة كما يزعمون فالفاء لترتيب ما بعده على ما قبلها من ثبوت الوحدانيّة ، وإبراز الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم فإنّ الألوهيّة مناط لجميع صفات الكمال التي من جملتها تنزّهه تعالى عن الشركة ولتربية المهابة وإدخال الروعة . والوصف بربّ العرش لتأكيد التنزّه))[3] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾[هود 35] .

فقد جاءت الآية الكريمة معطيةً معنى الافتراض[4]. وقد جاء الافتراض مبدوءاً بـ (قل) الدالّة على التلقين ثُمّ جاء الفرض بـ (إنْ) الدالّة على الشك في حصول الفعل ، ولعلّ في مجيء الفعل بالزمن الماضي دلالةً على عدم تحقّقه ، والافتراء من الفري وهو ((قطع الجلد للخرز والإصلاح ، والإفراء للإفساد والافتراء فيهما ، وفي الإفساد أكثر ، وكذلك آستعمل في القرآن في الكذب والشرك والظلم))[5] . وفي آستعمال تعبير (الافتراء) للكذب دلالة التجسيم* له . وقوله (فعليّ إجرامي) جواب شرط ، ولعلّ في تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ دلالةً على تخصيص العقوبة به ، وقوله (إجرامي) من الجرم وأصله ((قطع الثمرة عن الشجر... وآستعير ذلك لكلّ

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن / 636 (فسر) .

[2] تفسير شبّر / 323 .

[3] روح المعاني 17 / 38 .

[4] ينظر:إرشاد العقل السليم 4 / 205 ، وروح المعاني 12 / 344 ، والتحرير والتنوير 11 / 253 – 254 .

[5] مفردات ألفاظ القرآن / 634 (فري) .

* هو تجسيم المعنويات لا على وجه التشبيه والتمثيل ، بل على وجه التصيير والتحويل . ينظر : التصوير الفنيّ في القرآن / 68 .

مكروه))[1] . وفي الجواب بالجملة الاسميّة إثبات للجرم إنْ حصل الافتراء ، وهو مفروض ((بالفرض البحت))[2]. وفي إيثار آستعمال (إجرامي) على (آفترائي) ((إشارة إلى أنّ هذا الافتراء إثم عظيم يعاقب فاعله أنكر عقاب))[3] وقوله (وأنا بريء ممّا تجرمون) ((إثبات إجرامٍ مستمرّ لهم وقد أرسل إرسال المسلّمات))[4]، وما في قوله (ممّا تجرمون) إمّا أنْ تكون مصدريّة[5]، فيكون المصدر المؤوّل (ما تجرمون) مقابلاً لقوله (إجرامي) ، وإمّا أنْ تكون (ما) موصولة ، وبذلك فالجملة الفعليّة تجعل الكلام في شأن النبيّ ﷺ ، ويكون معناه ((بل أيقول مشركو مكّة آفترى رسول الله ﷺ خبر نوح ، فكأنّه إنّما جيء به في تضاعيف القصّة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقّيتها وتأكيداً لوقوعها وتشويقاً للسامعين إلى آستماعها))[6]. ورأى الطباطبائيّ الطباطبائيّ أنّ الآية الكريمة ((واقعة موقع الاعتراض ، والنكتة فيه أنّ دعوة نوح وآحتجاجاته على وثنيّة قومه ، وخاصّةً ما أورده الله تعالى في هذه السورة من آحتجاجه أشبه شيء بدعوة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وآحتجاجه على وثنيّة أمّته))[7] .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء 29] .

فقد جاءت الآية دالّة على الافتراض[8]. فتعبير الآية قد آفترض الأمر المحال ، وهو أنّ مِن الملائكة[9] مَن يزعم أنّه إله من دون الله عزّ وجلّ ، ورأى بعض العلماء أنّ المقصود هنا ، هو

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن / 192 (جرم) .

[2] إرشاد العقل السليم 4 / 205 ، وروح المعاني 12 / 344 .

[3] التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الحكيم 2 / 107 .

[4] الميزان 10 / 269 .

[5] ينظر: روح المعاني 12 / 344 .

[6] إرشاد العقل السليم 4 / 205 .

[7] الميزان 10 / 269 .

[8] ينظر: الكشّاف 3 / 110 ، وإرشاد العقل السليم 6 / 64 ، وتفسير شبّر / 324 ، وروح المعاني 17 / 45 .

[9] ينظر : أنوار التنزيل 4 / 90 ، وإرشاد العقل السليم 6 / 64 ،وروح المعاني 17 / 45 .

إبليس[1] أو الخلائق[2] ، ويبدو أنّ الرأي الأول هو الأقرب للمعنى ، إذ إنّ سياق الكلام قبله يقتضي يقتضي ذلك، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء 26 – 28]. وقد جاء الافتراض باستعمال (مَنْ) الشرطيّة المتبوعة بالفعل المضارع (يقل) للدلالة على عدم تحقّقه إذ إنّ الكلام جاء ((على سبيل الفرض والتمثيل مع إحاطة علمه بأنّه لا يكون))[3]. واستعمال (مَنْ) بدلاً من (إنْ) ((للدلالة على العموم مع الإيجاز))[4]. ولعلّ في قوله (إنّي إله من دونه) دلالة على أنّ الدعوى المفترضة هي دعوًى لاحقة لوجود الإله القديم بدليل قوله (من دونه) . ومعنى قوله (فذلك) أي ((الذي فُرض قوله فرض محال))[5] . ولعلّ في التعبير باسم الإشارة الدالّ على البعد دلالة على التحقير ، وأنّ ذلك القائل سيكون مبعداً من رحمة الله تعالى . وقوله (كذلك نجزي الظالمين) ((مصدرتشبيهيّ مؤكّد لمضمون ما قبله أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها ويتعدّون أطوارهم ، والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أي لا جزاء أنقص منه))[6].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[الزمر 4] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّة على الافتراض[7] . وهو فرض محال فـ ((لو أراد اتّخاذ الولد لامتنع ولم يصحّ ، لكونه محالاً ، ولم يتأتَ إلاّ أنْ يصطفي من خلقه بعضهم ويختصّهم ويقرّبهم ...

---

[1] ينظر : التبيان في تفسير القرآن 7 / 198 .

[2] ينظر : أنوار التنزيل 4 / 90 .

[3] الكشّاف 3 / 110 .

[4] التحرير والتنوير 17 / 39 .

[5] إرشاد العقل السليم 6 / 64 .

[6] إرشاد العقل السليم 6 / 64 ، وروح المعاني 17 / 46 .

[7] ينظر:إرشاد العقل السليم 7 / 242 ، وفي ظلال القرآن 5 / 3037 .

[أي] لم يزد على ما فعل من ٱصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة ، إلاّ أنّكم لجهلكم به حسبتم ٱصطفاءهم ٱتّخاذهم أولاداً))[1]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً (لو) الدالّة على الامتناع ، ومتبوعة بالفعل الماضي (أراد) دلالة على عدم تحقّق الفعل ، والتعبير بقوله (يتّخذ) للدلالة على أنّ الاتّخاذ يشمل الاتّخاذ بالولادة أو بالتبنّي[2] . وجاء التعبير بقوله (ولداً) ولم يقل (إبناً) لأنّ ؛ ((الولد يقتضي الولادة ولا يقتضيها الابن ، والابن يقتضي أباً والولد يقتضي والداً ، ولا يُسمّى الإنسان والداً إلاّ إذا صار له ولد وليس هو مثل الأب لأنّهما يقولون في التكنية : أبو فلان وإن لم يلد فلاناً ، ولا يقولون في هذا والد فلان))[3] . وقوله (لاصطفى) جواب شرط (لو) وقد جاء الجواب بغير لفظ الشرط ؛ لأنّه لو كان موافقاً للشرط لقال (لاتّخذ) ، وذلك لأنّ ؛ ((اتّخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتّخِذ والمتّخَذ ، وإنّ المخلوق لا يماثل خالقه حتّى يمكن ٱتّخاذه ولداً فما فرضناه ٱتّخاذ ولد لم يكن ٱتّخاذ ولد، بل ٱصطفاء عبد وإليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتّخاذ الذي تقتضيه الشرطيّة تنبيهاً على ٱستحالة مقدّمها لاستلزام فرض وقوعه، بل فرض أراد وقوعه ٱنتفاءه أي لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ ولداً لفعل شيئاً ليس هو من ٱتّخاذ الولد في شيء أصلاً، بل إنّما هو ٱصطفاء عبد ولا ريب في أنّ ما يستلزم فرض وقوعه ٱنتفاءه فهو ممتنع قطعاً))[4] . وقُدّر وقُدّر قوله (ممّا يخلق) بـ ((من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه))[5] . وفي قوله (ما يشاء يشاء) دلالة على ((ما يتعلّق به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه ممّا يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقاً له))[6]. وقد أكّد التعبير هذه الإحالة وقرّرها بقوله الدالّ على التنزيه (سبحانه) ، إذ هو ((تقرير لما ذكر من ٱستحالة ٱتّخاذ الولد في حقّه تعالى وتأكيد له ببيان تنزّهه سبحانه عنه))[7] . ثُمّ

---

[1] الكشّاف 4 / 108 .

[2] ينظر: التحرير والتنوير 25 / 225 – 227 .

[3] الفروق اللغويّة / 315 – 316 .

[4] إرشاد العقل السليم 7 / 242 .

[5] المصدر نفسه 7 / 242 .

[6] الميزان 17 / 103 .

[7] روح المعاني 23 / 313 .

جاء التعبير بوصفين عظيمين لله تعالى ، فهو الواحد القهّار ، وهاتين الصفتين ((بيان لاستحالة الشرط ، وهو إرادة ٱتّخاذ الولد ليترتّب عليه ٱستحالة الجزاء ، وهو ٱصطفاء ما يشاء ممّا يخلق وذلك لأنّه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء ولا يماثله فيها أحد))[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] .

فقد دلّت الآية الكريمة على الافتراض[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية بالفرض المحال حصوله ، وهو إشراك النبيّ ﷺ ((والمحالات يصحّ فرضها لأغراض))[3]. فالفرض وإنْ وإنْ كان الخطاب فيه موجّهاً للنبيّ عليه السلام ((فهو محمول على إرادة الأمّة لعصمة النبيّ ﷺ ، وإنّما المراد مَن يمكن أنْ يقع ذلك منه))[4]. وقد جاء التعبير بـ ((إفراد الخطاب بإعتبار كلّ واحد))[5].))[5]. وقد جاء التعبير مستعملاً الأداة (لئن) المتكوّنة من اللام الموطئة للقسم ، و(إنْ) الشرطيّة الدالّة على الشك في حصول الفعل . وقد جاء الفعل (أشركت) بالزمن الماضي دلالةً على عدم تحقّقه ، وهذا ــ فيما يبدو ــ يتناسب مع الفرض المحال . وقوله (ليحبطنّ عملك) جواب للقسم المدلول عليه باللام الموطئة له ، وقد سدّ مسدّ جواب الشرط . وقوله (يحبطنّ) من الحبط ، وقد ورد فيه على سبيل التشخيص[6] للأعمال ، ((وإطلاق الإحباط يحتمل أنْ يكون من خصائصهم لأنّ شركهم أقبح ، وأنْ يكون على التقييد بالموت))[7]. وقوله (ولتكوننّ من الخاسرين) معطوف

---

[1] الميزان 17 / 103 .

[2] ينظر: الكشّاف 4 / 137،وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 76 ، والبحر المحيط 9 / 219، وإرشاد العقل السليم7 / 262 ،وتفسير شبّر / 465 ، وروح المعاني 24 / 380 .

[3] الكشّاف 4 / 137 .

[4] الجواهر الحسان 5 / 99 .

[5] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 76 ، وإرشاد العقل السليم 7 / 262 .

[6] ينظر: التصوير الفنّي / 63 .

[7] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 77 ،وإرشاد العقل السليم 7 / 262 .

على سابقه ، فقد عطف الخسران على الإحباط ، وهو من باب ((عطف المسبَّب على السبب))[1]. والآية الكريمة احتوت على أكثر من توكيد لخطر الأمر الذي تتناوله ، فقد أكّد باللام ، وقد ، والقسم ، واللام الموطئة للقسم ، واللام في جواب القسم ، ونون التوكيد في موضعين من الفعلين (يحبط) و(تكون) .

3- الافتراض الزمانيّ :

الزمان لغةً :

الزمن والزمان : ٱسم لقليل الوقت وكثيره ، والزمن والزمان العصر ، والجمع أزمن ، وأزمان ، وأزمنة . والزمان يختلف عن الدهر ، فالزمان زمان الرطب والفاكهة ، وزمان الحرّ والبرد ، وقد يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر ، والدهر لا ينقطع . وقد يقع الدهر عند العرب على وقت الزمان من الأزمنة ، وعلى مُدّة الدنيا كلّها[2] . ويوصف الزمن بالسرمد ، وهو الدائم الذي لا ينقطع ، وهو ما لا أوّل له ولا آخر ، وله طرفان : أحدهما دوام الوجود في الماضي ويسمّى أزلاً ، والآخر دوام الوجود في المستقبل ويسمّى أبداً[3] .

وقد فرّق الدكتور تمّام حسّان من المحدثين بين الزمن والزمان ، بقوله : ((وأوضح ما يفرّق بين الزمن والزمان أنّ الزمان كمّية رياضيّة من كمّيات التوقيت تقاس بأطوال معيّنة كالثواني والدقائق والساعات والليل والنهار والأيام والشهور والسنين والقرون والدهور والحقب والعصور ، فلا يدخل في تحديد معنى الصيغ المفردة ولا في تحديد معنى الصيغ في السياق ، ولا يرتبط بالحدث كما يرتبط الزمن النحويّ إذ يعتبر الزمن النحويّ جزءاً من معنى الفعل))[4]. إنّ علماء اللغة

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل5 / 77 ، وإرشاد العقل السليم 7 / 262 .

[2] ينظر: مختار الصحاح / 275 ، ولسان العرب 3 / 202 ، وتاج العروس 35 / 151 – 153(زمن) .

[3] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 408 ، والمعجم الفلسفيّ 1 / 654 (سرمد) .

[4] اللغة العربية معناها ومبناها،تمّام حسان / 242 ، وينظر: الزمان الدلالي، دراسة لغويّة لمفهوم الزمن وألفاظه في الثقافة العربية،كريم زكي حسام الدين / 120 .

القدماء والمحدثين لم يأتوا على ذكر هذا التفريق ، كما أنّ استعمال العرب لهاتين اللفظتين كان بمعنًى واحد ، وخير مثال على ذلك ،قول المتنبّي :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم[1] .

أو قوله :

أريد من زمني ذا أنْ يُبلّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن[2] .

ثمّ إنّ الدكتور تمّام حسّان فرّق بين الزمان والزمن النحويّ ، أي : خصّص الزمن بالنحويّ . حينما يرتبط بالحدث . فضلاً عن الزمن الصرفيّ الذي له أثر في تحديد معنى الصيغ المفردة .

الزمان اصطلاحاً :

ذكر الجرجانيّ الزمان في تعريفاته ، ورأى أنّ الزمان عند الحكماء ((مقدار حركة الفلك الأطلس))[3]. أمّا عند المتكلّمين فقد رأى أنّ الزمان ((عبارة عن متجدّد معلوم يقدّر به متجدّد آخر موهوم ، كما يقال : آتيك عند طلوع الشمس ، فإنّ طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم ، فإذا قُرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإيهام))[4].

والزمان في عُرف الفلاسفة أمر آعتباريّ موهوم ، وهو إمّا ماضٍ أو مستقبل وليس عندهم زمان حاضر ، بل الحاضر هو الآن الموهوم المشترك بين الماضي والمستقبل[5] .

أمّا الزمان النحويّ ، فهو ظرف الزمان ، وهو أحد قسمي المفعول فيه ، وسمّي المفعول فيه ؛ لأنّه منصوب على معنى (في) ، أي : في زمان . ويعرّفه علماء النحو : ما ذكر فضلة لأجل أمر

---

[1] شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقيّ 4 /296 .

[2] شرح ديوان المتنبّي 4 / 364 .

[3] التعريفات / 94 .

[4] المصدر نفسه / 94 .

[5] ينظر: المعجم الفلسفيّ 1 / 636 (زمان) .

وقع فيه من زمان مطلقاً أو مقدّراً . ويكون مبهماً ، ومختصّاً ، فالمبهم ، كقولنا : صمت يوماً ، والمختص ، كقولنا : صمت يوم الخميس[1] .

ولم ترد كلمة (زمان) أو (زمن) أو مشتقّاتها في القرآن الكريم . وقد ورد في التعبير القرآنيّ ٱستعمال ألفاظ تدلّ على الزمان ، منها ما يدلّ على الزمان المبهم[2] ، ومنها ما يدلّ على الزمان المحدّد[3]. فمن الألفاظ التي تدلّ على الزمان المبهم (الدهر ، الأبد ، السرمد ، الوقت ، الحين ، العهد ، الحقبة ، العصر ، المدّة ، الملاوة* ، الفترة ، العمر ، الأمد ،الأجل ، القرن ،الأمّة) وغيرها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾[الإنسان 1] ، وقوله تعالى :﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ ﴾[المائدة 24] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{37} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[الحجر 36-37] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[طه 86] ، وقوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾[النبأ 23]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[المائدة 19] .

أمّا ألفاظ الزمان المحدّد ، فمنها (السنة ، العام ، الحول ، الحجّة ، الحقبة ، الشتاء ، الصيف ، الشهر ، اليوم ، الغد ، الأمس ، النهار ، الليل ، الساعة ، الفجر ، الضحى ، الصبح ، الغداة ، العشي، البكرة ، الظهيرة ، القائلة ، الأصيل ، العصر ، السحر) وغيرها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾[يوسف 47] ، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾[البقرة 259] ، وقوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة 233] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي

---

[1] ينظر : شرح شذور الذهب / 256 – 257 ،وشرح ابن عقيل 2 / 191 – 201 ، والنحو الوافي 2 / 191 – 193 ، معاني النحو 2 / 153 – 157 .

[2] ينظر: الزمان الدلاليّ / 120 - 133 .

[3] ينظر : الزمان الدلاليّ/ 135 – 178 .

* الملاوة :قدر من الزمان طال أو قصر مثل المدّة والبرهة، بكسر وفتح وضم الميم، ومنه قوله تعالى :﴿وأهجرني مليّاً ﴾ [مريم 46] ، ينظر : الزمان الدلاليّ / 128 .

ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾[القصص 27] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾[الكهف 60] ، فالحقب كما يقول الفرّاء[1] : السنة في لغة قيس . وقوله تعالى : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾[سبأ 18] .

الزمان الافتراضيّ :

ويمكن أنْ يحدّ بأنّه ((الزمن الذي يفترضه الذهن وليس له وجود خارجي أو واقع محسوس))[2].ولقد أشار القرآن الكريم بإمكانيّة حدوث مثل هذا الزمن الافتراضيّ بقدرة الله المطلقة ، كقوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[القصص 71 ــ 72] . فالنهار السرمديّ أو الليل السرمديّ يُمثّلان زمناً ٱفتراضيّاً ، قد يحدث بقدرة الله تعالى إذا توقّفت الأرض عن الحركة . فالقدرة المطلقة للخالق عزّ وجلّ هي فقط التي بإمكانها إيجاد مثل هذا الحال المفترض للنهار الدائم أو الليل الدائم ، وذلك بالأمر الإلهي (كنْ فيكون) . وكلمة (الآن) في الأمر الإلهي (أمر الكينونة والوجود) ، وهو ما يلحظ في قوله تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر 68] . فهذه اللحظة الزمنيّة التي يفترضها الذهن واقعة بين الأمر والكينونة . وقد وصفت آية كريمة هذه اللحظة ، فجعلتها لا تكاد تكون موجودة ، وهي في قوله تعالى :﴿ وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[النحل 77] . فلحظة النهاية الزمنيّة التي يأبى العقل إلاّ أنْ يفترض وجودها ، بين الأمر والفناء ، والأمر الإلهي في الكينونة أو الفناء هو آنٌ ٱفتراضيّ لا وجود له إلاّ في الذهن البشريّ ، لأنّ الله تعالى لا يأمر شيئاً إلاّ

---

[1] ينظر: معاني القرآن : الفرّاء 2 / 75 ، وينظر: الزمان الدلالي / 139 . وقد نسب إلى الفرّاء أنّ الحقب لغة قريش .

[2] الزمن بين العلم والقرآن : د / منصور محمّد حسب النبيّ . بحث منشور على الأنترنيت . (quran-m.com)، وينظر الزمن الإفتراضيّ في القرآن الكريم :بحث منشور على الأنترنيت (ushaaqallah.com/category/135).

وهو موجود ، ولا يكون الشيء موجوداً إلاّ وهو مأمور بالوجود . فالقضاء الإلهيّ لا يقدر بزمن أي لا يوجد وقت بين الأمر والكينونة أو بين الأمر والفناء ، إذ إنّه مجرّد ٱفتراض ذهنيّ فقط ليس له حقيقة موضوعيّة [1] .

ومن الأمثلة الافتراضيّة التي تفترض الزمان في القرآن الكريم ، قوله تعالى :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ{71} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[القصص 71 – 72] .

فقد جاءت الآية الكريمة مبيّنة لعظم القدرة الإلهيّة ، التي تعجز دونها كلّ قدرة ، ولا يبقى أمام مشيئته مستحيل ، فٱفترضت لهؤلاء الكفّار ٱستمراريّة ودوام الليل دون نهار يعقبه ، ثُمّ عكست الأمر ، بنهار دائم دون ليلٍ يتلوه . فالآية الكريمة تبين أنّ الله ((سبحانه هو الجاعل* الأشياء على الحقيقة ، وأضاف إلى نفسه جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة صار الليل كأنّه سرمد بهذا التقدير ، وظرف الليل ظرف مظلم لا ينفذ فيه البصر لا سيّما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره ، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة ، فصار النهار كأنّه معدوم ، إذ جُعل سرمداً منسوباً إليه سبحانه ، فٱقتضت البلاغة أنْ يقول (أفلا تسمعون) لمناسبة ما بين السماع والظرف الليليّ الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار))[2] . ويلحظ أنّ هذا الافتراض لأمر مستقبليّ وكان ٱستعمال (إذا) أولى من ٱستعمال (إنْ) ، ((وإيثار أداة الشرط (إنْ) على (إذا) ؛ لأنّ المشروط فرضي تخييلي غير كائن في وقت من الأوقات))[3] .

إنّ هذا التصوير لليل السرمديّ أو النهار السرمديّ ، هو تصوير ٱفتراضيّ ، أي ((لو فرض تحقّق جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لم يتصوّر معه الإتيان بضياء أصلاً لأنّ الذي يأتي به إمّا

---

[1] ينظر الزمن بين العلم والقرآن .

* في البرهان في علوم القرآن وردت (الجاهل) . وقد تحقّقت من طبعة ثانية بتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميّة ، الطبعة الأولى 1408 هـ -1988 م .

[2] البرهان في علوم القرآن 1 / 71 ، وينظر التعبير القرآنيّ / 225 .

[3] التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الحكيم 3 / 210 .

هو الله تعالى ، وأمّا هو غيره . أمّا غيره فعجزه عن ذلك ظاهر ، وأمّا الله تعالى فإتيانه به يستلزم ٱجتماع الليل والنهار وهو محال ، والمحال لا يتعلّق به القدرة ولا الإرادة ، وكذا الكلام في جانب النهار))[1] . وقد فرضت الآية الكريمة دوام الليل وٱستمراره ،وجاء جواب الشرط طلبيّاً ٱستفهاميّاً ، مستعملاً (مَن) الدالّة على العاقل ، ((وكان حقّه (هل إله) فذكر بـ (مَن) على زعمهم أنّ غيره آلهة))[2] ، وتساءلت عمّنْ يأتي (بضياء) وليس عمّنْ يأتي بـ (نهار) ((وكان مقتضى الظاهر أنْ يقال : مَن إله غير الله يأتيكم بنهار على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكنّ العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار مِن قبيل الإلزام في الحجّة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدّعى الخصم أتمّ الظهور كأنّه قيل : لو كان غيره تعالى إله يُدبّر أمر العالم فإنْ جعل الله الليل سرمداً فليقدر أنْ يأتي بالنهار ، تنزّلنا عن ذلك فليقدر أنْ يأتي بضياء تستضيئون به لكنْ لا قدرة لشيء على ذلك إنّ القدرة كلّها لله سبحانه . ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتّى يصحّ أنْ يقال مثلاً : مَن إله غير الله يأتيكم بظلمة لأنّ المأتي به إنْ كان ظلمة ما ، لم تكفِ ، وإنْ كان ظلمة ممتدّة كانت هي الليل))[3] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾[الكهف 36] .

وقد جاء التعبير في الآية الكريمة مصوّراً لافتراض[4] هذا المغرور بنفسه المدّعي للكرامة ، حتّى يقول ((من المستبعد أنْ تقوم الساعة ولئنْ قامت ورُددت إلى ربّي لأجدنّ بكرامة نفسي ــ ولا يقول :يؤتيني ربّي خيراً من هذه الجنّة منقلباً انقلب إليه. وقد خدعت هذا القائل نفسه فيما ادّعت من الكرامة حتّى أقسم على ما قال ... [فـ] قال :(رُددت) ولم يقل: ردّني ربّي إليه، وقال :لأجدنّ ،

---

[1] الميزان 16 / 204 ، وينظر روح المعاني 20 / 423، وفي ظلال القرآن 5 / 2708 .

[2] أنوار التنزيل 4 / 302 .

[3] الميزان 16 / 204 .

[4] ينظر : الكشاف 2 / 694 ، والبحر المحيط 7 / 176.

ولم يقل : آتاني الله))[1] ، وكأنّه هو الواجد لنفسه والرادّ لها ، وما ذلك إلاّ لعتوّه في الغرور والمكابرة . كما أنّه عبّر بالفعل (رُددت) ولم يقل (رُجعت) ،وذلك ؛ لأنّ معنى الرجع ((أنْ ترجعه من غير كراهة له ... ولا يجوز أنْ تردّه إلاّ إذا كرهت حاله))[2]. وأكّد ٱفتراض ردّه في يوم القيامة ، وما أعدّ له في تلك الساعة باللام ونون التوكيد في قوله (لأجدنّ) الواقع جواباً للقسم المؤكّد . وقوله (خيراً منها) ، أي : خيراً من جنّته في الدنيا[3] . و قوله (منقلباً) ، من ((قلب الشيء : تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه))[4]. وهي هنا بمعنى أنْ تكون ((مرجعاً وعاقبةً لفناء الأولى وبقاء الأخرى على زعمك))[5].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج 4] .

فالآية الكريمة جاءت على سبيل الافتراض[6]. والتعبير الافتراضيّ مفهوم من سياق الآية ودلالة المقابلة بين قوله (في يوم) ، وقوله (كان مقداره خمسين ألف سنة) ، فقد فسّر العلماء هذه المقابلة بأنّ معنى الآية ((تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى ، ويقطعون في يوم من أيّامكم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة لو فرض سيره فيه))[7]. ولعلّ في تنكير قوله (يوم) دلالة على التفخيم والتعجيب . وقوله (مقداره) ، أي ((مقدار الشيء للشيء المقدّر له ، وبه وقتاً كان أو زماناً أو غيرهما))[8]. وفي التقدير لطول هذا اليوم بهذا المقدار ((بيان لغاية ٱرتفاع تلك المعارج

---

[1] الميزان 133/13.

[2] الفروق اللغويّة 130 .

[3] ينظر: إرشاد العقل السليم 5 / 222 ، وروح المعاني 15 / 348 .

[4] مفردات ألفاظ القرآن / 681 (قلب) .

[5] روح المعاني 15 / 348 .

[6] ينظر:إرشاد العقل السليم 9 / 30 ، وروح المعاني 29 / 92 .

[7] روح المعاني 29 / 92 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 30 .

[8] مفردات ألفاظ القرآن / 660 (قدر) .

وبعد مداها على سبيل التمثيل والتخييل ، والمراد أنّها في غاية البعد))[1]. وقد جمعت الآية بين طول اليوم بأحداثه ومرائيه مع طوله في حسّ المحاسبين فيه ، وهو يبين العلو الشاهق الذي تصعد فيه الملائكة إلى ذي العرش الرفيع[2]. ولعلّ بين معنى الافتراض ومعنى التقدير الشيء الكثير من التقارب ، فالتقدير لهذه المسافة ، هو متصوّر غير واقع ، وليس هناك إنسان عاش أو يعيش خمسين ألف سنة يقضيها في السيرمن دون أنْ يقتطع منها ما يقوّم حياته به من مأكل ومشرب وراحة متمثّلة بالنوم .

ومن أمثلة الافتراض الزماني ، قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود 107] .

فقد جاءت الآية الكريمة واصفةً الخلود الأبديّ للكافر يوم القيامة ، رابطة ذلك الخلود ببقاء السماوات والأرض ليستثني الله تعالى بعد ذلك ما كان الأمر فيه متوقّفاً على المشيئة الإلهيّة ، فالاستثناء ((مبنيّ على الفرض والتقدير فمعنى إلاّ ما شاء : إنْ شاء ، أي : لو فرض أنّ الله تعالى شاء إخراجهم من النار أو الجنّة في زمان لكان مستثنىً من مدّة خلودهم لكنّ ذلك لا يقع لدلالة القواطع على عدم وقوعه))[3] . والتعليق للخلود في الجنة والنار ، الذي جعله الله تعالى مرتبطاً بدوام السماوات والأرض ، معلّق أيضاً على ((الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين . وكلّ قرار وكلّ سُنّة معلّقة بمشيئة الله في النهاية ، فمشيئة الله هي التي ٱقتضت السُنّة وليست مقيّدة بها ولا محصورة فيها .إنّما هي طليقة تبدّل هذه السُنة حين يشاء الله ... وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أنّ مشيئة الله ٱقتضت أنْ يكون عطاؤه لهم غير مقطوع حتّى على فرض تبديل إقامتهم في الجنّة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حريّة المشيئة بعدما يوهم التقييد))[4]. وقد وجّه ٱبن قُتيبة هذه الآية أكثر من توجيه ، فقال راداً قولهم : ((ٱستثناؤه المشيئة من الخلود يدلّ على

---

[1] روح المعاني 29 / 92 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 30 .

[2] ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب / 217 .

[3] روح المعاني 12 / 468 .

[4] في ظلال القرآن 4 / 1929 .

الزوال ، وإلاّ فلا معنى للاستثناء))[1]. فقد ذكر في قوله (خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك) أنّ للعرب في معنى (الأبد) ألفاظاً يستعملونها في كلامهم ، يقولون : لا أفعل ذلك ما ٱختلف الليل والنهار ، وما دامت السماوات والأرض ، في أشباه لهذا كثيرة ، يريدون لا أفعله أبداً ؛ لأنّ هذه المعاني عندهم لا تتغير عن أحوالها أبداً ، فخاطبهم الله بما يستعملونه . وللسماء وللأرض وقت يتغيّران فيه عن هيأتهما يقول الله تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾[إبراهيم 48] . أراد أنّهم خالدون فيها مدّة العالم ، سوى ما شاء الله أنْ يزيدهم من الخلود على مدّة العالم . ثُمّ قال :﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود 108] أي : غير مقطوع . و(إلاّ) في هذا الموضع بمعنى (سوى) ومثله من الكلام : لأسكننّ في هذه الدار حولاً إلاّ ما شئت . تريد : سوى ما شئت أنْ أزيد على الحول . هذا وجه . وفيه قول آخر : وهو أنْ يجعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد . على ما تعرف العرب وتستعمل وإنْ كانتا قد تتغيّران ، وتستثنى المشيئة من دوامهما ، فكأنّه قال : خالدين في الجنّة وخالدين في النار دوام السماء والأرض إلاّ ما شاء ربّك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك . وفيه وجه ثالث : وهو أنْ يكون الاستثناء من الخلود مُكث أهل الذنوب من المسلمين في النار حتّى تلحقهم رحمة الله ، وشفاعة رسوله [2] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[الأنعام 28] .

فقد وردت الآية على سبيل الافتراض[3] . وهذا التعبير الافتراضيّ يصف طبع الكفّار وما جُبلوا عليه ، فهم يطلبون الردّ للدنيا لكي يكونوا مؤمنين ، وذلك في قوله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنعام 27] ، وهؤلاء الكفّار ((لو عادوا إلى الدنيا لزمهم حكم النشأة ، وأسدلت عليهم حجب الغيب ، ورجعوا إلى ٱختيارهم ، ومعه هوى النفس ووسوسة الشيطان وقرائح العباد والاستكبار والطغيان فعادوا إلى

---

[1] تأويل مشكل القرآن / 26 .

[2] ينظر : تأويل مشكل القرآن / 53 .

[3] ينظر: الميزان 7 / 27 .

سابق شركهم وعنادهم مع الحقّ فإنّ الذي دعاهم ، وهم في الدنيا إلى مخالفة الحقّ والتكذيب بآيات الله تعالى هو على حال فرض ردّهم إلى الدنيا بعد البعث ، فحكمه حكمه من غير فرق))[1]. أي : إنّ هؤلاء الكفّار لو رُدوا من موقفهم في يوم القيامة ، لعادوا إلى ما نُهوا عنه من الكفر والتكذيب ، ((ووجه اللزوم في هذه الشرطيّة سبق قضاء الله تعالى عليهم بذلك التابع لخبث طينتهم ونجاسة جبلتهم ، وسوء استعدادهم ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه))[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بـ (لو) الفرضيّة التي تعطي دلالة الامتناع ، وقد جاء الفعل بعدها مبنيّاً للمجهول ، وقد يكون في ذلك دلالة على عدم آمتلاكهم لحرية التصرّف[3] ، وآستعمال الفعل (ردّ) بدل (رجع) جاء ليدلّ على أنّه ؛ ((لا يجوز أنْ تردّه إلاّ إذا كرهت حاله))[4]. وجاء قوله (لعادوا) جواب شرط ، والعود ((الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة))[5]. ثُمّ أكّد بطلان زعمهم الإيمان والعمل الصالح عند ردّهم بقوله (وإنّهم لكاذبون) حيث أكّده بـ (إنّ) المؤكّدة الداخلة على الجملة الاسميّة ، ثُمّ زاد في التوكيد باللام المزحلقة الداخلة على الخبر .

---

[1] الميزان7 / 27 .

[2] روح المعاني 7 / 167 ، وينظر: مجمع البيان 4 / 50 .

[3] ينظر: الطبيعة في القرآن الكريم / 483 .

[4] الفروق اللغويّة / 130 .

[5] مفردات ألفاظ القرآن / 593 (عود) .

4-الافتراض المكانيّ :

المكان لغةً :

المكان والمكانة واحد ، والمكان في أصل تقدير الفعل (مَفْعَل) ؛ لأنّه موضع لكينونة الفعل فيه ،غير أنّه لمّا كثُر أجروه في التصريف مجرى (فَعَال) ، فقالوا : مكنّا له وقد تمكّن . والمكان الموضع ، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة ، وأماكن جمع الجمع[1] .

المكان اصطلاحاً :

وهو((السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوّى))[2].
أمّا عند المتكلّمين فهو ((الفراغ المتوهّم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده))[3]. ثمّ ذكر المكان واصفاً له مرّةً بالمبهم ، وأخرى بالمعيّن ، وقد عرّف المبهم بأنّه ((عبارة عن مكان له ٱسم نسمّيه به ، بسبب أمر غير داخل في مسمّاه ، كالخلف ، فإنّ تسمية ذلك المكان بالخلف إنّما هو بسبب كون الخلف في جهة ، وهو غير داخل في مسمّاه))[4]. أمّا المكان المعيّن ، فهو ((عبارة عن مكان له ٱسم سُمّي به ، بسبب أمر داخل في مسمّاه ، كالدار ، فإنّ تسميته بها بسبب الحائط والسقف وغيرهما وكلّها داخلة في مسمّاه))[5] .

أمّا المكان النحويّ ، فهو ظرف المكان ، وهو أحد قسمي المفعول فيه ، وهو ما ذكر فضلة لأجل أمر وقع فيه ، وقد قسّمه بعض العلماء ثلاثة أقسام ، هي : المبهم ، نحو (فوق - تحت)

---

[1] ينظر: لسان العرب 6 / 83 ،وتاج العروس 36 / 187 ــ 192 (مكن) ، وينظر : النحو الوافي 4 / 479 ، 509 ، وشذا العرف / 74 ، 85 .

[2] التعريفات / 184 .

[3] المصدر نفسه / 184 .

[4] المصدر نفسه / 184 ــ 185 .

[5] المصدر نفسه / 184 ــ 185 .

، ما دلّ على مساحة معلومة من الأرض ، نحو (فرسخ – ميل) ، اسم المكان المشتق من المصدر ، نحو : جلست مجلس زيد[1] .

المكان في القرآن الكريم :

من اللافت للنظر أنّ الراغب الأصفهانيّ جعل (مكان) ، و(التمكين) من مادة واحدة هي مادة (مكن)[2]، على الرغم ممّا بينهما من ٱختلاف في المعنى . وقد وردت كلمة (مكان) في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحجّ 31] ، وقوله تعلى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[فُصلّت 44] . وقد أعطت كلمة (مكان) معاني أخر ، فقد جاءت بمعنى (بدل) كقوله تعالى :﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾[الأ عراف 95] . فـ ((معنى كونها في مكانها أنّها بدل منها))[3]. وقوله تعالى : ﴿وإذا بدّلنا آية مكان آية ﴾[النحل 101] . فمعنى مكان هنا : ((إذا نزّلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها))[4] . وجاءت لفظة (مكانة) في القرآن ، وكانت بمعنى الاستطاعة أو الحال[5] ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾[الأنعام 135] ، وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾[هود 121] ، حيث فُسّرت (مكانتكم) بـ جهتكم وحالكم [6] . وقد وردت ألفاظ كثيرة في القرآن تدلّ على المكان الدنيويّ ، منها ما هو مبهم غير محدّد[7] مثل (جبل ، بيت ، قرية) وغيرها ، ومنها ما هو معيّن أو أو محدّد ، مثل (مكّة ، يثرب ، مصر ، الوادي المقدّس ، سبأ ، عاد ، ثمود ، الحِجْر ، مَدْين) وغيرها . ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ

---

[1] ينظر : شرح شذور الذهب / 256 – 257 ، وشرح ابن عقيل 2 / 191 – 201 ، والنحو الوافي 2 / 191 – 193 ، ومعاني النحو 2 / 153 – 157 .

[2] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 772 ــ 773 (مكن) .

[3] روح المعاني 9 / 15 .

[4] المصدر نفسه 14 / 628 .

[5] ينظر: المصدر نفسه 8 / 381 .

[6] ينظر: روح المعاني 12 / 496 .

[7] ينظر: الزمان والمكان في القرآن الكريم : عدنان أبو شعر : بحث منشور على الأنترنيت .(wata .cc) .

خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] ، أو قوله تعالى : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾[الإسراء 93] ، أو قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[يوسف 21] ، أو قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾[الفتح 24] . ووردت ألفاظ تدلّ على المكان في الآخرة ، مثل (الجنّة ، جهنّم ، الأعراف) وغيرها . كقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾[الأعراف 46] .

والافتراض المكاني ، هو ٱفتراض ((يرتكز على مكان يحدّده السياق ، ويفترضه الذهن ٱفتراضاً ، ويحكم العقل بوقوعه أو عدم إمكانيّة ذلك))[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴾[الأحزاب 14] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّة على الافتراض[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ بالأداة (لو) ومتبوعة بالفعل الماضي للدلالة على عدم تحقّق الفرض ، والتاء في قوله (دُخلتْ) إمّا للمدينة أو لبيوتهم[3] . وقوله (عليهم) أي : على هؤلاء القائلين في الآية السابقة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾[الأحزاب 13] .((وأسند الدخول إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أنّ المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقاً كما هو المفهوم لو أسند إلى الجار والمجرور))[4] . وقوله (من أقطارها) أي ((من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض ، فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلّة بالكلّية))[5] . والأقطار جمع مفرده قطر ،

---

[1] الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم / 6 .

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 7 / 95 ، وروح المعاني 21 / 215 ، والتحرير والتنوير 21 / 211 .

[3] ينظر: الكشّاف 3 / 512 ، ومجمع البيان 8 / 205 .

[4] روح المعاني 21 / 215 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 7 / 95 .

[5] إرشاد العقل السليم 7 / 95 .

وهو الجانب[1] . وقوله (ثمّ سئلوا الفتنة) أي طلب منهم ((الردّة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين))[2]، أو إنّ الفتنة هي الشرك[3] فقط أو ((الردّة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة))[4] أو القتال[5] . وقوله (لأتوها) أي لأعطوها[6] ، وفي الآية تجسيم[7] للفتنة للفتنة ((كأنّه شبّه الفتنة المطلوب إتّباعهم فيها بأمر نفيس يطلب منهم بذله))[8] . والمعنى في قوله ((وما تلبّثوا بها) ، فاللبث معناه الإقامة[9] ، وفي التعبير عن اللبث بوزن (تفعّل) دلالة التكلّف[10] التكلّف[10] ، وقد نفى عنهم عناء تكلّف اللبث. والهاء في (بها) عائدة على الفتنة[11] . وفي التعبير بقوله (إلاّ يسيراً) أي : إلاّ تلبّثاً يسيراً أو إلاّ زماناً يسيراً[12]. وهو ((مقدار ما يأخذون فيه سلاحهم ... [أو] مقدار ما يجيبون السؤال فيه ، وكلاهما ... من باب التمثيل))[13] . ولعلّ في حذف المفعول المطلق (تلبّثاً) وإقامة الصفة (يسيراً) بدلاً عنه دلالة على قصر المدّة التي يُقيمون فيها في إعطاء الفتنة فضلاً عن أنّ قرينة السياق تدلّ على المصدر المحذوف .

---

[1] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 677 (قطر) .

[2] الكشّاف 3 / 513 .

[3] ينظر: مجمع البيان 8 / 205 .

[4] إرشاد العقل السليم 7 / 95 .

[5] ينظر: روح المعاني 21 / 215 .

[6] ينظر: الكشّاف 3 / 513 ،وإرشاد العقل السليم 7 / 95، وروح المعاني 21 / 215 .

[7] ينظر: التصوير الفنّي / 63 .

[8] روح المعاني 21 / 215 .

[9] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 733 ــ 734 (لبث) .

[10] ينظر : شذا العرف / 25 .

[11] ينظر: إرشاد العقل السليم 7 / 95 ، وروح المعاني 21 / 215 .

[12] ينظر: روح المعاني 21 / 215 .

[13] روح المعاني 21 / 215 .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران 154] .

فقد جاءت الآية الكريمة معطيةً معنى الافتراض[1] . وقد جاء الافتراض مبدوءاً بفعل ال (قل) ، وفيه دلالة كون الكلام موحًى من الله تعالى لنبيّه ردّاً على قولهم في بداية الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾[آل عمران 154] . وجاء التعبير الافتراضيّ بالأداة (لو) الدالّة على الشرط ، وجاء الفعل بعدها ماضياً دلالة على عدم تحقّقه ، والمعنى في قوله (في بيوتكم) وهو ٱفتراض لوجود هؤلاء القائلين في بيوتهم فالبيت أكثر الأماكن أماناً للإنسان من الخطر . والتعبير في قوله (لبرز الذين كُتب عليهم القتل) ، فمعنى (برز) من ((المبارزة للقتال ، وهي الظهور من الصفّ))[2]. ولعلّ قوله (القتل) بدل الموت فيه دلالة على تخصيصه بالمعركة الدائرة لا لأسباب الموت الأخرى . وأمّا قوله (إلى مضاجعهم) فيحتمل الحقيقة والمجاز ، إذ ((المضاجع جمع مضجع ، فإنْ كان بمعنى المرقد فهو ٱستعارة للمصرع ، وإنْ كان بمعنى محلّ ٱمتداد البدن مطلقاً للحيّ والميّت فهو حقيقة))[3] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾[النساء 78] .

جاءت الآية الكريمة ردّاً على فريق من المسلمين ، وكانوا قد تقاعسوا عن الخروج للقتال ، وطلبوا تأجيل القتال لهم مُدّة من الزمن ، خوفاً من الموت . فكانت هذه الآية داحضة لطلبهم ، ومفنّدة لأهوائهم . إذ هي تهوّل أمر الموت وإطالته لمَن قد كتبه الله عليه ، فلا ينفعه اللجوء إلى

---

[1] ينظر: إرشاد العقل السليم 2 / 102 ، وروح المعاني 4 / 422 .

[2] مفردات ألفاظ القرآن / 118 (برز) .

[3] روح المعاني 4 / 421 .

قصور مرتفعة ، ((والكلام موضوع على التمثيل بذكر بعض ما يتّقى به المكروه ، وجعله مثلاً لكلّ ركن شديد تتقي به المكاره ، ومحصّل المعنى : أنّ الموت أمر لا يفوتكم إدراكه ، ولو لجأتم منه إلى أيّ ملجأ محكم متين فلا ينبغي لكم أنْ تتوهّموا أنّكم لو لم تشهدوا القتال ولم يكتب لكم كنتم في مأمن من الموت وفاته إدراككم فإنّ أجل الله لآت))[1] . فالموت نتيجة حتميّة لكلّ نفس ، وليس له علاقة بالحرب والسلم ولا بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد [2] .وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (ولو كنتم في بروج مشيّدة) حيث جاء باستعمال (لو) متبوعة بالفعل (كنتم) للدلالة على عدم تحقّق الوقوع ، وقوله (بروج) أي : قصور ، الواحد برج[3] ، وهي في الآية ((يصحّ أنْ يراد بها بروج في الأرض ، وأنْ يراد بها بروج النجم ، ويكون ٱستعمال لفظ المشيّدة فيها على سبيل الاستعارة))[4] ، وقوله (مشيّدة) أي ((مبنيّ بالشيد . وقيل : مُطوّل ، وهو يرجع إلى الأوّل . ويقال : شيّد قواعده : أحكمها ، كأنّه بناها بالشيد))[5]. وجواب (لو) محذوف ((ٱعتماداً على دلالة ما قبله عليه ، أي : ولو كنتم في بروج مشيّدة يدرككم الموت ، والجملة معطوفة على أخرى مثلها ، أي : لو لم تكونوا في بروج مشيّدة ولو كنتم ... وقد ٱطّرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع فلأنْ يتحقّق عند عدمه أولى ، وعلى هذه النكتة يدور ما في لو الوصليّة من التأكيد والمبالغة))[6] . ورأى الدكتور فاضل السامرّائيّ أنّ ٱستعمال (لو) للشرط بعيد الوقوع ، وقد ٱستعملها في الآية ؛ لأنّ قُصارى ما يستطيع الإنسان ؛ لحفظ نفسه ، أنْ يكون في برج مشيّد فجاء بـ (لو) الدالّة على البعد [7] .

---

[1] الميزان 5 / 6 .

[2] ينظر : في ظلال القرآن 2 / 716 ــ 717 .

[3] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 115 (برج) .

[4] المصدر نفسه / 115 (برج) .

[5] مفردات ألفاظ القرآن / 469 (شيد) .

[6] إرشاد العقل السليم 2 / 204 – 205 .

[7] ينظر : معاني النحو 4 / 77 ـ 78 .

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي تفترض المكان قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾[الأحزاب 20] .

فقد جاءت الآية دالّة على الافتراض[1]، وقد جاء التعبير مبدوءاً بقوله (وإنْ يأت الأحزاب) حيث أستعمل الأداة الشرطيّة (إنْ) الدالّة على الشك ، والفعل بعدها جاء مضارعاً دالاً على الاستقبال للدلالة على عدم تحقّقه . وقوله (يودّوا) جواب الشرط ، والودّ ((محبّة الشيء وتمنّي كونه))[2]. وجاء قوله تعالى (لو أنّهم بادون في الأعراب) على سبيل الافتراض المكاني حيث ((تمنّوا أنّهم خارجون إلى البدو وحاصلون مع الأعراب))[3]. ثمّ تصف الآية حالهم ، وقد فرضت فرضت وجودهم مع الأعراب بقوله (يسألون عن أنبائكم) ، ولعلّ في الجملة الفعليّة (يسألون) دلالة التجدّد والمداومة على السؤال ، وجاء في التعبير بـ (أنبائكم) ، وهي جمع مفردها (نبأ) ، وهو ((خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ))[4]. ولعلّ في معناه دلالة على أنّهم يطلبون الخبر اليقين الذي لا شك فيه ، فلا يعودون إلى المدينة حتّى يتحقّق لهم زوال الخطر . وقوله (ولو كانوا فيكم) أي :في هذه الكرّة المفروضة [5]، فيكون المعنى بذلك فرض عودة الأحزاب ، فجاء بافتراض آخر ، وهو فرض وجود هؤلاء المنافقين في المعركة ((ولم يرجعوا إلى داخل المدينة وكانت محاربة بالسيوف ومبارزة الصفوف))[6]. وقوله (ما قاتلوا إلاّ قليلاً) جواب شرط (لو) ، ومعناه : إنّهم لا يقاتلون إلاّ رياءً وخوفاً من التعيير [7].

---

[1] ينظر: روح المعاني 21 / 222 ، والتحرير والتنوير 21 / 222 .

[2] مفردات ألفاظ القرآن / 860 (ودد) .

[3] روح المعاني 21 / 222 .

[4] مفردات ألفاظ القرآن / 788 (نبأ) .

[5] ينظر : روح المعاني 21 / 222 ، وينظر: التحرير والتنوير 21 / 222 .

[6] روح المعاني 21 / 222 .

[7] ينظر : إرشاد العقل السليم 7 / 97 .

ومن الافتراض المكانيّ قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر 21] .

فقد دلّ تعبير الآية على الافتراض[1] ، وسمّاه جماعة من العلماء تمثيلاً وتخييلاً[2]((لعلوّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر))[3]. وجاء التعبير الافتراضيّ مصوّراً لنزول القرآن على مكان مفترض وهو(جبل) ، ولعلّ في تنكيره دلالة التفخيم والتعظيم . وجاء التمثيل بالجبل ؛ لأنّه ((مثال لأشدّ صلابة وقلّة تأثّر بما يقرعه))[4] . وفي التعبير بضمير التاء للمخاطب ، فالخطاب فيه ((لغير معيّن فيعمّ كلّ مَن يسمع هذا الكلام ، والرؤية بصريّة ، وهي منفيّة لوقوعها جواباً لحرف (لو) الامتناعيّة))[5] . و قوله (خاشعاً) ،يعني : ((الضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح))[6] . وقوله (متصدّعاً) من الصدع ، ومعناه : الشقّ في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما [7] . ووصف الجبل بالخشوع ، فيه دلالة على التشخيص[8]. وجاء بقوله (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون) ، تذييلاً يبين فيه أنّ الكلام مساق سوق المثل لأجل أنْ يتفكّروا ويتأمّلوا ، وتحصل لهم به الهداية والرشاد .

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير 28 / 103 .

[2] ينظر: الكشّاف 4 / 496 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 323 ، وإرشاد العقل السليم 8 / 233 ، وتفسير شبّر / 548 ،وروح المعاني 28 / 356 ، والميزان 19 / 108 .

[3] روح المعاني 28 / 356 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 8 / 233 .

[4] التحرير والتنوير 28 / 104 .

[5] التحرير والتنوير 28 / 104 .

[6] مفردات ألفاظ القرآن / 283 (خشع) .

[7] ينظر: المصدر نفسه / 478 (صدع) .

[8] ينظر: التصوير الفنّي / 63 .

5-الافتراض التصويري :

الصورة لغةً :

تصوّرت الشيء : أي توهّمت صورته فصوّر لي . والتصاوير التماثيل . والصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيأته . وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته[1]. فالصورة لغةً : ((الشكل ، والصفة ، والنوع ، والهيأة ، والخيال ، والتمثال المجسّم ، وجمعه صُور و صِور . وصورة المسألة أو الأمر : صفتها وتطلق مجازاً على ما يرسم في الذهن ، وهو الصورة الذهنيّة))[2].

الصورة اصطلاحاً :

عرّف السيد الجرجانيّ صورة الشيء بـ ((ما يؤخذ منه عند حذف المشخّصات ، ويقال : صورة الشيء ما به يحصل الشيء بالفعل))[3]. وعرّف التصوّر بـ ((حصول صورة الشيء في العقل . وإدراك الماهيّة من غير أنْ يحكم عليها بنفي أو إثبات))[4].

الصورة في القرآن الكريم :

وردت لفظة (صوّر) ومشتقّاتها في القرآن الكريم ، وجاءت دالّة على معناها اللغويّ ، كقوله تعالى :﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾[الحشر 24] ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر 64] ، [التغابن 3] . أمّا آستعمال لفظة (صوّر) بمعناها الاصطلاحيّ فلم يرد في القرآن الكريم على حدّ آستقرائي . أمّا التصوير كأسلوب فنيّ في التعبير ، فالقرآن زاخر به ، إذ هو ((الأداة المُفضّلة في أسلوب القرآن . فهو يُعبّر عن الصورة المحسّة المُتخيّلة عن المعنى الذهنيّ والحالة النفسيّة ،وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنسانيّ

---

(1) ينظر: لسان العرب 4 / 85 ـ 86 (صور) ، وتاج العروس 12 / 357 ــ 366،و مختار الصحاح / 373 .

(2) معجم مصطلحات المنطق / 169 .

(3) التعريفات / 112 .

(4) التعريفات / 47 .

، والطبيعة البشريّة ثُمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المُتجدّدة))[1].

والافتراض التصويريّ ، من أنواع الافتراض القرآنيّ ، وقد ((يندرج تحته الفرض الممكن ، أو المحال ، أو الزمانيّ ... إذ قد ترد هذه الأشكال للفرضيّة على هيأة صورة ، أي أنّ هذا اللون من الفرض يشكّل بمجموع سياقه صورةً يشعر بملامحها))[2] .

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي تُبين الصورة المُتخيّلة فيها وتجسّدها ، قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾[يس 66] .

فقد جاءت الآية دالّة على الافتراض[3]. وجاء الافتراض مستعملاً (لو) ، وجاء الفعل بعدها بالمضارع لأنّ ؛ ((إيثار صيغة الاستقبال وإنْ كان المعنى على المُضي لإفادة أنّ الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة ، فإنّ المضارع المنفي الواقع موقع الماضي ليس بنصّ في إفادة ٱنتفاء ٱستمرار الفعل بل قد يفيد ٱستمرار ٱنتفائه بحسب المقام))[4]. والطمس في قوله (لطمسنا على أعينهم) يعني : إزالة الضوءوالصورة كطمس الأثر [5]. وفي هذا التعبير تصوير ((لهذا المشهد الفريد العجيب إذ هو يحرك خيالنا ليستعرض مشهداً آخر يفرضه جدلاً ، ولكنّه يتمثّل للخيال واقعاً : مشهد هؤلاء القوم وقد طمست أعينهم وأطلقوا يستبقون الصراط فهم لا يتلمّسون ولا يتحسّسون بل يستبقون ويتخبّطون))[6]. وتقدير قوله (فٱستبقوا) تسابقوا[7]، وجاء

---

[1] مشاهد القيامة في القرآن / 7 ، وينظر : التصوير الفنّي / 34 .

[2] الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم / 9 .

[3] ينظر: البحر المحيط 9 / 79، والجواهر الحسان 5 / 19 ،وروح المعاني 23 / 61 ، ومشاهد القيا مة في القرآن / 110 .

[4] إرشاد العقل السليم 7 / 176 ــ 177.

[5] ينظر : مفردات ألفاظ القرآن / 524 (طمس) .

[6] مشاهد القيامة في القرآن / 110.

[7] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 395 (سبق) .

قولـه (فـأنّى يبصـرون) بيانـاً لحـالهم بعـدما فقـدوا البصـر وهـم فـي حيـرة و تيـه ، أي : ((فكيـف يبصرون ذلك الطريق وجهة السلوك والمقصود إنكار إبصارهم))[1].

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِـهِ الْجِبَـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِـهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِـهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَـاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّـاسَ جَمِيعـاً وَلاَ يَـزَالُ الَّـذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[الرعد 37] .

فتعبير الآية الكريمة ورد على سبيل الافتراض[2] ، وجـاء الافتـراض علـى سبيل التمثيـل ، وقد ورد التعبير الافتراضيّ في الآيـة بـالأداة (لـو) ، وجـاءت الجملـة بعدها آسميّة مؤكّدة بـ (أنّ) ويلحظ أنّ (قرآناً) ورد بالتنكير ، أي : قرآناً ما ، والمراد به المعنى اللغويّ [3].

وقولـه (سُيّرت) ، و(قُطّعت) ، و(كُلّم) الـذي ورد علـى وزن (فُعّل) بالتشـديد فيـه دلالـة علـى التكثيـر[4] . ولعـلّ فـي بنـاء الفعـل للمجهـول فـي الأفعـال الثلاثـة دلالـة علـى أنّ الكفّـار لا يؤمنـون بالمُحـدِث الحقيقـيّ للفعـل ، بـل جُـلّ آهتمـامهم بالفاعـل السـببيّ وهـو القـرآن ، ولـذا يلحـظ ((تقـديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع ... قصد الإبهام ثُمّ التفسير لزيادة التقرير لأنّ بتقديم مـا حقّه التـأخير تبقـى النفس مستشرفة ومترقبـة إلـى المؤخّر أنّـه مـاذا فيتمكّن عند وروده عليهـا فضـل تمكّن))[5]. والباء جاءت سببيّة في قوله (به) في المواضع الثلاثة [6] . وفي العطف بـ (أو) فـي في الموضعين في الآية لمنع الخلّو لا لمنع الجمع بين جميع هذه الخوارق[7] . وجـواب الشـرط فـي

---

[1] روح المعاني 23 / 61 .

[2] ينظر: روح المعاني 13 / 194 ، والميزان 11 / 156 ، والتحرير والتنوير 12 / 186 .

[3] ينظر : روح المعاني 13 / 193 .

[4] ينظر: شذا العرف في فن الصرف / 23 .

[5] إرشاد العقل السليم 5 / 22 ، وينظر: روح المعاني 13 / 194 .

[6] ينظر : روح المعاني 13 / 194 .

[7] ينظر: إرشاد العقل السليم 5 / 22 .

الآية محذوف قدّره بعض العلماء بقولهم : ((لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لأنّ الأمر كلّه له وحده))[1]. وقد ذكر الآلوسيّ أنّ تقدير جواب الشرط قد يكون ((لما آمنوا به))[2]. ورأى الطباطبائيّ ((أنّ حقّ المعنى الذي يساعد عليه السياق أنْ يكون إضراباً عن نفس الشرطيّة السابقة على تقدير الجزاء نحواً من قولنا : لم يكن لهم أنْ يهتدوا به إلاّ أنْ يشاء الله))[3]. وقد عدّ الباقلاّنيّ ما تحمله الآية الكريمة من المعاني من باب (الإشارة) ، وهو من البديع ، وعرّفه بقوله : ((هو اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة))[4] .

وقد يكون التقدير : لما كان مثل هذا القرآن في بلاغته وعظمته وما يشتمل عليه من أحكام وعلوم ومعارف والله أعلم.

ورأى الدكتور كاصد الزيديّ مُعقّباً على رأي الطبرسيّ ، الذي قال : ((إنّ جميع ما ذُكر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى وكلّ تدبير يجري هذا المجرى لله ؛ لأنّه لا يملكه سواه ولا يقدر عليه غيره ، ولكنّه لا يفعل لأنّ فيما أنزل من الآيات مقنعاً وكفاية للمنصفين))[5] . رأى أنّ الطبرسيّ قد أحسن : ((إذ ٱلتفت إلى مسألة هامّة ... وهي أنّ الله سبحانه لو شاء أنْ يفعل ذلك الفعل الذي أشارت إليه الآية الكريمة ؛ لإظهار عظمة القرآن وخطورته ، لفعل ، إلاّ أنّه سبحانه لا يفعل ذلك لأنّ زمن الخرق قد ذهب ، وظروفه قد ٱنصرمت ، وجاء زمن البيّنات الباقيات ، والشواهد الماثلات))[6] .

---

(1) إرشاد العقل السليم 5 /22 . وينظر: معاني القرآن : الأخفش / 104 .

(2) روح المعاني 13 / 194 .

(3) الميزان 11 / 157 .

(4) إعجاز القرآن / 90 .

(5) مجمع البيان 6 /60 .

(6) الطبيعة في القرآن الكريم / 315 .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[لقمان 27] .

فقد دلّت الآية على الافتراض[1]. وجاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (لو) أداة الشرط متبوعة بالجملة الاسميّة التي دخلت عليها (أنّ) لتوكيد الكلام لو أنّ ٱفتراضه واقع . ويقدّر بعد لو فعل شرط محذوف تقديره : ولو ثبت [2]. وقد جاء قوله (ما في الأرض من شجرة أقلام) بلفظ الشجرة بالمفرد لأنّ ؛ المراد تفصيل الآحاد [3] ، أو دلالة الاستغراق فيشمل كلّ شجر الأرض [4]. فبعد أنْ صوّر تحوّل كلّ شجرة إلى مجموعة من الأقلام ، وٱستقصى كلّ أشجار الأرض فأصبحت أقلاماً ، صوّر البحر مداداً للكتابة بقوله (والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر) ، فالآية تصوّر لهم ((أنّ جميع ما في الأرض من شجر تحوّل أقلاماً . وجميع ما في الأرض من بحر تحوّل مداداً بل إنّ هذا البحر أمدّته سبعة أبحر كذلك وجلس الكُتاب يسجّلون كلمات الله المُتجدّدة ، الدالّة على علمه ، المُعبّرة عن مشيئته .. فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد ، نفدت الأشجار ونفدت البحار وكلمات الله باقية لم تنفد ، ولم تأتِ لها نهاية .. إنّه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهي ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئاً على الإطلاق))[5] . وقد وقد يكون المراد بقوله (البحر) المحيط[6] أو مطلق البحر[7] . وجاء قوله (سبعة أبحر) تصويراً لوجود سبعة أبحر أخرى ((مفروضة كلّ منها مثله في السعة والإحاطة وكثرة الماء ، والمراد بالسبعة الكثرة بحيث تشمل المئة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف))[8].

---

[1] ينظر: روح المعاني 21 / 132 ، والتحرير والتنوير 21 / 123 .

[2] ينظر : الكشّا ف 3 / 485 ، وروح المعاني 21 / 131 .

[3] ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل 4 / 350 ، وإرشاد العقل السليم 7 / 75.

[4] ينظر : الميزان 16 / 275 .

[5] في ظلال القرآن 5 / 2795 .

[6] ينظر: روح المعاني 21 / 132 .

[7] ينظر: الميزان 16 /275 .

[8] روح المعاني 21 /132 .

وأمّا قوله (يمدّه) ، فمعناه : نمدّه حال نفاده بنهر آخر [1]. وفي التعبير بالصيغة الفعليّة ((دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة ، وهو تصوير الإمداد المستمرّ حالاً بعد حال))[2]. وأمّا جواب الشرط ، فقوله (ما نفدت كلمات الله) ، وقد جيء بـ (كلمات) ؛ لأنّ ((إيثار جمع القلّة للإشعار بأنّ ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير))[3] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة 261] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّةً على الافتراض[4]، مصوّرةً الثواب المعدّ لمَن ينفق المال في في سبيل الله تعالى . فجاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (مثل الذين ينفقون) ، وفيه تقدير لمحذوف ، أي : ((مثلُ نفقتهم كمثل حبّةٍ أو مثلهم كمثل باذر حبّة))[5] . ومعنى قوله (في سبيل الله) أي في وجوه أو أبواب الخير من الواجب والنفل [6]. ورأى الآلوسيّ أنّ المراد : الإنفاق ((في الجهاد لأنّه الذي يضاعف هذه الأضعاف ، وأمّا الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك وإنّما تُجزى الحسنة بعشر أمثالها))[7]. ويبدو أنّ الرأي الأوّل هو الأقرب للصواب ؛لأنّ الآيات بعده تذكر الصدقة ، وهي ليست في الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[البقرة 262 ــ 263] .وقوله (حبّة) وهي ((

---

[1] ينظر : مفردات ألفاظ القرآن / 763 (مدّ) .

[2] روح المعاني 21 / 132 .

[3] أنوار التنزيل وأسرار التأويل4 / 351 ، وينظر:إرشاد العقل السليم 7 / 75 .

[4] ينظر: الكشّا ف 1 / 306 ، الميزان 2 / 356 .

[5] الكشّا ف 1 / 306 ، وينظر: مجمع البيان 2 / 270 ، وروح المعاني 3 / 44 .

[6] ينظر : إرشاد العقل السليم 1 / 257 .

[7] روح المعاني 3 / 44 ، وينظر: الجواهر الحسان 1 / 516 .

ٱسم جنس لكلّ ما يزرعه إبن آدم ، وأشهر ذلك البُرّ))[1]. وجاء قوله (أنبتت سبع سنابل) على سبيل التمثيل ، أي ((أنْ تخرج ساقاً يتشعّب منه سبع شُعب لكلّ واحدة سنبلة ، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنّها ماثلة بين عيني الناظر))[2]. وفي قوله (في كلّ سنبلة مئة حبّة) ، رأى بعض العلماء أنّه ((موجود في الدخن والذرة وغيرهما وربّما فرخت ساق البرّة في الأراضي القويّة المُغلّة فيبلغ حبّها هذا المبلغ ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير))[3]، أو أنّه ((مُتصوّر وإنْ لم يُرَ))[4] . وإسناد الإنبات إلى الحبّة مجازيّ ؛ لكونها سبب سبب الإنبات ، ففي الحقيقة المنبت هو الله تعالى[5]. ومعنى قوله (والله يضاعف لمَن يشاء) أي ((يُضاعف تلك المُضاعفة لمَن يشاء لا لكلّ مُنفق ، لتفاوت أحوال المنفقين أو يُضاعف سبع المئة ويزيد عليها أضعافها لمَن يستوجب ذلك))[6]. وقد أكّد هذا القول بقوله تعالى على سبيل التذييل (والله واسع عليم) ، أي : إنّه واسع القدرة لا يضيق عنه ما شاء من الزيادة ، أو إنّه واسع الرحمة .(عليم) بما كان من نيّة المنفق ، وما يقصده من إنفاقه [7]. فالآية تصوّر في الذهن ((عمليّة حسابيّة تُضاعف الحبّة الواحدة إلى سبعمئة حبّة ! أمّا المشهد الحيّ الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل ، وأكثر ٱستجاشة ، وتأثيراً في الضمائر .. إنّه مشهد الحياة النامية . مشهد الطبيعة الحيّة . مشهد الزرعة الواهبة . ثُمّ مشهد العجيبة في عالم النبات : العدد الذي يحمل سبع سنابل . والسنبلة التي تحوي مئة حبّة))[8]. وهذا التشبيه بهذه الزرعة المعطاء ٱنعكاس للنفس البشريّة المُندفعة لعمل الخير ، ((فصورة الشجرة الدالّة على الخير في القرآن الكريم ، تناظرها فيه

---

[1] الجواهر الحسان 1 / 515 ، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 214 (حبّ) .

[2] الكشّاف 1 / 306 .

[3] الكشّاف 1 / 306 ، وينظر: الجواهر الحسان 1 / 515 ، وروح المعاني 3 / 44 .

[4] مجمع البيان 2 / 270 .

[5] ينظر : روح المعاني 3 / 44 ، وإرشاد العقل السليم 1 / 257 .

[6] الكشّاف 1 / 306 ، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1 / 565 .

[7] ينظر : مجمع البيان 2 / 271 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 1 / 565 ، وروح المعاني 3 / 45 .

[8] في ظلال القرآن 1 / 306 .

على الدوام صورة الإنسان المُتّصف بالخير والإيجابيّة والهدى والعطاء ، سواء أكان ذلك معنويّاً ، كما في الكلمة الطيبة ، أم ماديّاً كما في إنفاق المال . هذه الصورة تحيي في نفس الإنسان الأمل وتحثّه على الخير ، وتجعله يشعر بالتجاوب مع هذا الكون المزدان بالخير والبركات ، والبذل والعطاء))[1].

ومن الافتراض التصويريّ أيضاً ، قوله تعالى :﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[الحاقّة 7] .

فقد جاءت الآية دالّةً على الافتراض[2] ، حيث يلحظ أنّ الآية تصوّر مشهد هؤلاء القوم بعد نزول العذاب عليهم بقوله (فترى القوم) أي : إنْ كنت حاضراً حينئذٍ [3] ، فالرؤية المُتصوّرة التي يحملها الفعل المُضارع (ترى) والخطاب الفرضيّ[4]فيها تفتح الباب لمشهد يتخيّله ذهن السامع ، فالآية تصف لنا ((هولاً تنقله إلى حسّك هذه الصورة المُروّعة : صورة العاصفة مُزمجرة مُدوّية سبع ليالٍ وثمانية أيّام ، وصورة القوم فيها (صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية) أو إنّك لتراهم الآن ، فالصورة حاضرة))[5] . والهاء في قوله (فيها) أي : في الأيّام والليالي[6]. وقوله (صرعى)) جمع مفرده صريع ، وهي بمعنى : موتى . ثُمّ جاء التصوير لمنظرهم بتشبيه حالهم وقد آستعمل الأداة (كأنّ) . وقوله (أعجاز نخل) ، أي : أصول نخل [7]، وقد وصفت بقوله (خاوية) أي : متآكلة الأجواف [8]، وأصل الخواء ((الخلا ، يُقال خوِي بطنه من الطعام))[9]. ولعلّ في هذا

---

[1] الطبيعة في القرآن الكريم / 189 .

[2] ينظر: روح المعاني 29 / 67 ، والتحرير والتنوير 29 / 109 .

[3] ينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 22 .

[4] ينظر: روح المعاني 29 / 67 ، والتحرير والتنوير 29 / 109 .

[5] مشاهد القيامة في القرآن / 212 .

[6] ينظر: إرشاد العقل السليم9 / 22 ، وروح المعاني 29 / 67 .

[7] ينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 22 ، وروح المعاني 29 / 67 .

[8] ينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 22 .

[9] مفردات ألفاظ القرآن / 305 (خوى) .

الوصف لهؤلاء الصرعى وتشبيههم بأعجاز النخل المتآكلة من الداخل بياناً لشدّة العذاب النازل بهم وتصويراً لنهايتهم وقد أصبحوا أجساداً متآكلة .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[الحجّ 73] .

حيث وردت الآية دالّة على الافتراض[1]، وجاء التعبير بصيغة المثل الذي يصف عجز الآلهة . ورأى ٱبن قتيبة أنّ الآية لم يأت فيها المثل ؛ ((لأنّ في الكلام معناه [أي معنى المثل] كأنّه قال : يا أيّها الناس ، مثلكم مثل مَن عبد آلهة اجتمعت لأنْ تخلق ذباباً فلم تقدر عليه وسلبها الذباب شيئاً لم تستنقذه منه))[2]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً (لو) في قوله (ولو ٱجتمعوا له) وجاء الفعل بعدها ماضياً للدلالة على عدم تحقّقه . وجواب شرط (لو) محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم (لن يخلقوا ذباباً) . وجملة (ولو ٱجتمعوا) ((معطوفة على شرطيّة أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يخلقوه ولو ٱجتمعوا له وتعاونوا عليه لن يخلقوا))[3]. فالآية الكريمة ترسم لنا صورة لأصنامهم ــ وقد ٱجتمعوا لخلق الذباب ــ صورة ((تلقي ظلال الضعف عن خلق أحقر الأشياء ، والجمال الفني هنا في تلك الظلال التي تضفيها محتويات الصورة وفي الحركة التخييليّة في محاولة الخلق ، وفي التجمع له ، ثُمّ في محاولة الطيران خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبه ، وهم وأتباعهم عاجزون عن هذا الاستنقاذ))[4].والآية الكريمة تتدرّج في تصوير ضعف آلهتهم ومهانتها ، من عدم قدرتها على خلق خلق الذباب إلى ٱجتماعهم بعد ذلك لهذه الغاية ، ثُمّ سلب الذباب منهم ومحاولتهم ٱسترجاع ما سلب ، ((أرأيت إلى تصوير الضعف المزري وإلى التدرّج في تصويره بما يثير في النفس السخرية

---

[1] ينظر: روح المعاني 17 / 260 ، والتحرير والتنوير 17 / 245 ، والميزان 14 / 346 .

[2] تأويل مشكل القرآن / 57 .

[3] روح المعاني 17 / 260 .

[4] التصوير الفني / 244 .

اللاذعة والاحتقار المُهين))[1]. إنّ الإعجاز في خلق الذباب هو عينه الإعجاز في خلق غيره من الأحياء ، فالمعجزة هي إيجاد الحياة ((وإنّما آختير الذباب لحقارته ، وضعفه وقذارته وكثرته والحال أنّهم مجتمعون متكاتفون متّحدون . وإنْ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ولا يمكنهم أنْ يستخلصوه منه لهذا العجز المشين ، ويا له من تصوير فنّيّ رائع ، وضع الآلهة في موضع مهين ذليل ضعيف جداً للغاية حتّى ولو كانوا مجتمعين))[2].

ويمكن أنْ يضاف إلى هذه الأنواع نوعان آخران ، هما ممّا يمكن تمييزهما من خلال المعنى الذي وضحّه المفسّرون عند تفسير الآيات التي تحتويهما ، وهذان النوعان هما :

6- الافتراض للواقع :

فالواقع من الوقوع ، وهو ((ثبوت الشيء وسقوطه ... ووقوع القول: حصول مُتضمّنه))[3]. والافتراض الواقع ، هو إيراد الأمر الواقع على سبيل الافتراض ؛ لغايات بلاغيّة يحدّدها السياق الذي ترد فيه .

ومن الأمثلة القرآنيّة الواردة على سبيل الافتراض ، وهي من الواقع ، قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة 2] .

فقوله تعالى (إنْ صدّوكم) قرئ [4] بالكسر ((على أنّه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنّكم قد أبرز الصدّ المحقق فيما سبق في معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أنّ حقّه أنْ لا

---

[1] التصوير الفني / 244 .

[2] التفسير الواضح 2 / 79 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن / 880 (وقع) .

(3) ينظر : السبعة في القراءات ، ابن مجاهد / 242 ، و التذكرة في القراءات الثمان ، طاهر بن غلبون المقريّ / 315 .

يكون وقوعه إلاّ على سبيل الفرض والتقدير))[1] . فالافتراض في الآية جاء في أمر قد وقع فعلاً ، وهو ((منع أهل مكّة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبيّة عن العمرة))[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بقوله (لا يجرمنّكم شنآن قوم) ، الذي أغنى عن جواب الشرط الافتراضيّ (إنْ صدّوكم) ، فقوله (لا يجرمنّكم) ، (لا) ناهية ، ومعنى قوله (يجرمنّكم) من الجرم ، وهو ((جارٍ مجرى كسب في المعنى وفي التعدّي إلى مفعول واحد وإلى إثنين ، يقال : جرم ذنباً نحو كسبه ، وجرمته ذنباً نحو كسبته إيّاه خلا أنّ جرم يستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ، وهو السبب في إيثاره ههنا على الثاني))[3] . وفاعل يجرمنّكم قوله (شنآن) ، وهو بمعنى البغض[4] أو شدّة البغض[5] وغاية المقت[6] . وفعل الشرط الافتراضيّ (صدّوكم) من الصدّ وهو هنا بمعنى الصرف والمنع[7] .ومعنى قوله (أنْ تعتدوا) هو : الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم [8] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف 5] .

فقد قرئ [9] (إنْ كنتم) بالكسر، وجيء بهذا التعبير ؛ ((لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الإسراف وتصوير أنّ الإسراف من العاقل في هذا المقام واجب الانتفاء حقيقي أنْ لا يكون ثبوته له إلاّ على مجرّد الفرض))[10] . وجاء التعبير الافتراضيّ مصدّراً بالهمزة الاستفهاميّة ((إنكاراً لأنْ

---

[1] إرشاد العقل السليم 3 / 5 .

[2] الكشا ف 1 / 591 .

[3] إرشاد العقل السليم 3 / 5 .

[4] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 465 (شنأ) .

[5] ينظر: الكشاف 1 / 590 .

[6] ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 5 .

[7] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 477 (صدد) .

[8] ينظر: الكشاف 1 / 591 .

[9] ينظر : التذكرة في القراءات الثمان / 544 .

[10] الإيضاح في علوم البلاغة / 97 ، وينظر: شرح المختصر 1 / 136 .

يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب))[1] . والفاء في قوله (أفنضرب) ((للعطف على محذوف تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر))[2] . ومعنى الضرب في الآية هو ((ذكر شيء أثره يظهر في غيره))[3] . والصفح في قوله (صفحاً) على وجهين : ((إمّا مصدر من صفح عنه إذا أعرض ، منتصب على أنّه مفعول له على معنى : أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجّة به إعراضاً عنكم . وإمّا بمعنى : الجانب من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه ، على معنى : أفننحيه عنكم جانباً ، فينتصب على الظرف))[4] . وإذا كان معنى الصفح : الجانب ، فيكون ٱستعماله مجازيّاً[5] ، ويكون ٱستعمله على سبيل التجسيم[6] . وٱستعمال (إنْ) الشرطيّة الدالّة على الشك مع أنّهم قد كانوا مسرفين على البت [7] ، وفي هذا الاستعمال إخراج ((للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم))[8] . وقوله (مسرفين) ، من الإسراف أي : ((تجاوز الحدّ في كلّ كلّ فعل يفعله الإنسان ، وإنْ كان ذلك في الإنفاق أشهر))[9] . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله[10] . ومعنى قوله (قوماً) : ((جماعة الرجال في الأصل دون النساء ... وفي عامّة القرآن أريدوا به والنساء جميعاً))[11] . إنّ هذا الافتراض للأمر الواقع فعلاً هو إنزال الواقع منزلة المحال ، ((فكونهم مسرفين أمر مقطوع به لكن جيء بلفظ (إنْ) لقصد التوبيخ وتصوير أنّ الإسراف من

---

[1] الكشاف 4 / 230 .

[2] الكشاف 4 / 230 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 8 / 40 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن / 506 (ضرب) .

[4] الكشاف 4 / 230 ، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 486 (صفح) .

[5] الكشاف 4 / 230 .

[6] ينظر: التصوير الفنّي / 63 .

[7] ينظر : الكشاف 4 / 231 .

[8] إرشاد العقل السليم 8 / 40 ، وينظر: الكشاف 4 / 231 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 139 .

[9] مفردات ألفاظ القرآن / 407 (سرف) .

[10] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 139 ، وإرشاد العقل السليم 8 / 40 .

[11] مفردات ألفاظ القرآن / 693 (قوم) .

العاقل في هذا المقام يجب ألاّ يكون إلاّ على سبيل الفرض والتقدير كالمحالات لاشتمال المقام على الآيات الدالّة على أنّ الإسراف ممّا لا ينبغي أنْ يصدر عن العاقل أصلاً فهو بمنزلة المحال))[1] .

ومن ذلك أيضاً ، قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [المؤمن 28] .

فقد جاءت الآية دالّة على الافتراض[2] ، وورد على طريقة السبر والتقسيم ، وفي هذا اللون من الافتراضات فإنّ حال المفروض له لا يخلو من أحد الأحوال التي وضِعت الاحتمالات لها ، فهو (إنْ) يك كاذباً فعليه كذبه) ، أو (إنْ يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم) ، فهو لا يعدو أحد هذين الحالين . وجاء التعبير الافتراضيّ بأسلوب فيه من الملاطفة وحسن الأدب وكمال الإنصاف ، وبيانه من أوجه : ((أمّا أوّلاً : فلأنّه صدّر الكلام بكونه كاذباً على جهة التقدير ملاطفةً وٱستنزالاً للخصم عن نخوة المكابرة ودعاءً له إلى الإذعان والانقياد للحق وقدّمه على كونه صادقاً دلالةً على ذلك . وأمّا ثانياً : فلأنّه فرض صدقه على جهة التقدير مع كونه مقطوعاً بصدقه ؛ تقريباً للخصم وتسليماً لما يدّعيه من ذلك وهضماً لجانب الرسول زيادةً في الإنصاف ومبالغةً فيه . وأمّا ثالثاً : فإنّه أردفه بقوله (يصبكم بعض الذي يعدكم) وإنْ كان التحقيق أنّه يصبهم كلّ ما يعدهم به لا محالة من أجل الملاطفة أيضاً . وأمّا رابعاً : فإنّه أتى بـ (إنْ) للشرط وهي موضوعة للأمور المشكوك فيها ليدلّ بذلك على أنّه غير مقطوع بما يقوله على جهة الفرض . وأمّا خامساً : فقوله تعالى في آخر الآية (إنّ الله لا يهدي مَن هو مسرف كذّاب) إنّما أتى به على التلطّف والإنصاف مخافة أنْ يبعدوا

---

[1] شرح المختصر 1 / 136 .

[2] ينظر: الكشاف 4 / 158 ، والبحر المحيط 9 / 252، وفي ظلال القرآن 5 / 3079 .

عن الهداية ومحاذرة من نفارهم من طريق الصواب وإلاّ فلو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى النبوّة ولما أعطاه إيّاها))[1] .

7- الافتراض للذي سيقع :

جاءت بعض الآيات القرآنيّة متضمّنةً ٱفتراض أحداث ، يكون وقوعها حاصلاً في المستقبل لا محالة ، ومن أمثلة هذا النوع من الافتراض ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام 40] .

فقد جاءت الآية مفترضة[2] للكفّار إتيان العذاب لهم ، إمّا في الحياة الدنيا أو الآخرة ، ومعلوم أنّ العذاب واقع بهم إمّا في الدنيا أو الآخرة ، قال تعالى : ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء 58] . فالآية الكريمة ((ٱحتجاج على المشركين ، وإقامة حجّة على بطلان شركهم من وجه ، وهو أنّها تفرض عذاباً آتياً من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم ثمّ تفرض أنّهم يدعون في ذلك مَن يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز في فطرة الإنسان أنْ يتوجّه بالمسألة إذا بلغت به الشدة نحو مَن يقدر أنْ يكشفها عنه))[3] . وقد بدأ الافتراض بـ (قل) التلقينيّة ((وهي في كلّ تلك المواضع لم تكن إلاّ خطاباً للرسول محمّد ﷺ وهو خطاب يدلّ على أنّ من وراء الرسول وحياً يوحي إليه بالإجابة عمّا سُئل

---

[1] من أساليب التعبير القرآني / 232 – 233 .

[2] ينظر: الميزان 7 / 41 .

[3] ينظر: الميزان 7 / 41 .

عنه ، والتبليغ بالأحكام والشرائع . ومن وراء الوحي ربّ العزة عظم شأنه))[1] . ومعنى قوله (أرايتكم) : أخبروني ، والضمير الثاني [الكاف] لا محل له من الإعراب[2] . ويبدو أنّ في المعنى قلباً للضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم الذي يكون محله النصب على المفعولية . ومتعلق الاستخبار محذوف ، تقديره : إنْ أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة مَن تدعون . ثمّ بكتهم بقوله (أغير الله تدعون) ، ومعناه : أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ ، أم تدعون الله دونها[3] .

ونحو ذلك أيضاً ، قوله تعالى : ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء 30] .

فتعبير الآية ورد على سبيل الافتراض[4] ، وقد جاء للدلالة على أمر يكون حصوله في المستقبل القريب ، فمعنى الآية : ((أتفعل فيّ ذلك حال عدم مجيئي بشيء مبين وحال مجيئي به))[5] . وقد جيء بـ (لو) دون (إنْ) لبيان أنّه مستبعد في نفس فرعون لا نفس النبيّ موسى عليه السلام . وقد تحقق ما جعله دليلاً على صدق نبوته ، فقال تعالى : ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء 32] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ [المزمل 17] .

فتعبير الآية الدالّ على الافتراض[6] ، يصور إسراع الشيب في نواصي الأطفال ((والأصل فيه أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب))[7] ، ويجوز أنْ يكون معنى

---

[1] الجوابات في التعبير القرآنيّ الكريم ، سعاد كريم خشيف ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد – كلية التربية للبنات ، 1423 هـ - 2002 م / 28 .

[2] ينظر: الكشاف 2 / 21 .

[3] ينظر: الكشاف 2 / 21 .

[4] ينظر: إرشاد العقل السليم 6 / 240 ، وروح المعاني 19 / 100 .

[5] روح المعاني 19 / 100 .

[6] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 407 .

[7] الكشاف 4 / 628 .

الكلام وصف لليوم بالطول ، وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب[1] ، وقد أنكر بعض العلماء أنْ يكون التعبير كناية عن طول اليوم ، ورأوا أنّ المعنى للكناية عن شدته[2] .

ممّا تقدم يمكن أنْ نستنتج تنوّع الافتراض الوارد في القرآن الكريم ، حتّى يمكن تمييز خمسة أنواع منه ، هي : الممكن ، والمحال ، والزمانيّ ، والمكانيّ ، والتصويريّ .

أمّا الافتراض الممكن ، فهو ٱفتراض لأشياء يمكن حصولها إذا كان الأمر متعلّقاً بالمشيئة الإلهيّة ، أمّا إذا كان مرتبطاً بالبشر ، فهو إمّا من باب المحال عليهم ، فمشيئة الله تعالى هي التي تُوجد أو تمنع وجود الافتراض الممكن ، وتعطيل حصول الافتراض على الرغم من إمكانية تحقّقه ، إمّا لكون مشيئة الله لا تريد ذلك ، كما في ٱفتراض تصيير جميع الناس مؤمنين أو كافرين ، فهذا بالضرورة يرفع التكليف عن الناس ولا يستلزم على أثره الثواب أو العقاب في الآخرة ؛ لعدم اختيار العمل من البشر . أو أنْ يكون ممكناً على البشر القيام به ، كالذي يحصل عند دخول المشركين لديار المسلمين ، وظهور المنافقين على حقيقتهم بسرعة ٱرتدادهم عن الدين ، أو لإلزام الخصم بالحجّة ، كالذي حصل بين النبيّ موسى عليه السلام ، وفرعون ، أو لكون نفوس الكفّار أو أهل الكتاب جُبلت على المكابرة والعناد ، فلا يُرجى منهم الهداية والانقياد للدين الحقّ ، وقد يكون الحال بتحقّق الفرض أو عدم تحقّقه سواءً ، كما في عدم استجابة الأصنام لدعاء عابديها حتّى لو أسمعها الله تعالى كلامهم .

أمّا الافتراض المحال ، فهو ٱفتراض يرد ((بإسلوب يلمح فيه ٱستحالة إمكانيّة وقوع الأمر المفترض))[3] لوجود المتناقضات ،وكثيراً ما تبنى نتيجة عليه ، فيكون عدم تحقّق النتيجة دليلاً على بطلان الفرض من أصله ، كافتراض تعدّد الآلهة المتبوع بفساد الكون ، فعدم فساده دليل على وحدانيّة الله تعالى ، أو فرض اتّخاذ الولد باصطفاء أحد مخلوقاته لا بوجود ما يشبهه في ذاته وصفاته ، ولاستلزام أنّ اتّخاذ الولد دليل على العجز أو ضعف القدرة . وقد يتعلّق الفرض المحال

---

[1] ينظر: الكشاف 4 / 629 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 408

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 9 / 52 ، والميزان 20 / 229 .

[3] الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم / 5 .

بالنبيّ ﷺ ، وافتراض إشراكه بالله تعالى ، أو افترائه عليه ، وهو ما يكون متعارضاً مع الإيمان بعصمة النبيّ عن ارتكاب مثل هذه الأعمال ، والأمر نفسه في افتراض ادّعاء الملائكة للربوبيّة من دون الله ﷻ .

أمّا الافتراض الزمانيّ ، فهو افتراض لأمور متعلّقة بالزمان ، منها ما هو مناقض لطبيعة الحياة ومسيرتها ، أو أنّ الحياة لا تستمرّ معها ، كافتراض الليل السرمديّ أو النهار السرمديّ ، فلو شاء الله إيقاف دوران الأرض حول الشمس ، أو زوال الشمس بصورةٍ نهائيّة لتحقيق ذلك ، ولا كائن قادر على إعادة الحياة إلى طبيعتها إلاّ الله ، أو بافتراض إعادة الكفّار من الحياة الآخرة إلى الحياة الدُنيا بعدما رأوا ما ينتظرهم من عذاب ، وهذا بالنتيجة يُنبئ عن عودتهم إلى ما كانوا عليه في الدنيا قبل موتهم ، وهو دليل على أنّ الكفر متمكّن منهم فلا رادع يردعهم عن تركه . أو وصف عروج الملائكة والروح إلى الله تعالى في يوم من أيّام الله تعالى ، يُقدّر بخمسين ألف سنة من سنين أهل الدنيا ، وهذه المُدة المفترضة لا وجود لإنسان قد عاشها أو يعيشها ، ولا عمل له ولا شغل يشغله عن المسير قاطعاً لهذه المسافة . أو بافتراض خلود أهل الجنّة وأهل النار ، كلٌّ في مكانه ، وجعل الخلود مرتبطاً بدوام السماوات والأرض أوّلاً ، ثمّ جعل كلّ ذلك واقعاً تحت الإرادة والمشيئة الإلهيّة . وبرّز الافتراض الزمانيّ الكافر بيوم القيامة ، وافتراضه الكرامة لنفسه ، لو كان هنالك حياة آخرة ، فيجد فيها خيراً ممّا وجد في الدنيا .

أمّا الافتراض المكانيّ ، فممّا يلحظ فيه أنّه كثير الإتيان ردّاً على مزاعم المنافقين وضعيفي الإيمان ، فيُصوّر لهم أماكن أخرى مفترضاً وجودهم فيها ساعة الخطر والموت ، فيكون تعبير الافتراض المكانيّ إمّا مُعجزاً لهم أو مُوبّخاً ، مظهراً للنبيّ عليه السلام والمسلمين حقيقة أمرهم .

فالتصويريّ منه يأتي راسماً الافتراض على شكل صورة أو مشهد يمكن للمتلقّي تصوّره في ذهنه . وهذا التصوير كان أحد أهم الأدوات التي جاء التعبير القرآنيّ حاوياً لها . وتجد الصورة التي يرسمها التعبير القرآنيّ للافتراض التصويريّ صورةً حيّةً كأنّها ماثلة أمام العين .

إنّ أنواع الافتراض متداخلة فيما بينها ، غير منفصلة بعضها عن بعض ، فقد يأتي الافتراض تصويرياً وهو محال ، أو أنْ يكون مكانيّاً وهو وارد على سبيل المحال أو الممكن .

وفضلاً عن هذه الأنواع الخمسة للافتراض ، فإنّ هناك نوعين لا يقومان على ما قامت عليه الأنواع السابقة ، بل يعتمدان على كون الأمر المفترض واقعاً فعلاً ، أو أنّه سيقع لا محالة في المستقبل .

الفصل الثالث :

دلالات الافتراض القرآنيّ :

1- الاستدراج وإرخاء العنان للخصم

2- إلجام الخصم بالحجّة

3- الإلزام والتبكيت

4- الإلهاب والتهييج

5- الإنكار والتعجيب

6- الإهانة

7- التسليم

8- التعجيز

9- التعريض

10- التكذيب

11-التهكم والاستهزاء

12- التهويل

13- التوبيخ

14- المبالغة

15- مجاراة الخصم

16- الوعيد

للافتراض غايات متعدّدة ،كثيراً ما يحدّدها السياق الذي ترد فيه ، وهي :-

1- الاستدراج وإرخاء العنان للخصم :

أفرد ٱبن الأثير للاستدراج باباً في كتابه (المثل السائر) ، وزعم أنّه أوّل مَن ٱستخرجه من كتاب الله تعالى ، ورأى أنّه من ((مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال والكلام فيه ، وإنْ تضمّن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط ، بل الغرض ذكر ما تضمّنته من النُكت الدقيقة في ٱستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، وإذا حقّق النظر فيه عُلم أنّ مدار البلاغة كلّها عليه لأنّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أنْ تكون مستجلبةً لبلوغ غرض المخاطب بها))[1].

---

[1] المثل السائر 2 / 48 – 50 .

ومثّل لذلك بقوله تعالى :﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[غافر 28] .

ونقل الدكتور أحمد مطلوب تعريفاً للاستدراج ، وعُرّف بأنّه ((التوصّل إلى حصول الغرض من المخاطَب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به ، وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يوثق السامع ويطريه لأنّ مبنى صناعة التأليف عليها ومنشأها منها))[1] .

وعرّفه آخرون بقولهم : ((وهو إرخاء العنان مع الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته ، وهو من مخادعات الأقوال . حيث يُسمع الحقّ على وجه لا يزيد غضبه المخاطب))[2]. ومثلوا لذلك بقوله تعالى :﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ 24-25] .

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي جاءت ودلالتها الاستدراج ، قوله تعالى :﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة 137] .

فقد جاء الفرض[3] في الآية الكريمة ٱستئنافاً للكلام في الآية السابقة ، وهو قوله تعالى : ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا

---

(1) معجم المصطلحات البلاغيّة 1 / 120 .

(2) فنون التصوير البيا ني ، توفيق الفيل /309ــ 310، وينظر: أساليب البيان في القرآن، جعفر الحسينيّ /779ــ 780 .

(3) ينظر: الكشّا ف 1 /194 ، وروح المعاني 1/ 539 .

أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة 136] ، فجاءت هذه الآية مفترضةً إيمانهم ، ((والكلام من باب الاستدراج وإرخاء العنان مع الخصم ... والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام وتفكّر علم أنّ الحقّ ما عليه المسلمون لا غير ، إذ لا مثل لما آمنوا به ، وهو ذاته تعالى وكتبه المنزّلة على أنبيائه ولا دين كدينهم))[1].

وقد جاء التعبير الافتراضيّ ، باستعمال (إنْ) الدالّة على الشكّ ، وقد دخلت على الفعل الماضي (آمنوا) ولعلّ في ذلك إيحاءً لهم بتعجيل الإيمان ، وفي قوله (بمثل) وصف يدلّ على أنْ يكون الدين الذي آمنوا به ((ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحّة والسداد))[2]. ورأى الطبا طبائيّ أنّ ((الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى : فإنْ آمنوا بما آمنتم به ، لقطع عرق الخصام والجدال ...[أي] لو قيل لهم : إنّا آمنّا بما لا يشتمل إلاّ على الحقّ ، فآمِنوا أنتم بما يشتمل على الحقّ مثله ، لم يجدوا طريقاً للمراء والمكابرة))[3]. وجاء جواب الشرط مؤكّداً بـ(قد) التحقيقيّة (فقد اهتدوا) لاستدراجهم إلى طريق الإيمان والهداية . ثُمّ ٱستأنف الكلام على طريقة التقسيم بقوله (وإنْ تولّوا) ، أي أعرضوا ولم يؤمنوا [4]، وجاء جواب الشرط مؤكّداً بالقصر مستعملاً (إنّما) أوّلاً ثُمّ جاء التوكيد بالجملة الاسميّة (هم في شقاقٍ) . وقوله (شقاق)، معناه ((المخالفة ، وكونك في شقٍّ غير شقّ صاحبك ، أو مَن : شقّ العصا بينك وبينه))[5] . ولعلّ في تنكير كلمة (شقاق) دلالة امتناع الوفاق بينهم ؛ إذ أنّ ((التنوين للتفخيم ، أي هم مستقرّون في خلافٍ عظيم بعيد عن الحقّ ، وهذا لدفع ما يتوهّم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون))[6] . وجاء قوله (فسيكفيكهم) بالصيغة الفعليّة الدالّة على الحدوث والتجدّد ،

---

[1] روح المعاني 1/ 593 .

[2] الكشّا ف 1 / 194 .

[3] الميزان 1 / 137.

[4] ينظر: الكشّا ف 1 / 194 .

[5] مفردات ألفاظ القرآن /459ـ 460 (شقّ) .

[6] إرشاد العقل السليم 1 / 167، وينظر: روح المعاني 1 / 540.

وهو ما يتناسب مع نصر الله تعالى لنبيّه ﷺ كلّما أعدّوا الحيل والمكائد له ، وفيه دلالة الوعد[1]من الله تعالى لنبيّه بالنصرة ، وقوله (وهو السميع العليم) بصيغة الاسميّة الدالّة على الثبوت ، وفيه دلالة الوعيد [2] ، فإنّ الله تعالى يسمع كلامهم ويعلم بأفعالهم ، فلا يغيب عنه شيء منها . وقوله (فسيكفيكهم)، كلمة يلحظ أنّها خفيفة على اللسان على كثرة حروفها[3]، ولعلّ سبب خفّتها أنّها ((ثلاثة مقاطع وقد تكرّرت فيها الياء والكاف ، وتوسّط بين الكافين هذا المدّ الذي هو سرّ الفصاحة في الكلمة كلّها))[4]. ويبدو أنّ فيه البرهان على نصرة الأنبياء[5] .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران 80] .

فالتعبير في هذه الآية ((موضوع على الفرض والتقدير ، فالمعنى أنّكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوّة تكونون مسلمين لله متحلّين بحلية الإسلام مصبوغين بصبغته ، فكيف يمكنه أنْ يأمركم بالكفر ويضلّكم عن السبيل الذي هداكم إليه بإذن الله سبحانه))[6] . فالآية خطاب للكفّار ولأهل الكتاب ((ووجه كون الخطاب للكفّار ، وأنّ الآية نزلت فيهم بأنّه يجوز انْ يقال لأهل الكتاب (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) أي منقادون مستعدّون للدين الحقّ إرخاءً للعنان واستدراجاً))[7] لهم .

---

[1] ينظر: الكشّاف 1 /194 ، روح المعاني 1 / 540 .

[2] ينظر: الكشّاف 1 /194 ، روح المعاني 1 /540 .

[3] ينظر : الطراز /55.

[4] إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، مصطفى صادق الرافعيّ /172 .

[5] ينظر : الصوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم ، محمد فريد عبدالله / 206 .

[6] الميزان 3 / 123 .

[7] روح المعاني 3 / 275 .

وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية الكريمة مسبوقاً بالجملة المنفيّة (ولا يأمركم انْ تتّخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً) ، وفي دخول (لا) النافيّة على الفعل المضارع دلالة على عدم حصول الفعل في الماضي وهو مستمرّ إلى زمن الحال والاستقبال ، فالنفي بـ (لا) شائع ((في الاستعمال سيّما عند طول العهد وتخلّل الفصل))[1]. وفي قوله (تتّخذوا) ، وهو من أفعال التحويل[2] ، أي إنّهم لم يكونوا أرباباً ثُمّ كانوا ، وفي هذا دلالة على عدم صحّة الادعاء بالألوهيّة لكونها محدثة ، والألوهيّة صفة ملازمة لصاحبها . وفي تعريف (الملائكة) و (النبيّين) دلالة على أنّ المقصود بذلك ملائكة بعينهم ، وأنبياء بأسمائهم ، وقد جُمع (النبيّين) جمع مذكّر سالم ، وهو جمع قلّة ولعلّ في ذلك دلالة على أنّ مَن نسبت إليه الربوبيّة عدد قليل منهم .

ورأى الطبا طبائيّ أنّ التعبير قد ٱستعمل (أرباباً) بدلاً من (آلهة) ، لكون ٱستعمال لفظ الآلهة عندما تكون الدعوة لمَن يطلب العبادة لذاته ، أمّا ٱستعمال (الربّ) فعند الدعوة لعبادة غيره ، فقال : ((كان الكلام مسوقاً للتعريض بالنصارى في عبادتهم لعيسى ، وقوله بألوهيّته صريحاً مسندين ذلك إلى دعوته كان ذلك نسبة منهم إليه أنّه قال : كونوا عباداً لي* بخلاف ٱتّخاذ الملائكة والنبيّين أرباباً بالمعنى الذي قيل في غير عيسى ، فإنّه يضاد الألوهيّة بلازمه لا بصريحه ، فلذلك قيل : أرباباً ، ولم يقل : آلهةً))[3]. ولعلّ في تنكير (أرباباً) دلالة على التجهيل للمتّخِذ ، والتقليل من شأن المتّخَذ . ثُمّ يأتي الافتراض بالهمزة الاستفهاميّة الدالّة على الإنكار[4]، والمتبوعة بالفعل المضارع (يأمركم) ولعلّه هنا دلّ على عدم حصول الفعل في الزمن الماضي وامتداده حتّى زمن

---

[1] روح المعاني 3 / 574 .

[2] ينظر: شرح ابن عقيل 2 / 41.

* يشير الطباطبائيّ إلى الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى :﴿ما كان لبشرٍ أنْ يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثُمّ يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكنْ كونوا ربّانيّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[آل عمران 79] .

[3] الميزان 3 / 123.

[4] ينظر: روح المعاني 3 / 275 .

التكلّم . ولعلّ في التركيب (بعد إذ) دلالة على التحوّل والصيرورة والحال ، ثُمّ في التعبير بالجملة الاسميّة (انتم مسلمون) دلالة كونهم بهذه الصفة ثابتين عليها .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾[الأنعام 76].

فقد جاء التعبير الافتراضيّ مكرّراً في هذه الآية وفي الآيتين التاليتين لها ، وهما قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الانعام 77ــ78] ، فقوله (هذا ربّي) ، الذي ورد مكرّراً ((ٱستئناف مبنيّ على سؤال نشأ من الكلام السابق ، وهذا منه [أي إبراهيم] عليه السلام على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراةً مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، فإنّ المستدلّ على فساد قول يحكيه ثُمّ يكرّ عليه بالإبطال ، وهذا هو الحقّ الحقيق بالقبول))[1] . فالدلالة التي أرادها النبيّ إبراهيم عليه السلام هو أنْ يُظهر لهم أنّه يدين بما يدينون من ٱعتقاد حتّى ينكشف لهم ما ٱنكشف له من غياب ما عبدوا ((ولعلّ في سلوك هذه الطريقة في بيان ٱستحالة ربوبيّة الكواكب دون بيان ٱستحالة إلهيّة الأصنام ، لمّا أنّ هذا أخفى بطلاناً وٱستحالةً من الأوّل ، فلو صدع بالحقّ من أوّل الأمر كما فعله في حقّ عبادة الأصنام لتمادوا في المكابرة والعناد ، ولجّوا في طغيانهم يعمهون))[2].

وقد جاء التعبير في الآية واصفاً حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه فيبدأ الوصف بقوله (فلمّا جنّ عليه الليل) ، فـ (جنّ) ((بمعنى ستر الشيء عن الحاسّة يقال : جنّه الليل ، وأجنّه ، وجنّ عليه : فجنّه ستره ، وأجنّه جعل له ما يجنّه))[3]. ونقل الرازيّ أنّ ((جنّ عليه الليل إذا أظلم عليه

---

[1] روح المعاني 7 / 258، وينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 153 ، والميزان 7 / 83ـــ 85 ،والتحرير والتنوير 6 / 177 .

[2] إرشاد العقل السليم 2 / 405 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن / 203 (جنّ).

الليل))[1] . وأضاف الطباطبائيّ أنّ معنى جنّه ((إسداله الظلام لا مجرّد ما يحصل بغروب الشمس))[2]. وتنكير (كوكباً) ((إنّما هو لنُكتة راجعة إلى مرحلة الإخبار والتحدّث فلا غرض في الكلام يتعلّق بتعيين هذا الكوكب ، وأنّه أي كوكبٍ كان من السيّارات أو الثوابت ؛ لأنّ الذي أخذه في الحجاج يجري في أي كوكب من الكواكب يطلع ويغرب لا أنّ إبراهيم عليه السلام أشار إلى كوكب من الكواكب من غير أنْ يمتاز بأيّ مميّز مفروض ، أمّا أوّلاً فلأنّ اللفظ لا يساعده فلا يقال لِمَن أشار إلى كوكب بين كواكب لا تحصى كثرةً ، فقال : هذا ربّي : أنّه رأى كوكباً قال : هذا ربّي ،وأمّا ثانياً فلأنّ ظاهر الآيات أنّه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذي اشار إليه وقال فيه ما قال ، والصابئون ما كانوا يعبدون أي كوكب ولا يحترمون إلا السيّارات))[3]. ولعلّ في تنكير(كوكباً) ــ مع كثرة الكواكب في السماء ــ ٱحتجاجاً من النبيّ إبراهيم عليه السلام عليهم بفساد معتقدهم ، فلماذا يخصّون هذا الكوكب دون غيره بالعبادة . وفي قوله (هذا ربّي) بإضافته إلى ياء المتكلّم استدراج لقومه بأنه يدين بمعتقدهم ، سواءً كان بالجملة الخبريّة أم الطلبيّة التي حُذف فيها حرف الاستفهام الهمزة . ومعنى قوله (أفل) أي غاب ، ولا تستعمل أفل إلاّ في الشمس والقمر والنجوم [4]. وقوله (لا أحبّ الآفلين) حيث إنّ إبراهيم عليه السلام بعدما أوهمهم بأنّه سائر على معتقدهم ، فلمّا تحقّق له ما يلزمهم به من الحجّة ، أظهر لهم فساد معتقدهم بهذا القول الذي ينفي فيه حبّه لعبادة الأرباب المنتقلين من مكانٍ لآخر[5] . ولعلّ في الآية تقديراً لمحذوف ، تقديره : لا أحبّ عبادة الآفلين . والجملة الفعليّة مع أنّ الفعل فيها هي المضارعة ، إلاّ أنّ دلالتها الإخبار عن الحال الدائم في الماضي والحاضر والمستقبل .

---

[1] مفاتيح الغيب 13 / 39 .

[2] الميزان 7 / 82.

[3] الميزان 7 / 83 .

[4] ينظر : الفروق اللغويّة /337 .

[5] ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 153 .

ورأى الزركشيّ أنّ قوله (فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين) ، للدلالة على إلجام الخصم بالحجّة ، أي ((القمر أفل ، وربّي فليس بآفل ، فالقمر ليس بربّي ، أثبته بقياس اقترانيّ جليّ من الشكل الثاني ، وأحتجّ بالتعبير على الحدوث والحدوث على المحدِث))[1].

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود 88] .

فقد جاء التعبير الافتراضيّ مبتدئاً بكلام للنبيّ شُعيب عليه السلام، ((وهو تحذير لهم على فرض احتمال أنْ يكون صادقاً ، أي فالحزم أنْ تأخذوا بهذا الاحتمال ، أو فالحزم أنْ تنظروا في كُنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنّه لصلاحكم))[2]. فالنبيّ شُعيب عليه السلام يطالب قومه بعدم الاستعجال في الكفر والتكذيب بل يطلب منهم التأمل والتفكّر في صدق كلامه وإرادته الرشاد لهم ((والجواب عليه من باب إرخاء العنان والكلام المنصف كأنّه عليه السلام قال : صدقتم فيما قلتم : إنّي لم أزل مرشداً لكم حليماً فيما بينكم لكنْ ما جئت به ليس غير الرشاد والنصيحة لكم ، إنظروا بعين الإنصاف وأنتم ألبّاء إنْ كنت على حجّة واضحة ويقين من ربّي وكنت نبيّاً على الحقيقة ،أيصحّ لكم ــ وأنا مُرشدكم والناصح لكم ــ أنْ لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي ، والأنبياء لا يُبعثون إلاّ لذلك))[3].

وقد جاء التعبير في الآية مبدوءاً بقوله (يا قومي) وفي إضافة يا المتكلّم وٱنتسابه إليهم دلالة التحبّب لهم ، وصدق القول والنصيحة ، وقوله (أرايتم) أي : أخبروني ، ثُمّ جاء بالافتراض بـ (إنْ) الشرطيّة الدالّة على الأمر المشكوك فيه مسايرةً لهم وإرخاءً للعنان معهم . وقوله (على بيّنةٍ) فيبدو أنّ دلالة (على) هنا للمصاحبة[4] ، أي مصحوباً بالحجّة الباهرة ، وفي الإضافة إلى

---

(1) البرهان في علوم القرآن 3 / 287 ، وينظر: المصدر نفسه 3 / 286 .

(2) التحريروالتنوير 11/ 314 .

(3) روح المعاني 12 /435 .

(4) ينظر: مغني اللبيب 1 / 163 ــ 165 ،والجنى الداني / 476 ــ 478 .

ياء المتكلّم في قوله (ربّي) بيان لمالك الأمر[1]. ثُمّ أكّد استحقاقه للربوبيّة بقوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) ، فقد أكّد كلامه بالجار والمجرور (منه) ، وبالمفعول المطلق (رزقاً) ثُمّ وصف الرزق بـ (حسناً) . وجواب الشرط محذوف ((والتقدير : ماذا يسعكم في تكذيبي أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي))[2]. ولعلّ في حذف الجواب إعطاء المخاطب فرصته للتأمل والتفكير في صدق كلام المتكلّم ، وما يترتّب على صدقه من جزاء . ثُمّ عقّب على ذلك بالاحتجاج عليهم (وما أريد أنْ أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ، أي ((ما أقصد بخلافكم إلى إرتكاب ما أنهاكم عنه))[3]، ليؤكّد صدق كلامه بعد ذلك بجملتين استعمل فيهما أسلوب القصر ، وهما (إنْ أريد إلاّ الإصلاح) ، و (وما توفيقي إلاّ بالله) . حيث أشار إليهم في الجملة الأولى إلى أنّ غايته من الدعوة لهم طلب الإصلاح لهم وجلب ما فيه المنفعة لهم ، وفي ذلك استمالة لهم والتخفيف من معارضتهم ، ثُمّ ٱستدرجهم بعد ذلك رابطاً الجملة الأولى بالثانية ، ومعلّلاً إلى أنّ دعوته ما كانت ولا تحقّق فيها طلب الإصلاح لولا أنّ الله تعالى هو الهادي له ، وهو ناصره ومعينه في تبليغ رسالته . ثُمّ جاء بقوله (عليه توكّلت) ، وقدّم شبه الجملة المشتملة على الضمير العائد على الله تعالى لتخصيص التوكّل عليه ، وفي مجيء (توكّلت) ماضياً ((لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار))[4] . وجاء قوله تعالى (وإليه أنيب) حيث إنّ دلالة (إلى) هنا انتهاء الغاية [5]. وقوله (أنيب) من أناب ((والإنابة إلى الله تعالى الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل))[6]. وقد جاء الفعل (أنيب) بالمضارعة لأنّ ؛ ((إيثار صيغة الاستقبال فيها على الماضي الأنسب للتقرّر والتحقّق))[7]. وقد يكون فيها ٱستدراج لهم للتعويض عمّا فاتهم في الماضي من الإشراك بالإيمان بالله والتوبة إليه .

---

[1] ينظر : إرشاد العقل السليم 4 / 233 .

[2] التحرير والتنوير 11 / 314 .

[3] روح المعاني 12 / 437 .

[4] روح المعاني 12 / 438 .

[5] ينظر: مغني اللبيب 1 / 88 ، والجنى الداني /385 .

[6] مفردات ألفاظ القرآن /827 (نوب) .

[7] روح المعاني 12 / 438 .

وفي كلا الجملتين تهديد للكفّار ، فالله تعالى هو المعين الكافي في الدنيا ، وهو الذي يرجع إليه الخلق يوم القيامة للجزاء[1] .

2- إلجام الخصم بالحجّة :

من الدلالات التي كثرت تسميات العلماء لها ، فسُمّيت محاجّةً ، واستدلالاً بالتعليل ، والمذهب الكلاميّ وغيرها ، فقد عرّف السيد الجرجانيّ المحاجّة بقوله : ((وهي ادّعاء شيء مع الحجّة عليه))[2]. وعرّف الزركشيّ إلجام الخصم بالحجّة بقوله : ((وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجّة عقلية ، تقطع المعاند له فيه))[3]. أمّا الاستدلال ،فقد عرّفه عليّ بن محمّد الجرجانيّ الجرجانيّ ،بقوله : ((تقرير الدليل لإثبات المدلول سواءٌ كان ذلك من الأثر إلى المؤثر ، فيسمّى استدلالاً أنّيّاً أو بالعكس ويسمّى استدلالاً لميّاً أو من أحد الأثرين إلى الآخر))[4].

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة الدالّة على إلجام الخصم بالحجّة ، قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء 17] .

فتعبير الآية ((فرض جدليّ لتقرير حقيقة مجرّدة هي أنّ كلّ ما يتعلّق بذات الله سبحانه قديم لا حادث وباقٍ غير فانٍ ، فلو أراد سبحانه أنْ يتّخذ لهواً لما كان هذا اللهو حادثاً ولا كان مُتعلّقاً بحادث كالسماء والأرض وما بينهما فكلّها حوادث إنّما كان يكون ذاتيّاً من لدنْه سبحانه . فيكون أزليّاً باقياً ؛ لأنّه يتعلّق بالذات الأزليّة الباقية إنّما الناموس المقرّر والسنّة المطّردة أنْ لا يكون هناك لهو))[5].

وقد جاء التعبير في الآية بالطريقة المباشرة بالأداة (لو) المتبوعة بالفعل الماضي (أردنا) ليدلّ على عدم التحقّق ، والضمير (نا) في قوله (أردنا) للتعظيم ،وقوله تعالى (لهواً) ولعلّها

---

[1] ينظر: روح المعاني 12 / 438 .

[2] الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة / 222.

[3] البرهان في علوم القرآن 3 / 286 .

[4] التعريفات / 16 .

[5] في ظلال القرآن 4 / 2372 ، وينظر: الميزان 14 / 238 ، والتحرير والتنوير 17 / 25 .

جاءت نكرةً لتدلّ دلالة عامّة على كلّ ما يُتلهّى به ، وقد جاء في تعريف اللهو : ((هو الشيء الذي يلذّذ به الإنسان فيلهيه ثُمّ ينقضي))[1]. وقد جاءت هذه الآية ؛ تعليلاً[2] لما جاء في الآية السابقة لها وهو قوله تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[الأنبياء 16] . فجاء الردّ نافياً أنْ يكون خلق الموجودات لغرض اللهو ، ولم يقل (لو أردنا أنْ نتّخذ لعباً) . ونجد أبا هلال العسكريّ يُفرّق بين اللهو واللعب ، فيرى ((أنّه لا لهو إلاّ لعب ، وقد يكون لعب ليس بلهو ، لأنّ اللعب يكون للتأديب كاللعب بالشطرنج وغيره ، ولا يقال لذلك : لهو ،وإنّما اللهو لعب لا يعقب نفعاً))[3] . وقد رأى الطباطبائيّ أنّ اللعب من مصاديق اللهو ، ولذا فقد نفى سبحانه وتعالى اللعب (وهو جزء من اللهو) ثُمّ نفى في الآية الثانية مطلق اللهو[4].

وقوله (من لدنّا) ((معناه بقدرتنا ، فالمعنى : أنْ لو شئنا اتّخاذ اللهو لاتّخذناه بقدرتنا لعمومها لكنّا لا نشاء ، وذلك بدلالة (لو) على الامتناع))[5] . وجاء قوله (إنْ كنّا فاعلين) بمثابة التكرير لذلك المعنى ؛ لأجل المبالغةً في الامتناع [6]، أو هي ((إشارة استقلاليّة إلى ما يدلّ عليه لفظة (لو) في ضمن الجملة فيكون نوعاً من التأكيد))[7]. وقد فسّر بعض العلماء (إنْ) بأنّها نافية ولذا فإنّ ((الجملة مستأنفة لتقرير الامتناع المستفاد من (لو) أي : ما كنّا فاعلين لهواً))[8].))[8]. وقد ردّ بعض العلماء هذا الرأي مُعلّلين ذلك بأنّ ((كون إنْ شرطيّة أبلغ بحسب المقام من كونها نافية))[9].

---

[1] التعريفات / 159 .

[2] ينظر : الميزان 14 /283 .

[3] الفروق اللغويّة /284 .

[4] ينظر: الميزان 14 / 282 – 283 .

[5] الميزان 14 /283.

[6] ينظر : روح المعاني 17 / 26 .

[7] الميزان 14 /283 .

[8] التحرير والتنوير 17 / 25 . وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 4 / 86 ، وبنى الجدل في الخطاب القرآني : / 128 .

[9] الميزان 14 / 284 ، وينظر روح المعاني 17 / 28 .

ويبدو أنّ دلالة (إنْ) على الشرطيّة هي الأقرب إلى المعنى ، وإلى ما يعطيه السياق من دلالة .

ومن الأمثلة الافتراضيّة الدالّة على إلجام الخصم بالحجّة ، قوله تعالى :﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون 91] .

فتعبير الآية الكريمة يفترض وجود ألهةً مع الله تعالى ، فتكون نتيجة ذلك وقوع ((التحارب والتغلب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك والتالي باطل لما يلزم من ذلك نفي ألوهيّة الجميع أو ألوهيّة ما عدا واحداً منهم ، وهو خلاف المفروض أو لمّا أنـه يلزم أنْ لا يكون بيده تعالى وحده ملكوت كلّ شيء وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم بأنّه يقول باختصاص ملكوت كلّ شيء به تعالى ... ولايخفى أنّ اللزوم في الشرطيّة المفهومة من الآية عادي لا عقليّ ولذا قيل : إنّ الآية إشارة إلى دليل إقناعيّ للتوحيد لا قطعيّ))[1].

وقد ورد التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بالجملة المنفيّة في قوله (ما إتّخذ الله من ولد) ، فقد نفى عن ذاته اتّخاذ الولد عن جميع الأزمنة[2] ، وهو أنْ يجعل ولد غيره يقوم مقام ولده[3]. وليس المراد بالاتّخاذ للولد في هذه الآية من هذا الباب بل من باب أنْ يكون الولد جزءاً من الوالد مشتقّ منه ، فهو حامل لبعض صفات الوالد إنْ لم يكن كلّها[4]. و(مِن) في قوله (من ولد) للتوكيد والتعبير والتعبير بها ((آكد من أنْ يقول ما اتّخذ الله ولداً وما كان معه إله نفى عن نفسه الولد والشريك على آكد الوجوه))[5]. وبما أنّ الولد أخصّ مصداقاً من الإله ، فقد قدّم نفي الولد على نفي الإله وهو

---

[1] روح المعاني 18 / 354 ، وينظر: تفسيرالقرآن العظيم 5 / 484 ،والبيان في روائع القرآن، تمّام حسان 2/ 319 ، التحرير والتنوير 18 / 92 .

[2] ينظر: البرهان في علم القرآن 2 / 234 .

[3] ينظر: مجمع البيان 7 / 314 .

[4] ينظر: الميزان 15 / 29 .

[5] مجمع البيان 7 / 314 .

وهو ((ترقٍ من نفي الأخصّ على نفي الأعمّ))[1]. وفي قوله (إذاً) تقدير (لو) الشرطيّة وفعلها ، فتقدير الكلام : لو كان معه إلهة – على زعمكم - لذهب كلّ إله بما خلق [2]. والتعبير ((بإذاً من قبيل مجاراة الخصم))[3]، وجاء قوله (كلّ إله) لاستغراق الجنس[4] . ولعلّ في قوله (بما خلق) من الحجّة والبرهان على أنْ يكون الإله متسلّطاً على ما خلق فيكون مطيعاً لإرادته ومشيئته .، كما أنّ قوله (لعلا بعضهم على بعض) أحتجاج آخر على مَن يقول بتعدّد الآلهة ، فالتحارب والمغالبة بين هذه الآلهة المُدّعاة ،وعلوّ بعضها على بعض ((إمّا مطلقاً وإمّا من وجه فيكون العالي هو الإله ولايكون ثَمّ إله أصلاً))[5] . وجيء بقوله (بعضهم على بعض) إذ أعطت (على) دلالة الاستعلاء معنويّاً[6]، وليكون قوله (سبحان الله عمّا يصفون) المؤكّد بالمفعول المطلق (سبحان) ، ، ((مبالغة في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك))[7].

3- الإلزام والتبكيت :

الإلزام ضربان ((إلزام بالتسخير من الله تعالى ، أو من الإنسان ، وإلزام بالحكم والأمر))[8]. والمقصود به هنا هو الضرب الثاني . والتبكيت من ((بكته بالحجّة تبكيتاً غلبه))[9].))[9].

---

[1] الميزان 15 /29.

[2] ينظر : التحرير والتنوير 18 / 93 .

[3] روح المعاني 18 /355 ، وينظر: البرهان في علوم القرآن 3 / 286 .

[4] ينظر: روح المعاني 18 / 355.

[5] روح المعاني 18 / 355 .

[6] ينظر: مغني اللبيب 1 / 164 ، والجنى الداني /476 .

[7] روح المعاني 18 / 355.

[8] مفردات ألفاظ القرآن /740 (لزم).

[9] مختار الصحاح/61 (بكت) .

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة الدالّة على الإلزام والتبكيت قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[المائدة 65].

فقد جاءت الآية الكريمة ناعيةً إلى أهل الكتاب كفرهم ، ناكرةً عليهم إصرارهم على عداء الأنبياء وتكذيبهم ، فجاءت الآية فارضةً لإيمانهم وما يترتّب على هذا الإيمان من تكفير السيئات والإدخال في جنّات النعيم . والمراد من أهل الكتاب ، ((أي ولو أنّهم مع صدور ما صدر منهم من فنون الجنايات قولاً وفعلاً (آمنوا) بما نفى عنهم الإيمان ، فيندرج فيه فرض إيمانهم برسول الله ﷺ ... قصداً إلى الإلزام والتبكيت ببيان أنّ الكفر به ﷺ مستلزم للكفر بكتابهم))[1].

وقد جاء التعبير الافتراضيّ بالأداة (لو) ، وفعل الشرط محذوف تقديره : ثبت . وقد جاء الكلام بعد (لو) جملة اسميّة مؤكّدة بـ (إنّ) ، وفي قوله (أهل الكتاب) ((بذلك العنوان تأكيداً للتشنيع فإنّ أهليّة الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له))[2]. ومعنى التقوى في قوله (آمنوا وأتّقوا) : التورع عن المحرمات واتّقاء الذنوب الجالبة للسخط الإلهي ولنزول العذاب [3] . وقوله (لكفّرنا عنهم سيئاتهم) ،فقد جاء جواب الشرط (كفّر) على وزن (فعّل) وقد أعطى هنا معنى الإزالة[4] ، أي : إزالة السيئات وإبدالها بالحسنات [5]. وفي الإتيان بـ(سيئاتهم) جمع قلّة ((إمّا باعتبار الأنواع وإمّا باعتبار أنّها وإنْ كثرت قليلة بالنسبة إلى كرم الله تعالى))[6]. وكرّرت اللام في قوله (ولأدخلناهم جنّات النعيم) لتأكيد الوعد[7].

---

[1] روح المعاني 6 / 480 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 59 .

[2] إرشاد العقل السليم3 /59 ، وينظر: روح المعاني 6 / 480 .

[3] ينظر : الميزان 6 / 193.

[4] ينظر : شذا العرف /23.

[5] ينظر : الفروق اللغويّة /265.

[6] روح المعاني 6 /481 .

[7] ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 59 ،وروح المعاني 6 / 481 .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص 71].

فقد جاء معنى الآية معطياً دلالة الافتراض[1] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بـ (قل) الدالّة على التلقين بالجواب ، وقوله (أرايتم) أي : أخبروني[2] . ثُمّ جاء الفرض بـ (إنْ) الدالّة على الشكّ ، متبوعة بالفعل الماضي (جعل) ؛ للدلالة على أنّ الفعل غير متحقّق . وقوله (عليكم الليل) حيث قدّم شبه الجملة على المفعول به ، وقد يبدو أنّ سبب التقديم ، لكون تأثير وقوع الفعل مختصّاً بهم . ومعنى قوله (سرمداً) :دائماً وهو((من السرد ، وهو المتابعة والإطراد ، والميم مزيدة لدلالة الاشتقاق عليه ، فوزنه فعمل))[3]. و(إلى) في قوله (إلى يوم القيامة) ، أفادت انتهاء الغاية[4].أمّا (إله) في قوله (مَن إله) فقد جيء به نكرةً دلالة على الإنكار والاستجهال لذلك الإله المفترض . ثُمّ عدل التعبير عن القول بـ (يأتيكم بنهار) ، وهو المقابل لليل إلى القول (يأتيكم بضياء) وذلك ((من قبيل الإلزام بالحجّة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدّعى الخصم أتمّ الظهور))[5]. وفي تنكير (ضياء) تأييد للكلام المُتقدّم حيث يكون المعنى : أيّ ضياء ضياء تستضيئون به في ذلك الليل[6]. والسمع في قوله (أفلا تسمعون) هو ((سماع فهم وقبول الدلائل الباهرة والنصوص المتظاهرة لتعرفوا أنّ غير الله تعالى لا يقدر على ذلك))[7] .

4- الإلهاب والتهييج :

---

[1] ينظر: الميزان 16 / 204 ، والتحرير والتنوير 20 / 99 .

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 7 / 23 .

[3] روح المعاني 20 / 420 ، وينظر: الميزان 16 / 204 .

[4] ينظر: مغني اللبيب 1 / 88 ، الجنى الداني /385 .

[5] الميزان 6 1/ 204 .

[6] ينظر: المصدر نفسه 16 / 204.

[7] روح المعاني 20 / 421.

الإلهاب في اللغة[1] : (إفعال) ، من قولهم : ألهب النار إذا أسعرها حتّى التهبت وطال لهبها . والتهييج في اللغة[2]: (تفعيل) ،من قولهم : هاجت الحرب إذا ثارت . أمّا في مصطلح علماء البلاغة ، فهما ((مقولان على كلّ كلام دالّ على الحث على الفعل لمَن لا يُتصوّر منه تركه ، وعلى ترك الفعل لمَن لا يُتصوّر منه فعله))[3]. ومن أمثلته في القرآن الكريم ، قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأنعام 35] ، ((فهذا كلّه وارد على جهة الحثّ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتحذير له من مواقعة هذه الأفعال))[4] .

ورأى الزمخشريّ أنّ أسلوب النهي يفيد معنى (التهييج والإلهاب) ، وخاصّة في الخطابات الموجّهة للنبيّ ﷺ، فقال في قوله تعالى :﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[القلم 8] : ((تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أنْ يعبد الله مُدّة وآلهتهم مُدّة ويكفّوا عنه غوائلهم))[5].

ويبدو أنّ التهييج والإلهاب يفيد كثيراً في الدلالة على الحال[6]، كقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[البقرة 23] ، وقوله تعالى :﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة 111] . وكثر في القرآن الكريم النهي عن الكون على صفةٍ من الصفات ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾[القصص 86] ، وقوله تعالى :﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأنعام 35] . ويبدو أنّ دلالة ((النهي عن الكون أبلغ من النهي عن تلك الصفة ، فقولك (لا تكنْ ظالماً) أبلغ من قولك (لا تظلم) ؛ لأنّ (لا تظلم) نهي عن

---

(1) ينظر: لسان العرب 5 / 526 ــ 527 .

(2) ينظر: المصدر نفسه 6 / 375 ــ 376 .

(3) الطراز /477 ، 567 .

(4) الطراز /567 .

(5) الكشا ف 4 /574 ، وينظر : أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين / 486 ـــ 489 .

(6) ينظر: أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم / 48 .

التلبّس بالظلم ، وقولك (لاتكن ظالماً) نهي عن الكون بهذه الصفة ، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة))[1] .

ومن الآيات الافتراضيّة التي تعطي دلالة على التهييج والإلهاب ، قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[يونس 94] .

فقد جاء التعبير في الآية مخاطباً النبيّ ﷺ((إنْ كنت في ذلك على سبيل الفرض والتقدير ؛ لأنّ الشكّ لا يُتصوّر منه عليه الصلاة والسلام لإنكشاف الغطاء له))[2]. ورأى كثير من المفسّرين أنّ معنى الآية ((على طريقة التهييج والإلهاب ، كقوله :﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾[القصص 86ــ 87] ، ولزيادة التثبيت والعصمة))[3].

وقد جاء التعبير مبدوءاً بـ (إنْ) الشرطيّة الدالّة على الشكّ في حصول الأمر . وقوله (في شك) فيبدو أنّ (في) للمصاحبة[4] ، أي مع شك . ودلالة (شكّ) النكرة ؛ لتقليل شأنه ، أي : ((شك ما يسير))[5]. ولعلّ في قوله (ممّا أنزلنا) دلالة على التعظيم والتفخيم للأمر المنزَّل ، كما أنّ في الضمير (نا) تعظيماً لمنزِّله . وفي التعظيم لهما دلالة التهييج والإلهاب على التصديق بهما . والفاء من قوله (فاسأل) جاءت واقعةً في جواب الشرط . وقيل : إنّ دلالة الأمر في الفعل هو

---

[1] أساليب المعاني في القرآن، جعفر الحسينيّ / 110 ــ 115 .

[2] روح المعاني 11 / 251 ، وينظر: الكشّا ف 2 / 357 ، ومفاتيح الغيب 17 / 299 ــ 302 ،وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 3 / 123 ــ 124 ، والبحر المحيط 6 / 106، وإرشاد العقل السليم 4 / 175 .

[3] الكشّا ف 2 / 357 ، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 3 / 123 ، وإرشاد العقل السليم 3 / 273 ، وروح المعاني 11 / 251 .

[4] ينظر: مغني اللبيب 1 / 191 ، والجنى الداني /250 .

[5] إرشاد العقل السليم 4 / 175 ، وروح المعاني 11 / 251 .

النصح والإرشاد[1] وهذا فيما يبدو هو الأقرب. وقوله (الذين يقرأون الكتاب) ، فيبدو أنّ دلالة الفعل المضارع (يقرأون) هي وصف لحالهم قبل النبوّة مع الاستمرار بقراءتهم للكتاب ، ليأتي قوله (لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين) ؛ لتهييج المخاطب وإلهابه على الثبات على الأمر فقد أكّد الكلام باللام وبقد وبنون التوكيد . كما أنّ في قوله (الحقّ) المعرّف دلالة على أنّ الكلام المنزّل عليه هو الحقّ ذاته ، وفي قوله (ربّك) تشريف للمضاف إليه ، وقوله (من الممترين) والنهي فيه عن الكون من المُشكّكين فيما ينزل من الله تعالى . ومعنى المرية ((التردّد في الأمر ، وهو أخصّ من الشكّ ... والامتراء والمماراة : المحاجّة فيما فيه مرية))[2].

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء 213] .

فقد ورد التعبير الافتراضيّ موجّهاً الخطاب للنبيّ ﷺ ، متوعّداً له بالعذاب مع المعذّبين لو دعا مع الله إلهاً آخر ((وهذا محال ، ولكنّه فرض للتقريب فكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب مَن يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟! وليس هناك محاباة والعذاب لا يتخلّف حتّى عن الرسول ، لو ٱرتكب هذا الإثم العظيم))[3]. فهذا الخطاب للنبيّ ﷺ ، مع استحالة صدور هذا الفعل منه ﷺ وقد جيء به ؛ ((تهييجاً وحثّاً لازدياد الإخلاص ، فهو كناية عمّن أخلص في التوحيد حتّى لاترى معه عزّ وجلّ سواه . وفيه لطف لسائر المكلّفين ببيان أنّ الإشرك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه مَن لم يكن صدوره عنه فكيف بمَن عداه))[4]

وقد جاء التعبير في الآية مصدّراً بالفاء الواقعة في جواب الشرط المحذوف ((وكأنّ الفاء فصيحة أي إذا علمت ماذُكر فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر))[5]. وفضلاً عمّا في قوله (فلاتدعُ مع الله

---

(1) ينظر: البلاغة والتطبيق /125 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن / 766 (مري).

(3) في ظلال القرآن 5 / 2619 .

(4) روح المعاني 19 / 179 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 6 / 267 .

(5) روح المعاني 19 / 179 .

إلهاً آخر) من دلالة الحثّ والتهييج ، فقد جاء متضمّناً لمعنى التهديد[1] ((وذلك عندما يقصد المتكلّم أنْ يخوّف من هو دونه قدراً ومنزلةً عاقبة القيام بفعلٍ لا يرضى عنه المتكلّم))[2]. والخطاب وإنْ كان للنبيّ إلاّ أنّ ((المراد به سائر المكلّفين ... وإنّما أفرده بالخطاب ليعلم أنّ العظيم الشأن إذا أوعد ، فمَن دونه كيف يكون حاله ، وإذا حُذّر هو فغيره أولى بالتحذير))[3]. ولعلّ في تقديم شبه الجملة (مع الله) على المفعول به (إلهاً) ؛ دلالة على تخصيص الدعاء لله وحده ، وقد يكون في تنكير (إلهاً) دلالة على التحقير ، وجيء بالفاء الواقعة في جواب الطلب ؛ لبيان عاقبة مَن لا ينتهي عن الأمر ، وتبعها بالفعل المضارع (تكون) الدالّ على الاستقبال . وفي قوله (من المعذّبين) إشارة إلى أنّه ((مُقرّر محقّق وأنّه معدود في زمرتهم عريق فيهم))[4].

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة 145] .

فقد أعطت الآية الكريمة معنى الافتراض[5]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بقوله ((ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة

---

[1] ينظر: البلاغة والتطبيق / 130 ، وعلم المعاني : عبد العزيز عتيق / 69 .

[2] علم المعاني : عبد العزيز عتيق /69 .

[3] مجمع البيان 7 /542 .

[4] روح المعاني 2 /562 .

[5] ينظر: الكشّا ف 1 /202 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل1 / 112 ، والبحر المحيط 2 / 30،وإرشاد العقل السليم 1 / 175 ، وروح المعاني 2 / 561 ، والتحرير ةالتنوير 2 / 37 .

بعض) . فقوله (ماتبعوا قبلتك) جواب الشرط ، ويبدو أنّ نفي الفعل الماضي بـ (ما) فيه دلالة الجزم والقطع . وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) نفي لاتّباع النبيّ عليه السلام لقبلتهم ، وهذه الجملة أبلغ في النفي من الجملة الأولى لـ ((كونها اسميّة ، وتكرّر الإسم فيها مرّتين ، وتأكّد نفيها بالباء))[1]، ومعنى قوله (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) ، اليهود والنصارى ، وفيه دلالة على أنّ المخالفة والعناد موجود حتّى فيما بينهم[2] . ثُمّ جاء التعبير الافتراضيّ بقوله(ولئن إتّبعت أهواءهم) مصدّراً بـ (لئنْ) ، وجاء الفعل بعدها بالزمن الماضي وقد يكون فيه دلالة على عدم التحقّق . والهوى في قوله (أهواءهم) يعني ((ميل النفس إلى الشهوة))[3]. ويلحظ في قوله (من بعد ما جاءك من العلم) أنّه جعل ما جاءه نفس العلم[4] . وجاء قوله (إنّك إذاً لمن الظالمين) جواباً للشرط . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مؤكّداً بوجوه ((وهي القسم واللام الموطئة له وإنْ الفرضيّة وإنّ التحقيقية واللام في حيّزها وتعريف الظالمين ، والجملة الاسميّة ، وإذاً الجزائيّة وإيثار (من الظالمين) على ظالم أو الظالم))[5] .

ورأى الزمخشريّ [6] وأبو السعود [7][951 هـ] أنّ هذا الافتراض جيء به للدلالة على التهييج والإلهاب . وأورد الطبرسيّ[8] [548هـ] فيه أقوال : هي الوعيد ، والزجر ، وفساد مذاهبهم مذاهبهم ، والتحذير من المُداراة لهم حرصاً على إيمانهم . ووافق أبو حيّان[9] [745 هـ] الطبرسيّ الطبرسيّ في أنّ دلالة الآية على الوعيد . ورأى البيضاويّ[10] [691هـ] والطباطبائيّ[1] أنّ

---

[1] روح المعاني 2 / 561 .

[2] ينظر: المصدر نفسه 2 / 561 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن /849 (هوى) .

[4] ينظر: روح المعاني 2 / 562 .

[5] روح المعاني 2 / 561 – 561 .

[6] ينظر: الكشّا ف 1 /202 .

[7] ينظر: إرشاد العقل السليم 1 / 175 .

[8] ينظر: مجمع البيان 1 / 582 .

[9] ينظر: البحر المحيط2 / 30.

[10] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1 /112 .

الدلالة في الافتراض هي التهديد ، وإنْ كان الطباطبائيّ قد رأى أنّ التهديد للنبيّ والمعنى متوجّه إلى أمّته . ورأى الآلوسيّ[1270هـ] أنّ المقصود بالفرض ((ذكر مثال لإتّباع الهوى ، وذكر قبحه من غير نظر إلى خصوصيّة المتّبِع والمتّبَع))[2]. ورأى الطاهر بن عاشور[3] أنّ دلالة الافتراض التحذير . وقد يكون التعبير جامعاً لكلّ هذه الدلالات التي يبدو فيما بينها الترابط المعنويّ مع فوارق دلاليّة دقيقة ؛ إذ أنّ الإلهاب والتهييج كثيراً ما يقود إلى التحذير أو الوعيد أو الزجر أو التهديد .

5- الإنكار والتعجيب :

وهو من الدلالات التي يخرج لها الافتراض ، وبخاصّة مع الاستفهام حين يكون مجازاً لا حقيقةً ، والإنكار ((ضد العرفان . يقال : أنكرت كذا ، ونكرت ، وأصله أنْ يرد على القلب ما لا يتصوّره))[4]. والإنكار يكون مع العلم بالشيء ، ومع غير العلم به[5] . وكثيراً ما يتلازم معنى الإنكار مع التعجب فـ ((العُجب والعجب : إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده))[6]، وقيل أيضاً أنّ التعجب : ((انفعال النفس عمّا خَفِي سببه))[7] .

ومن الآيات الافتراضيّة الدالّة على ذلك ، قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة 170] .

فقد وردت الآية لتُعبّر بالاستفهام عن الردّ على الكفّر الذين يحتجّون لاتّباعهم ديانة آبائهم ، فكان هذا الاستفهام الافتراضيّ ((لإنكار مضمون تلك الجملة وهو التزامهم الاتّباع ... على أيّة

---

(1) ينظر: الميزان 1 / 142 .

(2) روح المعاني 2 / 561 .

(3) ينظر: التحرير والتنوير 2 /37 .

(4) مفردات ألفاظ القرآن /823 (نكر).

(5) ينظر: الفروق اللغويّة /57 .

(6) لسان العرب 3 / 2506(عجب) ، طبعة الأعلميّ .

(7) التعريفات / 48 .

حال كانوا من غير تمييز ، وعلم بكونهم محقّين أو مبطلين ، وهو التقليد المذموم ــ ويتولّد من ذلك الإنكاروالتعجيب ــ وجوّز أنْ تكون الجملة حالاً عن ضميرجملة محذوفة أي : أيتـّبعونهم في حال فرضهم غير عاقلين ولامهتدين))[1] .

وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية مسبوقاً بقوله (وإذا قيل لهم إتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا) . فـ (إذا) أداة شرط غير جازمة للاستقبال ، والذي يبدو هنا دلالتها على الماضي ، فظاهر الآية أنّه قد طلب منهم إتّباع ما أنزل الله وأنّ ردّهم قد كان بما قد أجابوا به[2] ، إذ إنّهم (قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا)،وهو ((قول مطلق أي نتـّبع آباءنا على أيّ حال وعلى أيّ وصف كانوا))[3] . وقد أستعمل التعبير الفعل (ألفى) بدل (وجد) ، وذلك لكون الاتـّباع ((فيه إلزام إلى الشيء بقوة فتناسب ذلك مع لفظ (ألفى) ؛ لأنّ المرء – على زعمهم – تألف نفسه ما عليه الآباء والأجداد مهما كانوا عليه من العلم أو الجهل))[4] وجاءالتعبير الافتراضيّ بهمزة الاستفهام المنقولة عن معناها الحقيقيّ ، إذ جاءت ؛ ((لإنكار مضمون تلك الجملة وهو التزامهم الاتـّباع على تقدير ينافيه وهو كونهم غير عاقلين ولا مهتدين))[5]. وجاءت الهمزة في قوله (أو للردّ والتعجيب[6] أو التوبيخ والتقريع[7] ، وأمّا الواو هنا فللحال[8] ، وقال بعضهم للعطف ، ثمّ فسّر فسّر وجودها بقوله : ((والفرق بين دخول الواو وسقوطها في مثل هذا الكلام ... فمعناه : أتبعه

---

[1] روح المعاني 2 / 598 ــ 599 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 1 / 189 ، والميزان 1 / 182 ، والتحرير والتنوير 2 / 105 ، والبيان في روائع القرآن 2 / 278 .

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 1 / 188 .

[3] الميزان 1 / 182 .

[4] المحاجّة في القرآن الكريم ، أسيل متعب مطرود ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كليّة التربية للبنات ، 2002 م / ص 194 .

[5] روح المعاني 2 / 598 .

[6] ينظر : الكشاف 1 / 211 ، وأنوار التنزيل 1 / 447 .

[7] ينظر : التبيان 2 / 76 .

[8] ينظر : الكشاف 1 / 211 .

على كلّ حال))[1] ، ولعلّ معنى (كان) هنا : حال ، أو يُقدّر بعدها محذوف ، أي : كان حال ، فيكون المعنى : ((نتبع آباءنا ، ولو كانوا لا يعقلون،فقرّروا على التزامهم هذا؛ إذ هذه حال آبائهم))[2] .وقوله (لا يعقلون شيئاً) وقع خبراً لـ (كان) ، وهو خبر منفي بـ (لا) الداخلة على الفعل المضارع . وهو ((قول عامّ يراد به الخصوص لأنّهم كانوا يعقلون كثيراً من أمور الدنيا ، والمراد أنّهم لا يعقلون شيئاً من الدين))[3]. ويبدو أنّ في تنكير (شيئاً) مبالغة في إنكار الاتّباع . وقوله (لا يهتدون) أي أنّهم ((لا يهتدون إلى كيفيّة اكتسابه))[4].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾[الزخرف 16] .

فقد جاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً (أم) المنقطعة ، وهي التي تحمل معنى الاستفهام والإضراب ((والهمزة للإنكار والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) ... الالتفات إلى خطابهم لتشديد الإنكار، أي بل اتّخذ سبحانه من خلقه أخسّ الصنفين وٱختار لكم أفضلهما على معنى : هبوا أنّ إضافة اتّخاذ الولد إليه سبحانه جائزة فرضاً أما تفطّنتم لما ارتكبتم من الشطط في القسمة))[5].

---

[1] التبيان 2 / 76 .

[2] الجواهر الحسان 1 / 355 .

[3] مفاتيح الغيب 5/ 7 .

[4] المصدر نفسه 5 /7 .

[5] روح المعاني 25 /97 ، وينظر: الكشّا ف 4 / 235 ، والبحر المحيط 9 / 363، والتحرير والتنوير 25 / 225 – 227 .

ورأى الزركشيّ[1] أنّ الاستفهام في الآية للتوبيخ لمَن قال ذلك ، ثُمّ عاد وذكر أنّه يجوز فيها الإنكار .

وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بـ (أم) الدالّة على الاستفهام والإضراب ، وجيء بعدها بقوله (اتّخذ) ، وقد أوثر هذا الفعل ؛لأنّه يشمل الاتّخاذ بالولادة ، أو بالتبنيّ[2]. ثُمّ قال تعالى (ممّا يخلق) ، أي ممّا يخلقه ، إذ قد حذف الضمير من جملة الصلة ، وهو كثير في التعبير القرآنيّ . وقد دلّ السياق على المحذوف . ويبدو أنّ مجيء الفعل بالمضارع بدل الماضي (خلق) فيه دلالةً على أنّ الخلق مستمرّ لله تعالى في الحال والاستقبال ، وفيه إنكار لهم على زعمهم باتّخاذ الأناث دون الذكور، مع أنّ الخلق كلّه بيده ((وتقييد اتّخاذ البنات بكونه ممّا يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة ـ على ربوبيّتهم ـ مخلوقين لله))[3] . وتنكير (بنات) ، وتعريف (البنين) فيه دلالة على التحقير والتفخيم[4] .

6- الإهانة :

وهو من دلالات الافتراض ، وواحد من المعاني التي يخرج إليها الأمر الذي فيه دلالة الافتراض ،والإهانة مصدر من الفعل (أهان) ، ومعناه : ٱستخفّ[5] . ومن أمثلته في القرآن الكريم الكريم ، قوله تعالى : ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ [الإسراء 50] .

فقد دلّ تعبير الآية الافتراضيّ[1] على الإهانة ((في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلّة المبالاة به على أيّ وجه كان ... [فـ] الأمر في الآية الكريمة (كونوا) لا يراد به حقيقته ، وإنّما

---

[1] ينظر: البرهان في علوم القرآن 4 / 116 .

[2] ينظر : التحرير والتنوير 25 / 225 ــ 227 .

[3] الميزان 17 /212 .

[4] بنظر: روح المعاني 25 /97 ، والميزان 17 /212 .

[5] ينظر: مختار الصحاح / 702 (هون) .

المراد منه (الإهانة) ؛ لأنّ الفعل ليس في طاقة المخاطبين ،وطلب أنْ يكونوا حجارةً أو حديداً فيه إهانة لهم . وسرّ بلاغة التعبير إظهار التهكّم بهم حتّى يلتفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والذلّة فيقلعوا عن عنادهم وتكبّرهم))[2] . وقد عدّ الزركشيّ التعبير من باب التعجيز[3] . وعدّها بعض المحدثين دالّة على السخرية[4] ، أو أنّه أمر بالجواب[5] .

7- التسليم :

وهو من الغايات التي يأتي من أجلها الافتراض ، ونعني به ((أنْ يفرض المتكلّم فرضاً محالاً ، إمّا منفيّاً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثُمّ يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ،ويدلّ على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه))[6].

ومن الآيات الافتراضيّة التي تعطي دلالة التسليم ، قوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾[الصافّات 30] .

---

[1] ينظر: مفاتيح الغيب 20 /352 ، والبحر المحيط 7 / 63، الميزان 13 / 50 ــ 51 ، والتحرير والتنوير 14 / 100 .

[2] أساليب المعاني في القرآن / 58 ، وينظر: شرح المختصر / 209 ، وجواهر البلاغة / 72 ، واللغة في الدرس البلاغيّ /244 ، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين /212 – 213 .

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن 2 / 156 .

[4] ينظر: البيان في روائع القرآن 2 / 279 .

[5] ينظر: خواطر من تأمّل لغة القرآن الكريم ،تمّام حسان / 168.

[6] بديع القرآن / 378 ،وينظر: الإتقان في علوم القرآن 2 /266.

فيلحظ أنّ تعبير الآية هو ((جواب آخر تسليميّ على فرض إضلالهم بأنّهم لم يجبروهم عليه ، وإنّما دعَوهم له فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دعَوا له هواهم))[1].

وقد جاء جواب التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (ما كان) ، والنفي فيها للماضي[2] ، أي في الحياة الدنيا . واللام في قوله (لنا) وردت للدلالة على الملك[3]، و(على) في قوله (عليكم) للدلالة على الاستعلاء[4]. وقد زيدت (من) في قوله (من سلطان)لغرض التوكيد[5] ، فيكون المعنى أنّه ((لو فُرض أنّه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتّى نسلبه منكم ونجرّدكم منه))[6]. ليأتي الاتّهام لهم بعد ذلك مباشراً بقوله (بل كنتم قوماً قوماً طاغين) ، أي ((مجاوزين الحدّ في العصيان مختارين له مصرّين عليه))[7] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون 91] .

فتعبير الآية الافتراضيّ [8] يدلّ على التسليم ، أي ((ولو سلمنا أنّ معه سبحانه إلهاً للزم من ذلك التسليم ذهاب كلّ إله بما خلق ، وعلوّ بعضهم على بعض فلا يتمّ في العالم أمر))[9] .

8- التعجيز :

---

[1] روح المعاني 23 / 110 ، وينظر: معترك الأقران 1 / 350 ، والميزان 17 / 60 .

[2] ينظر: الجنى الداني /329 .

[3] ينظر: مغني اللبيب 1 /234 ، والجنى الداني / 96 .

[4] ينظر: مغني اللبيب 1 /164 ، والجنى الداني / 476 .

[5] ينظر : مغني اللبيب 1 / 353 ، والجنى الداني /316 .

[6] الميزان 17 / 60 .

[7] روح المعاني 23 / 110 .

[8] ينظر : بديع القرآن / 378 ، وروح المعاني 18 / 354 ، والتحرير والتنوير 18 / 92 .

[9] بديع القرآن / 378 .

من المعاني التي يخرج لها الافتراض في التعبيرالقرآنيّ دلالة التعجيز ، والتعجيز من العجز ، وهو من ((التأخّر عن الشيء ... وهو ضد القدرة ... وأعجزت فلاناً وعجّزته وعاجزته : جعلته عاجزاً))[1] .

ومن أمثلته في الآيات الافتراضيّة ، قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الأعراف 77] .

فقد ورد التعبير في الآية على سبيل الافتراض[2]، فكان الجدل بين النبيّ صالح ـ عليه السلام ـ والكفّار من قومه معطياً دلالة التعجيز ، فهم بقولهم (إئتنا بما تعدنا إنْ كنت من المرسلين) ((مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد))[3]. ولعلّ التعبير قدّم جواب الشرط الافتراضيّ (إئتنا بما تعدنا) مبالغة منهم في تعجيزه عن القيام بأيّ عمل ، وفي قوله (بما تعدنا) حذف تقديره : بما تعدنا ((من العذاب وأطلق للعلم به))[4]. ثُمّ جاء الافتراض بـ (إنْ) الشرطيّة المشكوك في حصول ما بعدها ، و قوله (من المرسلين) أي ((أنّ كونك من جملتهم يستدعي صدق ما تقول من الوعد والوعيد))[5] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[الإسراء 88] .

فقد جاءت الآية الكريمة دالّة على الافتراض[6]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بالفعل (قل) الدالّ على تلقين الجواب من الله تعالى لنبيّه عليه السلام . وفي قوله (الإنس والجنّ) تخصيص لاجتماع الثقلين بالذكر ؛ لأنّ المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا مِن غيرهما ، لا لأنّ غيرهما

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن /547 (عجز) .

(2) ينظر: التحرير والتنوير 8 / 175 .

(3) روح المعاني 8 / 560 .

(4) روح المعاني 8 /560 .

(5) إرشاد العقل السليم 3 / 243ـ 244 ، وينظر: روح المعاني 8 / 560 .

(6) ينظر: إرشاد العقل السليم 5 / 194 ، وروح المعاني 15 /211 .

قادر على المعارضة [1]. والتحدّي كان للإنس دون الجنّ ،غير أنّ السياق ((ذكر الجنّ مبالغة في تعجيزهم لأنّهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ومعهم الجنّ القادرون على الأفعال المستغربة ، فهم عن الإتيان بمثله وحدهم أعجز))[2]. و(على) في قوله (على أنْ يأتوا) للتعليل[3]. ويلحظ أنّ التعبير قال (بمثله) ولم يقل : به ؛((احترازاً عن أنْ يُتوهّم أنّ له مثلاً مُعيّناً ، وإيذاناً بأنّ المراد نفي الإتيان بمثل ما ، أي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات الجليلة لشأن ، وفيهم العرب العُرباء أرباب البراعة والبيان))[4]. وجاء التعبير بافتراض آخر في قوله (ولو كان بعضهم لبعض لبعض ظهيراً) ، وهو ٱفتراض صُدّر بـ (لو) ، أي ((لا يأتون بمثله على كلّ حال مفروض))[5]. وقوله (ظهيراً) يعني مُعيناً[6]، ولفظها مأخوذ من الظهر ، كما الرئيس من الرأس[7]. فالدلالة في الافتراض الثاني ((دلالة واضحة ، فإنّ الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأنْ ينتفي عند عدمه أولى))[8] .

9- التعريض :

عرّف السيد الجرجانيّ التعريض بقوله :((ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح))[9]. وعرّفه التفتازانيّ بقوله :((أنْ ينسب الفعل إلى واحد والمراد غيره))[10]. ويبدو أنّ الآيات التي تخاطب النبيّ ﷺ وتنسب إليه أفعالاً لا يصحّ أنْ تكون صادرةً عنه ، فيها تعريض بالأمّة من بعده

---

[1] ينظر : إرشاد العقل السليم 5 /193 .

[2] روح المعاني 15 /210،وينظر: البرهان في علوم القرآن 2 /73 .

[3] ينظر: مغني اللبيب 1 /164 ، والجنى الداني / 477 .

[4] روح المعاني 15 /210 .

[5] روح المعاني 15 / 211 ، وينظر : إرشاد العقل السليم 5 /194 .

[6] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن /540 (ظهر) .

[7] ينظر: الميزان 13 /86 .

[8] إرشاد العقل السليم 5 / 194 .

[9] التعريفات / 48 .

[10] شرح المختصر /139 .

حتّى لا يقوموا بمثل هذه الأفعال ، فافترضت لهم هذا الفرض المستحيل للنبيّ عليه الصلاة والسلام ، وتوعّدته بالحساب والعقاب إنْ هو قام بهذه الأفعال . وقد يكون الكلام في حقيقة الأمر للأمّة لا لشخص النبيّ ﷺ. ويلحظ أنّ الثعالبيّ يؤكّد على هذه المسألة ويعلّلها بقوله : ((قد تقدّم غير ما مرّة بأنّ ما ورد من مثل هذا ، فهو محمول على إرادة الأمّة لعصمة النبيّ ﷺ، وإنّما المراد مَن يمكن أنْ يقع ذلك منه ، وخوطب هو ﷺ تعظيماً للأمر))[1].

ومن الآيات الافتراضيّة التي جاءت دالّة على التعريض ، قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأنعام 15] .

فقد جاءت الآية على سبيل الافتراض[2]. وجاء التعبير على سبيل الجواب الملقّن بـ (قل) ، وجاء الكلام بعدها مؤكّداً بـ (إنّ) في قوله (إنّي أخاف) ، وقوله (أخاف) بمعنى : أوقن وأعلم[3]. ثُمّ جاء التعبير الافتراضيّ (إنْ عصيت) ، واستعمل حرف الشرط (إنْ) ، وجملة الافتراض ((الشرطيّة معترضة [بين الفعل ومفعوله(عذاب)] ... والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وفيه قطع لأطماعهم الفارغة ، وتعريض أنّهم عصاة مستوجبون للعذاب))[4]. وجاء التعريض لهم ((حيث أسند إلى ضمير المتكلّم ما هو معلوم الإنتفاء . وقرن بـ (إنْ) التي تفيد الشكّ وجيء بالماضي إبرازاً له في صورة الحاصل على سبيل الفرض))[5]. وقوله (عصيت) ، فقد ورد في معناها أنّها بمعنى : ترك أمره تعالى ونهيه ، واتّخاذ غيره وليّاً ، وعبادة غيره[6]. ورأى آخرون أنّها ((عامّة في أنواع المعاصي ، ولكنّها ههنا تشير إلى الشرك المنهي عنه))[7]. وذهب

---

(1) الجواهر الحسان 5 / 99 .

(2) ينظر: شرح المختصر /139 ــ 141 ، وروح المعاني 7 / 142 .

(3) ينظر: مجمع البيان 4 / 27 .

(4) إرشاد العقل السليم 3 / 117 ، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2 / 397 ، وتفسير شبّر /129 .

(5) روح المعاني 7 / 142 .

(6) ينظر: مجمع البيان 4 / 27 .

(7) الجواهر الحسان2 / 450 .

صاحب الميزان إلى ذلك ، إذ أنّ (عصيت) بمعنى (أشركت) ، لأنّ فيها إشارة إلى الآية السابقة لها ، وهي قوله تعالى :﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام 14] . فقال مُعلّقاً على التعبير بقوله : ((وقد قيل (إنْ عصيت ربّي) دون أنْ يقال : إنْ أشركت بربّي إشارةً إلى ما في قوله تعالى في الآية السابقة (ولا تكوننّ من المشركين) من نهيه صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الشرك فأدّت الآية : أنّ من الواجب عليّ عقلاً أنْ أعبد الله وحده لأومن ممّا أخاف من عذاب يومٍ عظيم ، وهذا الذي دلّ عليه العقل دلّني عليه الوحي من ربّي . وبهذا تناظر هذه الآية السابقة من جهة إقامة الحجّة العقليّة أوّلاً ثُمّ تأييده بالوحي من الله سبحانه ... وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم ، فقد اكتفى في إفادة هذا المعنى على سعته بمجرّد وضع قوله (عصيت) موضع أشركت))[1]. ومعنى قوله (يوم عظيم) ، فاليوم أي يوم القيامة ، ومعنى العظيم هنا : شديد هوله على العباد وعظيم في قلوبهم [2] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر 65] .

فقد جاءت الآية الكريمة على سبيل الافتراض[3] ، وقد قصد بهذا الفرض ((التعريض لغير الرسل ؛ لأنّ الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك ، لأنّه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى))[4] والآية دالّة على التعريض لأنّه ((إنْ قلت : كيف صحّ

---

[1] الميزان 7 / 18 .

[2] ينظر : مجمع البيان 4 / 27 .

[3] ينظر: الكشّاف 4 / 137 ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 48 ، والبحر المحيط 9 / 219، وإرشاد العقل السليم 7 / 262 ، وتفسير شبّر /465 ، والتفسير الواضح 2 / 333 .

[4] فتح القدير ، الشوكانيّ 4 / 592 ، وينظر : بحث الفرضية في التعبير القرآنيّ الكريم / 10 .

صحّ هذا الكلام مع علم الله تعالى أنّ رسله لا يشركون ولاتحبط أعمالهم ؟ قلتُ : هو على سبيل الفرض ، والمحالات يصحّ فرضها لأغراض ، فكيف بما ليس بمحال))[1]. وفيها يقول الطبرسيّ نقلاً عن ابن عبّاس قوله ((هذا أدب من الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ لأنّ الله تعالى قد عصمه من الشرك ومُداهنة الكفّار))[2].

وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (لئن أشركت) ، وهو تعبير ((محمول على إرادة الأمّة لعصمة النبيّ ﷺ، وإنّما المراد مَن يمكن أنْ يقع ذلك منه ، وخوطب هو ﷺ تعظيماً للأمر))[3]. ورأى بعض المفسّرين أنّ ((هذه الخطابات القرآنيّة من قبيل (إياكِ أعني واسمعي يا جارة) فمعناه أنّ التكليف لمّا كان من ظاهر أمره أنْ يتعلّق بمَن يجوز عليه الطاعة ، والمعصية ، فلو تعلّق بمَن ليس منه إلاّ الطاعة مع مشاركة غيره له كان ذلك تكليفاً على وجهٍ أبلغ ، كالكناية التي هي أبلغ من التصريح))[4]. وقد كثرت المؤكّدات قبل التعبير الافتراضيّ وفيه ، فقد أكّد باللام وقد ، واللام الموطئة للقسم ، ونون التوكيد الثقيلة في الفعلين (يحبط) ، و(تكون) .

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[سورة ص 23] .

فقد جاء تعبير الآية دالاّ على الافتراض[5]. ونجد ابن قتيبة يقول في معنى الآية ((إنّما هو مثل ضربه الله سبحانه له ونبّهه على خطيئته به وورّى عن النساء بذكر النعاج))[6]. ويرى الزمخشريّ أنّ دلالة الآية التعريض ، ويعلّل سبب اللجوء إلى التعريض بقوله : ((فإنْ قلت : لِمَ جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ، قلت : لكونها أبلغ من التوبيخ من قِبل أنّ

---

(1) الكشّاف 4 / 137 .

(2) مجمع البيان 8 / 612 .

(3) الجواهر الحسان 5 / 99 .

(4) الميزان 17 / 126، وينظر: تفسير شبّر /465 .

(5) ينظر: الكشّاف 4 / 82 ، والبحر المحيط 9 / 149، وإرشاد العقل السليم 7 /220 ، وروح المعاني 23 / 238 ،والتحرير والتنوير 23 / 134 –135 .

(6) تأويل مشكل القرآن /165 .

التأمّل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه ، وأشدّ تمكّناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبّه على الخطأ فيه من أنْ يبادره به صريحاً مع مُراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة))[1]. ورأى الرازيّ أنّ هذا المثل الذي ذكرته الملائكة إنّما هو على جهة الرمز والتمثيل[2].

وقد ورد التعبير في هذا المثل مؤكّداً بقوله (إنّ هذا أخي) . وفي قوله (له تسع وتسعون نعجة) ، وقد قدّم (له) واللام فيها لدلالة الملك لديه ، الذي لم يمنعه من الطمع بالقليل الذي عند صاحبه ، والنعجة ((هي الأنثى من الضأن وقد يُكنّى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ في المقصود))[3]. وقوله (اكفلنيها) أي :اجعلني كفلاً ، والكفل: الكفيل ((والكفيل : الحظ الذي فيه الكفاية كأنّه تكفّل بأمره))[4]. وقوله (عزّني) ((أي :غلبني ، وقيل صار أعزّ منّي في المخاطبة والمخاصمة))[5].

ونحو ذلك ، قوله تعالى :﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ [سورة ص 22] . فقد جاء تعبير الآية الكريمة على سبيل ((الفرض وقصد التعريض))[6] .

10-التكذيب :

---

(1) الكشّا ف 4 / 78 ، وينظر: المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز /21 ــ 24، وأساليب البيان في القرآن / 781 .

(2) ينظر : مفاتيح الغيب 26 / 172 .

(3) إرشاد العقل السليم 7 / 221 ، وينظر: البرهان في علوم القرآن 2 / 188 .

(4) مفردات ألفاظ القرآن /717 (كفل) .

(5) المصدر نفسه /564 (عزّ).

(6) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 / 42 ، وينظر : بحث الفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم / 11 .

هو من الدلالات التي يخرج لها الافتراض . والتكذيب من الكذب ، وهو عكس الصدق ويكون في المقال والفِعال ، وكذّبته تكذيباً : نسبته إلى الكذب ، وما جاء في القرآن من التكذيب ففي تكذيب الصادق [1]

ومن الآيات الافتراضيّة التي دلّت على التكذيب ، قوله تعالى :﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[الحشر 12] .

فقد جاء التعبير في الآية على سبيل الافتراض[2]، وليخرج لنا بالدلالة على التكذيب ، فالجواب في الآية الكريمة ((تكذيب لهم في كلّ واحد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكلّ على الإجمال))[3]. وممّا يلحظ في الآية أنّ الكلام قد أكّد فيه بأكثر من مؤكّد ، فقد أكّد باللام الموطئة للقسم في ثلاثة مواضع ، كما أكّد قوله (ليُولنّ) بنون التوكيد الثقيلة ومعناه : ينهزمون ، مِن ((ولاّه دبره إذا انهزم))[4]. وقد جاء جواب القسم الثالث ، وهو قوله (ليُولنّ) مؤكّداً بالنون بالنون الثقيلة دون القِسمين السابقين ، وقد يكون سبب ذلك أنّه قد كذّبهم في قوله (ولئنْ قوتلوا لا ينصرونهم) ، فلمّا فرض نصرهم زاد في توكيد تكذيبهم بالنون الثقيلة . ويلحظ أنّ (ثُمّ) في قوله (ثُمّ لا ينصرون) ، جيء بها ((للتراخي الترتيبيّ كما هو شأنها في عطف الجمل ،فإنّ إنتفاء النصر أعظم رتبةً من تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوالإعانة أهل الكتاب في القتال))[5] .

11- التهكّم والاستهزاء :

---

[1] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 704 (كذب) .

[2] ينظر: الكشّا ف 4 / 494 ، ومجمع البيان 9 /489 ،وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 5 /201 ، والبحر المحيط 10 / 145، وإرشاد العقل السليم 6 / 229 – 230 ، وروح المعاني 28 / 349 .

[3] روح المعاني 28 / 349 .

[4] مفردات ألفاظ القرآن /887 (ولي) .

[5] التحرير والتنوير 28 /90 .

عُرّف التهكّم بأنّه ((ٱستخدام الكلام للتعبير عن معنًى مُغائر للمعنى الحرفيّ للكلمات بقصد السخرية والاستهزاء ، كالخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ،والوعد في مكان الوعيد ، والعذرفي موضع اللوم ، والمدح في موضع السخرية ونحو ذلك))[1] .

كقوله تعالى :﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾[البقرة 93] ،((فقوله تعالى (إيمانكم) تهكّم بهم))[2] ، ومثله استعمال (إنْ) في موضع (إذا) في قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[البقرة 23] ، لغرض التهكّم ((بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على مَن يقاويه : إنْ غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنّه غالبه ويتيقنه تهكّماً به))[3] .

والاستهزاء من الهُزْء ، ومعناه : ((مَزْح في خفية ... يقال : هَزِئت به ، وٱستهزأت ، والاستهزاء : ٱرتياد الهُزؤ))[4].

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي تعطي دلالة الاستهزاء ، قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران 168] .

فقد جاء التعبير في الآية دالاً على الافتراض[5]، وكان الافتراض ردّاً على ما ادّعاه المنافقون ، وهو ((إنّما ادّعيتموه سبب للنجاة ليس بمستقيم ، ولو فُرض استقامته فليس بمفيد ... لأنّ المهروب عنه بالذات هو الموت الذي القتل أحد أسبابه ، فإنْ صحّ ما ذكرتم فادفعوا سائر أسبابه ، فإنّ أسباب الموت في إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء ، وأنفسكم أعزّ عليكم ،

---

[1] أساليب المعاني في القرآن / 97 – 98 .

[2] بديع القرآن / 363 .

[3] الكشّا ف 1 /107 ، وينظر: البلاغة تطوّر وتأريخ / 251 .

[4] مفردات ألفاظ القرآن /841 (هزؤ) .

[5] ينظر: روح المعاني 4 / 452 .

وأمرها أهمّ لديكم))[1] . وممّا يلحظ في الآية انّ التعبير بدأ مسبوقاً بقوله (الذين قالوا لإ خوانهم وقعدوا) ، والأخوّة هنا أخوّة النسب لا الدين [2] ، فلو كانت للدين لشمل الكلام جميع المسلمين ، وقد يكون في ذلك دلالةً على أنّهم يُفضّلون أخوّة النسب على أخوّة الدين . ومعنى قوله (قعدوا) : تخاذلوا عن الخروج للمعركة ((ويُعبّر عن المتكاسل في الشيء بالقاعد))[3]. وفي التعبير بذكر (لأخوانهم) وبعدها (قعدوا) ((أوقع تعبير وتأنيب عليهم ، فإنّهم قعدوا عن إمداد أخوانهم حتّى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع))[4]. وجملة (وقعدوا) جملة حاليّة ، والتقدير : وقد قعدوا ، ولعلّ في عدم توكيدها بـ (قد) التحقيقية إشارةً إلى أنّهم لم يقعدوا في المدينة ابتداءً ، بل لأنّهم قد انسحبوا من المعركة[5] ، فجاء وصف حالهم على هذا التعبير الخالي من التوكيد . والطاعة في قوله (لو أطاعونا ما قُتِلوا) تعني : الائتمار لما أمر [6]. ثُمّ جاء الافتراض بالفعل الدالّ الدالّ على التلقين (قل) دلالة على أنّ الجواب مستمدّ من الله تعالى ((تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم))[7]. وقوله (فادرءوا) من الدرء ، وهو : ((الميل إلى أحد الجانبين ... ودرأت عنه دفعت عن جانبه))[8]. والفاء واقعة جواباً لشرطٍ محذوف دلّ عليه الكلام المتأخّر (إنْ إنْ كنتم صادقين) ، كما أنّها شرط جوابه محذوف دلّ عليه الكلام المُتقدّم[9](فادرءوا). وقد يكون قوله (فادرءوا) جواباً متقدّماً على شرطه ، وقُدّم لإظهار الاهتمام والتكذيب للمنافقين في ادّعائهم ، فلا يحتاج إلى تقدير المحذوفين . وفي قوله (عن أنفسكم) دلالة لتكذيب المنافقين ، فمَن لا يدفع عن نفسه لا يدفع عن غيره ، ولعلّ في جمع (أنفسكم) جمع قلّة ؛ تصغيراً لشأنهم وتحقيراً لهم .

---

[1] المصدر نفسه 4 / 452 .

[2] ينظر: مجمع البيان 2 /652 ، وإرشاد العقل السليم 2 /111 ، وروح المعاني 4 /452 .

[3] مفردات ألفاظ القرآن /679 (قعد) .

[4] الميزان 4 / 194 .

[5] ينظر: إرشاد العقل السليم 2 / 111 ، وروح المعاني 4 / 452 .

[6] ينظر : مفردات ألفاظ القرآن /529 (طوع) .

[7] روح المعاني 4 / 452 .

[8] مفردات ألفاظ القرآن /313 (درء) .

[9] ينظر: روح المعاني 4 / 452 .

وقولـه (المـوت) بـالتعريف للدلالـة علـى أيّ سـبب مـن أسـبابه . ويكـون معنـى قولـه (فـادرءوا عن أنفسكم المـوت) ((ٱستهزاء بهـم ، أي : إنّ كنـتم رجـالاً دفـّاعين لأسـباب المـوت ، فـادرءوا جميع أسبابه ، حتّى لا تموتوا ، كما دراتم في زعمكم هذا السبب الخـاص))[1]. ورأى الزركشـيّ[2] الزركشيّ[2] أنّ قوله (فادرءوا عن أنفسكم الموت) للتعجيز .وقد يكـون التعبير الافتراضـيّ جامعـاً لأغلب هذه الدلالات ، فكثيراً ما تشتمل السياقات القرآنيّة على أكثر مـن معنـى ودلالـة ، وهـو المعبّـر عنه بالمعاني الثواني والثوالث .

ومن الأمثلة الافتراضيّة التي تعطي الدلالة على التهكّم والاستهزاء ، قولـه تعـالى :﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾[الأنبياء 63] .

فقـد دلّـت الآيـة علـى الافتـراض[3]. ورأى العلـويّ أنّ دلالـة الآيـة ((الـتهكّم والاسـتهزاء والسخرية بعقولهم))[4]. ورأى ٱبن قتيبـة أنّـه ((أراد بـل فعلـه الكبيـر إن كـانوا ينطقـون فسلوهم ، فجعل النطق شرطاً للفعل ، أي : إنْ كانوا ينطقون فقد فعلـه ، وهـو لا يعقل ولا ينطـق))[5]. وذكـر العلماء آراءً في تفسير الآيـة ، منهـا : أنّ تقدير الجملـة : بـل فعلـه مَـن فعلـه ،وقولـه (كبيرهم هذا) جملة جديدة ، ومنها : أنّ الكفّار لم ينكروا أنْ تكون أصنامهم تفعل ذلك ، فكـان معنـى قـول إبراهيم ﵇: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم من اعتقاد عبادتها[6]. ولعلّ فـي قولـه (كبيرهم هذا) من توضـيح المقصد بأنْ ألزمهم بتمييز كبيرهم بهذا التي تقطع كلّ شكٍ لأيّ مقصد آخـر . وقولـه (فاسألوهم) إمّا أنْ تكون الفاء رابطة ، والجملة الفعليّة استئنافيّة ، ويكون جواب شرط (إنْ كـانوا) محذوفاً دلّـت

---

(1) إرشاد العقل السليم 2 /111.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن 2 / 156 .

(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 11 / 198 ، والميزان 14 / 300 ، والتحرير والتنوير 17 / 74 .

(4) الطراز / 182 ، وينظر: البرهان في علوم القرآن 2 /193 .

(5) تأويل مشكل القرآن / 166 .

(6) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 11 / 198 ــ 199 ، وروح المعاني 17 / 87 ، والميزان 14 /301 .

عليه الجملة الاستئنافيّة ، أويكون جواب شرط لقوله (إنْ كانوا ينطقون) وجملة الشرط وجوابه من باب إلزامهم بالحجّة[1].

ورأى جعفرباقر الحسينيّ أنّ إبراهيم عليه السلام قد سلك مسلكاً تعريضيّاً لقصد إلزامهم بالحجّة ((على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقّي من الكذب ؛ لأنّه قال : فاسألوهم إنْ كانوا ينطقون ، وذلك على سبيل الاستهزاء . وهذا من رموز الكلام . وبعبارة أخرى : إنّ قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنهم إلى الصنم وإنّما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريضيّ يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجّة وتبكيتهم))[2] . إنّ تكسير الأصنام مع استبقاء الصنم الأكبر فيه ((دلالة فنّية من حيث بناء القصة ودلالة فكرية من حيث سلوك إبراهيم ، هذه الدلالة هي : أنّ تحطيم الأصنام من الممكن أنْ يقترن في أذهان هؤلاء الحمقى ، بأنّها قد أصبحت في حكم العدم ، وإلى أنّ بقاء واحد منها حيّاً من الممكن أنْ يسعفهم بالإجابة عن أسئلتهم ، بل يمكن الذهاب - بنحوٍ أو بآخر من أنحاء الاستخلاص الفنّيّ – أنّ إبقاء الصنم الكبير سيحسم الأمور تماماً عندما يعي القوم – ولو للحظة – أنّ الصنم الكبير لا يملك قابليّة على النطق أبداً وفي هذا كفاية لتحسيس القوم بواقع الغفلة التي يحيونها))[3] . وقد يكون في عدم كسر الصنم الأكبر إيحاء للكفّار بأنّ التعدّد للآلهة غير صحيح، بل لا بدّ من خلافٍ قائم بينها ، وبالتالي : فإنّ الباقي الوحيد من الأصنام ،يوحي بالواحد الغالب القاهر فوق الجميع ، فلا شريك له ولا منازع والله أعلم.

---

[1] ينظر: مجمع البيان 7 / 148 ، وإرشاد العقل السليم 6 /74 ــ 75 ، وروح المعاني 17 / 86 – 87 .

[2] اساليب البيان في القرآن / 774 ــ 775 ، وينظر: بلاغة التراكيب /142 ، وعلم البيان : بسيوني عبد الفتّاح / 261 ، أصول البيان العربيّ في ضوء القرآن الكريم / 152 .

[3] قصص القرآن الكريم دلاليّاً وجماليّاً 2 / 55 .

12- التهويل :

وهو من المعاني التي يخرج لها الافتراض ، وأصله من ((هاله الشيء أفزعه ... ومكان مَهِيل أي مُخوّف وكذا مكان مهال ... والتهويل التفزيع . والتهويل ما هالَك من شيء))[1].

ومن الآيات الافتراضيّة الدالّة على التهويل ، قوله تعالى :﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة 17] .

فقد ورد التعبير في الآية الكريمة ((لزيادة تأكيد عجز المسيح ، ولعلّ نظمها في سلك مَن فرض إرادة إهلاكهم مع تحقّق هلاكها قبلُ لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها إنموذجاً لحال بقيّة مَن فُرض إهلاكه وتعميم إرادة الإهلاك مع حصول الغرض بقصرها على عيسى -عليه الصلاة والسلام- لتهويل الخطب ، وإظهار كمال العجز ببيان أنّ الكلّ تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلاً عمّا أريد بغيره))[2]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ في الآية مسبوقاً بالقسم المحذوف الدالّ عليه اللام في قوله (لقد كفر) جواب القسم [3].

وفي قوله (الذين قالوا) دون تسميته يكون ((تقريراً بالصلة والموصول لما هم عليه))[4]من الزعم بأنّ الله هو المسيح . فجاء الجواب الوارد على سبيل الافتراض مُصدّراً بـ (قل) الدالّة على التلقين من الله تعالى، وقوله (فمَن يملك من الله شيئاً) ، ورد بـ (فاء) ((فصيحة ومَن استفهاميّة ؛للإنكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ التام عن حزم))[5]. وقوله (شيئاً) بالتنكير لغرض التحقير . وقوله (إنْ أراد أنْ يُهلك المسيح إبن مريم وأمّه ومَن في الأرض جميعاً) ،فـ (إنْ) هي أداة الشرط الافتراضيّة الدالّة على الأمر المشكوك في وقوعه ، وجاء الفعل بعدها ماضياً دلالة على

---

[1] مختار الصحاح / 702 (هول) .

[2] روح المعاني 6 / 369 ، وينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 20 .

[3] ينظر : مجمع البيان 3 / 434 .

[4] الطراز /558 .

[5] إرشاد العقل السليم 3 / 19 ، وينظر: روح المعاني 6 /369 .

عدم حدوثه ، ومعنى يُهلك ((بطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً وذلك المسمّى فناءً))[1]. وتقييد المسيح بقوله (إبن مريم)((للدلالة على كونه بشراً تامّاً واقعاً تحت التأثير الربوبي كسائر البشر ولذلك بعينه عطف عليه (أمّه) لكونها مسانخة له من دون ريب وعطف عليه (مَن في الأرض جميعاً) لكون الحكم في الجميع على حدٍّ سواء))[2] ، وتخصيص المسيح وأمّه بالذكر ؛ ((للإيذان بأنّ المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضةً للهلاك))[3]. وجاء قوله (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء) ؛ معلّلاً للكلام المتقدّم [4]، وفي ذكره (ما بينهما)؛ ((ليكون الكلام أقرب من التصريح وأسلم من ورود التوهّمات والشبهات فليس لمتوهّم أنْ يتوهّم أنّه إنّما ذكر السماوات والأرض ولم يذكر ما بينهما ومورد الكلام ممّا بينهما))[5]. وقوله (وما بينهما) مع أنّ أنّ السماوات جمع ؛ لأنّه أراد النوع دون النظر إلى العدد [6]. وفي تقديم الجار والمجرور (لله) دلالة على حصر[7]وتخصيص الملك به تعالى . وأمّا قوله (يخلق ما يشاء) فجملة تعليليّة[8] للجملة للجملة (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما) . وفي الإتيان بالمضارع (يخلق) للدلالة على التجدّد والمداومة . وقوله (ما يشاء) فـ (ما) مصدريّة[9] بمعنى : يخلق أي خلقٍ يشاء ، وقد وقد حذف مفعول المشيئة وهو كثير في التعبير القرآنيّ ثُمّ جاء قوله (والله على كلّ شيءٍ قدير) تذييل ((مقرر لمضمون ما قبله وإظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة))[10]. ووردت (على) للدلالة على الاستعلاء والتسلط ، وجاء قوله (كلّ شيء) على سبيل الاستقصاء ،

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن /844 (هلك).

[2] الميزان 5 / 110 .

[3] إرشاد العقل السليم 3 /20 .

[4] ينظر : الميزان 5 / 110 .

[5] الميزان 5 /110 .

[6] ينظر : مجمع البيان 3 / 434 .

[7] ينظر: الميزان 5 / 110 .

[8] ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 20 ، وروح المعاني 6 / 370 ، والميزان 5 / 110 .

[9] ينظر:إرشاد العقل السليم 3 /20 ، وروح المعاني 6 / 370 .

[10] إرشاد العقل السليم 3 / 20 ، وروح المعاني 6 / 370 .

وأمّا (قدير) فصيغة مبالغة على وزن (فعيل) للدلالة على عظمة القدرة الإلهية . وقد كُرر لفظ الجلالة في الآية أربع مرّات للدلالة ((على نفوذ مشيئته وشمول قدرته))[1].

ونحو ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة 36].

فنجد التعبير في الآية دالاً على الافتراض[2]، ومعنى الآية يدلّ على أنّ الافتداء بكلّ ما موجود في الأرض لكلّ كافر يوم القيامة ومثله معه ((يفرض كينونتهما لهم بطريق المعيّة لا بطريق التعاقب تحقيقاً لكمال فظاعة الأمر))[3]. فهذا الفرض لامتلاك كلّ واحد منهم ما في الأرض جميعاً فيه من ((تهويل وتفظيع الحال ما ليس في قولنا لجميعهم (ما في الأرض) أي من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبةً))[4]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بأداة الفرض (لو) ، وفعل الشرط محذوف تقديره : ثبت[5] ، أي : لو ثبت أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ، وقوله (لهم) ، أي ((لكلّ واحد منهم ... لا لجميعهم إذ ليس في ذلك هذه المرتبة من تهويل الأمر وتفظيع الحال))[6].و(ما) في قوله (ما في الأرض جميعاً) ، فدلالة (ما) عامّة أي ((المال والولاية والملك))[7]، وأمّا (جميعاً) فحال أو توكيد[8]. ثُمّ زاد من تهويل الأمر بقوله (ومثله معه) أي ضعف ما موجود في الأرض ، والضمير في (معه) راجع إلى (ما) . والافتداء في قوله (ليفتدوا به) يعني : البذل عن النفس[9]، والضمير في (به) راجع إلى (ما)

---

(1) الميزان 5 / 110 .

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم 3 /33 ، وروح المعاني 6 / 408 ، وفي ظلال القرآن 2 /882 ، والتحرير والتنوير 5 / 98 .

(3) إرشاد العقل السليم 3 /33 .

(4) روح المعاني 6 / 408 .

(5) ينظر:إرشاد العقل السليم 3 /33 .

(6) إرشاد العقل السليم3 /33 ، وينظر مجمع البيان 3 / 469 .

(7) مجمع البيان 3 / 469 .

(8) ينظر: إرشاد العقل السليم 3 /33 .

(9) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن /627 (فدى) .

الموصولة و(مثله معه) ، ((وتوحيده لكونهما بالمعيّة شيئاً واحداً))[1]. وقد أكّد التهويل بنفي التقبّل منهم بقوله (ما تُقبّل منهم) ، وأصل التقبّل ((قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً كالهديّة))[2]. والكافر لا يطلب ثواباً سوى العتق من النار ، فلا يحصل عليه . ثُمّ زاد في تهويل الأمر عليهم بقوله (ولهم عذاب أليم) لبيان أنّهم في ذلك اليوم مُعذّبون ولا منجي لهم ، وجاء بهذا القول ((لزيادة تقريره وبيان هوله وشدّته))[3].

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[المزّمل 17] .

فقد جاء التعبير في الآية واصفاً أهوال يوم القيامة ، وما يصيب الكافر فيه من فزع وخوف ، فإذا كانت الهموم والمصائب تُسرع إلى الإنسان بالشيب ، فإنّ ذلك اليوم سيُشيب رؤوس الأولاد ((من شدّة هوله وهذا على الفرض والتمثيل))[4]. فالآية الكريمة تفترض ((أنّ (الولدان) الذين هم الأطفال لو جاز أنْ يشيبوا لرائع خطبٍ أو طارق كرب لشابوا في ذلك اليوم ، لعظيم أهواله وفظاعة أحواله))[5]. فقد لا يُؤاخذ الله تعالى الإنسان ولا يحاسبه في الدنيا ، فيُؤجل حسابه إلى يوم القيامة الذي لا مفرّ للكفّار من العذاب فيه ، فوصفه بهذا الوصف ((زيادةً في التهويل فكأنّه قيل : هبوا أنّكم لا تؤاخذون في الدنيا أخذة فرعون وأضرابه فكيف تقون أنفسكم هول القيامة ، وما أُعدّ لكم من الإنكال إنْ دمتم على ما انتم عليه ومتم في الكفر))[6].

وقد جاء التعبير في الآية مبدوءاً بقوله (فكيف تتقون) ، فالفاء هنا واقعة في جواب الشرط المحذوف والذي دلّ عليه الكلام المُتأخّر (إنْ كفرتم) . وجاء بـ (كيف) الاستفهاميّة عن الحال ، وفي الاستفهام تهويل لما ينتظر الكفّار في ذلك اليوم ، فيسألهم عمّا يصنعون لحماية أنفسهم

---

[1] روح المعاني 6 / 408 ، وينظر: مفاتيح الغيب 11 / 174 .

[2] مفردات ألفاظ القرآن /653 (قبل) .

[3] روح المعاني 6 / 410 .

[4] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 5/ 407 .

[5] تلخيص البيان في مجازات القرآن / 352 ــ 353 .

[6] روح المعاني 29 / 170 .

مـن عـذاب ذلـك اليـوم ، وقولـه (تتقـون) ، مـن التقـوى وتعنـي : ((جعـل الـنفس فـي وقايـة ممّـا يخاف))[1]. وقد جاء قوله (إنْ كفرتم) بـ (إنْ) الشرطيّة الدالّة على الأمر غير المُتوقّع الحصول ، وفي هذا التقدير المشكوك في حدوثه ((ما يُنبّه على أنّه لا ينبغي أنْ يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحد شبهة تبقيه* في الكفر فهو النور المبين))[2]. وورود قوله (يوماً) نكرة ، ثُمّ وصِف بالجملة الفعليّة (يجعل) وفيها دلالة الاستقبال ، ولعلّ في هذا الوصف دلالة التهويل والتفخيم لذلك اليوم . وموقع (يوماً) الإعرابيّ النصب على أنّه مفعول به[3] لـ (تتقون) . وفي إسناد التقوى لليوم دلالة على المجاز العقليّ[4]. وقولـه (الولدان) جمع مفرده الوليد ((والوليد لمَن قرُب عهده بالولادة))[5]. وقوله (شيباً) جمع مفرده أشيب ، والجملة (يجعل الولدان شيباً) جملة وصفيّة لـ (يوماً) ، وفي هذا الوصف ليوم القيامة ((كناية عن شدّة اليوم))[6]. ورأى الشريف الرضيّ [ت 406 هـ] أنّ هذا الوصف ورد على سبيل الاستعارة[7]. وقد جاءت الآية بعد ذكر فرعون وعذابه في الآية السابقة لها ، وهي قوله تعالى :﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزّمل 16] .

13- التوبيخ :

وهو من المعاني التي يدلّ عليها أسلوب الافتراض ، ويكون متضمّناً لتقصير المخاطب أو لبيان حاله ، كقوله تعالى :﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾[الزخرف 5]

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن / 881 (وقى) .

*وردت في الأصل (تقيه) والصواب ما ذكر. وقد تحقّقت من صحّته من طبعة أخرى بتحقيق : علي عبد الباري عطية . دار الكتب العلميّة الطبعة الأولى . 1422هـ ــ 2001 م .

(2) روح المعاني 29 / 170 .

(3) ينظر: روح المعاني 29 / 170 .

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن 2 / 160 ، والميزان 20 / 229 .

(5) مفردات ألفاظ القرآن /883 (ولد) .

(6) الميزان 20 / 229 .

(7) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن /352ــ 353 .

، فقد ورد التعبير ((لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الإسراف وتصوير أنّ الإسراف من العاقل في هذا المقام واجب الانتفاء حقيقيّ أنْ لا يكون ثبوته له إلاّ على مجرّد الفرض))[1].

ومن الأمثلة الافتراضيّة التي تعطي دلالة التوبيخ ، قوله تعالى :﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة 20] .

فقد جاء التعبير في الآية دالاً على الافتراض[2]، وقد جاءت الآية في وصف حال المنافقين عندما يرون وميض البرق ويسمعون صوت الرعد ، فافترضت لهم الذهاب بالسمع والبصر منهم ؛ ((لتوبيخ المنافقين حيث لم ينتهوا لأنّ مَن قدر على إيجاد قصيف الرعد ووميضه وإعدامهما قادر على إذهاب سمعهم وأبصارهم))[3].

وقد جاء التعبير مُمثّلاً لحال المنافقين ، الذين يُظهرون الإيمان عند الغنيمة ويخفون الكفر حيث لا يجدون بدّاً من هذا التظاهر . فقوله (يكاد البرق يخطف أبصارهم) صُدر بـ (كاد) الدالة على مقاربة حدوث الفعل لا حدوثه ، وأسند الخطف إلى البرق . والخطف يعني : سرعة الاختلاس [4]. وجاء قوله (كلّما أضاء لهم مشوا فيه) وصفاً لحال المنافقين مع الإسلام عند وجود وجود الغنيمة ، فهم كمثل مَن يسير في طريق بليل شديد الظلمة فـ (كلّما) أضاء البرق أي : برق. وعبّر عنه بـ (أضاء) دون (نوّر) ؛ لأنّ ((الضوء ما انتشر من الأجسام النيّرة))[5]. أي : كلّما وجدوا غنيمة أظهروا إيمانهم ، وجاء قوله (مشوا) ؛ ((للإشارة إلى ضعف قواهم لمزيد خوفهم ودهشتهم لم يأتِ سبحانه بما يدلّ على السرعة))[6]. وأمّا قوله (وإذا أظلم عليهم قاموا) ، ففاعل

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة /97 .

[2] ينظر: إرشاد العقل السليم 1 / 55 ، وروح المعاني 1 / 239 .

[3] روح المعاني 1 / 238 .

[4] ينظر : مفردات ألفاظ القرآن /286 (خطف) .

[5] المصدر نفسه /514 (ضوأ) .

[6] روح المعاني 1 / 238 .

أظلم عائد على البرق ، ومعنى أظلم ((أي خفي البرق واستتر ، والمظلم وإنْ كان غيره لكنْ لمّا كان الإظلام دائر على استتاره أسند إليه مجازاً تحقيقاً لمّا أريد من المبالغة في موجبات تخبطهم))[1]. وقوله (قاموا) بمعنى : وقفوا في أماكنهم مُتحيّرين مُترصّدين لإضاءة أخرى للبرق ، وقد استعملت (كلّما) مع الإضاءة ، وهي تعني : كلّ وقت و(إذا) مع الظلام ؛ بياناً لحرصهم على المشي وانتظارهم لما يُصحّحه ، فكلّما وجدوا فرصةً انتهزوها ، وفيه من الدلالة على كمال الحيرة واستبداد الفزع في قلوبهم [2]. ويأتي الافتراض - بعد هذه المقدّمات في وصف حالهم - بالأداة (لو) الدالّة على الشرط والامتناع ، والمتبوعة بفعل المشيئة الماضي ، ومفعوله محذوف يدلّ عليه جواب الشرط ، وتقديره ((ولو أراد الله إذهاب سمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بوميض البرق لذهب))[3]. ولعلّ في تقديم السمع على الأبصار دلالةً على أنّ السمع متحقّق في حال الضوء والظلمة في حين أنّ الإبصار لا يتحقّق إلاّ بوجود الضوء . ويلحظ أنّ فعل المشيئة المفترض أسنِد إلى الله تعالى ، وكذلك فعل الذهاب بالسمع والبصر . وفي ذلك ما فيه من بيان قدرة الله تعالى .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة 23] .

فقد جاء التعبير الافتراضيّ[4] مبدوءاً بـ (إنْ)الشرطيّة التي تدلّ على الشك ، وقد دخلت دخلت هنا لغير الشك ؛ ((لأنّ الله تعالى علم أنّهم مرتابون ولكنْ هذا على عادة العرب في خطابهم ... وإنّما خاطبهم الله تعالى على عادتهم في الخطاب))[5]. فالإتيان بـ (إنْ) ((للتوبيخ على

---

[1] إرشاد العقل السليم 1 /55 .

[2] ينظر : إرشاد العقل السليم 1 /55 .

[3] روح المعاني 1 / 238 .

[4] ينظر: روح المعاني 1 /260 ، والتحرير والتنوير 1 /330 .

[5] مجمع البيان 1 /144 ، وينظر: البرهان في علوم القرآن 2 /223 .

الارتياب وتصوير أنّه ممّا لا ينبغي أنْ يثبت إلاّ على سبيل الفرض))[1]. ومعنى الريب ((أنْ تتوهّم بالشيء أمراً ما فينكشف عمّا تتوهّمه))[2]، وقد ورد نكرةً ؛ للإشعار بأنّ من حقّه - إنْ كان حاصلاً - أنْ يكون ضعيفاً لوضوح ما يدفعه ووجود ما يزيله [3]. وفي قوله (نزّلنا) ((إيثار التنزيل المنبئ عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم وبناء التحدّي عليه إرخاءً للعنان وتوسيعاً للميدان ، فإنّهم اتّخذوا نزوله منجّماً وسيلة إلى إنكاره فجعل ذلك من مبادئ الاعتراف به كأنّه قيل : إنْ ارتبتم في شأن ما نزّلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذّة من نوبه ونجم من نجومه ، فإنّه أيسر عليكم من أنْ ينزل جملةً واحدةً ويتحدّى بالكلّ ، وهذا ... غاية ما يكون في التبكيت وإزاحة العلل))[4] . وجيء بـ (على) في قوله (على عبدنا) إشارة إلى استعلاء الموحي على المُوحى عليه وتمكّنه منه . وقوله (عبدنا) فيه التفخيم للمُنزِّل أو المُنزّل عليه ، لا سيّما وقد أوتي بـ (نا) ــ المشعرة بالتعظيم التام وتفخيم الأمر ــ ؛ لأنّ ذلك العبد هو محمّد عليه الصلاة والسلام [5]. وجاء قوله (فأتوا) بصيغة الأمر للدلالة على تعجيزهم . وقوله ((بسورةٍ من مثله) فسورة القرآن الكريم محاط بها إحاطة السور بالمدينة[6]. وفي تنكيره (سورة)) أي ((ائتوا بسورة ما وهي القطعة من القرآن التي أقلّها ثلاث آيات ، وفيه من التبكيت والتخجيل لهم في الارتياب ما لا يخفى))[7] . و(من) في قوله (من مثله) فهي (من) التبعيضيّة الدالّة الدالّة على القلّة وفيها من المبالغة التي ناسبت مقام التحدّي[8] . والضمير في (مثله) إمّا أنْ يكون عائداً على قوله (ممّا نزلنا) فيكون التعجيز بالقرآن نفسه وبداعة أسلوبه وبيانه ، أو أنْ

---

[1] روح المعاني 1 /260 .

[2] مفردات ألفاظ القرآن / 368 (ريب) .

[3] ينظر : روح المعاني 1 / 260 .

[4] إرشاد العقل السليم1 /64

[5] ينظر : روح المعاني 1 /261 .

[6] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن /433 – 434(سور) .

[7] روح المعاني 1 /261 .

[8] ينظر: روح المعاني 1 / 262 .

يكون عائداً على قوله(عبدنا) فيكون التعجيز من حيث إنّ الذي جاء به رجل أميّ لم يتعلّم من معلّم[1]. ومعنى قوله(وأدعوا شهداءكم) ، فالشهداء((قد فُسّر بكلّ ما يقتضيه معنى الشهادة ، قال ٱبن عبّاس : معناه أعوانكم ، وقال مجاهد : الذين يشهدون لكم ، وقال بعضهم : الذين يعتدّ بحضورهم))[2]. وقوله (من دون الله) أي ((أدعو أصنامكم الذين اتّخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى في اتّخاذها))[3]، فدلّت (دون) على معنى التجاوز . وجاء قوله (إنْ كنتم صادقين) تكريراً تكريراً للتحدّي وتوكيداً له ، فلله تعالى ((أمرهم بالاستعانة أمّا حقيقةً أو تهكّماً بكلّ ما يعينهم بالإمداد في الإتيان في ــ المثل ــ أو بالشهادة على أنّ المأتي به ـ مثل ـ))[4] .

14- المبالغة :

المبالغة في اللغة[5]، مصدر من قولك : بالغت في الشيء مبالغة ، إذا بلغت أقصى الغرض منه . والمبالغة عند علماء البلاغة ((هي أنْ تثبت للشيء وصفاً من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إمّا على جهة الإمكان أو التعذر أو الاستحالة))[6]. والمبالغة من غايات يعطيها الافتراض وإحدى دلالاته .

من ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[لقمان 27] .

فقد وردت الآية على سبيل الافتراض[7]، لقصد المبالغة[1]. وجاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً الأداة (لو) الداخلة على الجملة الاسميّة المؤكّدة بـ (أنّ) ولذا قدّر العلماء فعل الشرط :

---

(1) ينظر: الميزان 1 / 29 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن / 467 (شهد) .

(3) إرشاد العقل السليم 1 / 65 .

(4) روح المعاني 1 / 266 .

(5) ينظر: لسان العرب 1 /246 (بلُغ) .

(6) الطراز / 455 .

(7) ينظر: روح المعاني 21 / 132 ، والتحرير والتنوير 21 / 123 .

ثبت[2]. وفي قوله (من شجرةٍ) بالإفراد دلالة على استغراق كلّ شجر الأرض [3]، ووقع قوله (أقلام) خبراً لـ (أنّ) ، وقد ((وحّد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل : ولو أنّ ما في الأرض من الإشجار ولا قال : ولو أنّ ما في الأرض من شجرة قلمٌ إشارة إلى التكثير ، يعني ولو أنّ بعدد كلّ شجرةٍ قلم))[4]. وتعريف (البحر) في قوله (والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر) ، جاء استغراقاً للجنس [5]. وجيء بالفعل (يمدّه) ؛ لـ ((يغني عن ذكر المداد لأنّه من قولك: مدّ الدواة وأمدّها أي جعلها ذات مداد وزاد في مدادها ففيه دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة وهو تصوير الإمداد المستمرّ حالاً بعد حال كما تؤذن به صيغة المضارع فأفاد النظم الجليل جعل البحر المحيط بمنزلة الدواة وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة مداداً فهي تصبّ فيه مدادها صبّاً لا ينقطع))[6]. وفي قوله (سبعة أبحر) أي ((مفروضة كلّ منها مثله في السعة والإحاطة وكثرة الماء))[7]، وفي العدد (سبعة) إشارة ((ليس لإنحصارها في سبعة ؛ وإنّما الإشارة إلى المدّ والكثرة ولو بألف بحر))[8]. وجواب شرط (لو) قوله (ما نفدت كلمات الله) ، وقد جاء بالماضي دلالة على عدم تحقّقه ، وجاء قوله (كلمات) بجمع المؤنث الدالّ على القلّة ؛((للإيذان بأنّ ما ذُكر لا يفي بالقليل منها فكيف بالكثير))[9]. ثُمّ أكّد هذا الكلام بقوله (إنّ الله عزيز حكيم) ((أي كامل القدرة

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن 3/ 37 ، وروح المعاني 21/ 131 – 136 ، والتحرير والتنوير 21 / 123 .

(2) ينظر: روح المعاني 21 / 131 .

(3) ينظر : الميزان في تفسير القرآن 16 / 275 .

(4) مفاتيح الغيب 25 / 137 ، وينظر: التحرير والتنوير 21 / 123 .

(5) ينظر : مفاتيح الغيب 25 / 137 .

(6) روح المعاني 21 / 132 .

(7) روح المعاني 21 /132 .

(8) مفاتيح الغيب 25 / 138 ، وينظر: روح المعاني 21 / 132 ، والتحرير والتنوير 21 / 123 .

(9) إرشاد العقل السليم 7 / 75 .

فيكون له مقدورات لا نهاية لها وإلاّ لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد ، وهو حكيم كامل العلم ، ففي علمه ما لا نهاية له فتحقّق أنّ البحر لو كان مداداً نفد ما في علمه وقدرته))[1].

ومن أمثلة الآيات الافتراضيّة التي تعطي دلالة المبالغة أيضاً، قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[يونس 63] .

فقد دلّت الآية الكريمة على الافتراض[2]. وإنّ التعبير هنا ((خارج مخرج المبالغة ، والمعنى : أنّه لو فُرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء))[3]. وقد جاء الافتراض تفسيراً لمعنى الآية الآية . والآية الكريمة ترتبط بالآية السابقة لها ، وهي قوله تعالى :﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[يونس 62] . وقد أختلف في إعراب الآية ، فقد رأى الطبرسيّ أنّ ((الذين آمنوا يحتمل موضعه ثلاثة أوجه إعرابيّة : الأوّل : النصب على أنّه صفة أولياء الله . والثاني : الرفع على المدح . والثالث : الرفع على الابتداء وخبره (لهم البشرى*). فإنْ جعلت (الذين آمنوا) صفة لم تقف على (يحزنون) بل تقف على (يتّقون) ، وإنْ جعلته مبتدأ وقفت على (يحزنون) دون (يتّقون) لأنّ (لهم البشرى) خبر عنهم))[4].

وخالف الرازيّ [5][ت 606هـ] الطبرسيّ في حالةٍ واحدة حيث رأى أنّه يجوز في ((الذين آمنوا) النصب على المدح لا الرفع . ورأى أبو السعود أنّ محلّ (الذين آمنوا) ((الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف كأنّه قيل : مَن أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة))[6]. ثُمّ ذكر بعد ذلك آراء أخر في إعرابها ، فـ ((قيل : محلّه النصب أو الرفع على المدح أو على أنّه وصف مادح

---

[1] مفاتيح الغيب 25 / 138، وينظر: إرشاد العقل السليم 7/ 75، وروح المعاني 21 / 13، والميزان 16 / 275 .

[2] ينظر:إرشاد العقل السليم 4 / 160 ، وروح المعاني 11 / 199 .

[3] روح المعاني 11 /199 .

* (لهم البشرى) من الآية التالية لهذه الآية وهي قوله تعالى :﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [يونس64].

[4] مجمع البيان 5 / 295 ــ 296 .

[5] ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 103 .

[6] إرشاد العقل السليم 4 / 159 .

للأولياء))[1]. وقد رأى الرازيّ أنّ الآية الكريمة تصف الكمال الذي يتمتّع به هؤلاء القوم فـ ((آمنوا إشارة إلى كمال حال القوّة النظريّة (وكانوا يتّقون) إشارة إلى كمال حال القوّة العمليّة))[2].

ورأى أبو السعود أنّهم استحقّوا ما استحقّوه ؛لأنّ إيمانهم بكلّ ما جاء من عند الله هو وقايتهم لأنفسهم عمّا يحقّ وقايتها عنه من الأفعال ((يفيده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بيان وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا))[3]. ورأى الطباطبائيّ أنّ معنى الآية سبق التقوى للإيمان وعلّل ذلك بأنّ((الإيمان المسبوق بتقوًى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى))[4] .

.

ومن صور المبالغة : المبالغة في النفي ، أي أنْ ينفي الشيء بأنْ يفرض وجوده ؛ لكونه محالاً ، فيستلزم ذلك بطلان وجوده . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[الزخرف 81] .

فقد جاءت الآية الكريمة على سبيل الافتراض[5] ؛ لغرض ((المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ... وذلك أنّه علّق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المُعلّق بها محالاً مثلها))[6]. وقد جاء التعبير الافتراضيّ مبدوءاً بقوله (قل) الدالّ على التلقين ، وٱستعمل أداة الشرط (إنْ) بدل (لو) ((لجعل ما في حيّزها بمنزلة ما لا قطع بعدمه على طريق المساهلة

---

[1] إرشاد العقل السليم 4 / 159 .

[2] مفاتيح الغيب 17 / 101.

[3] إرشاد العقل السليم 4 / 159 .

[4] الميزان 10 /216 .

[5] ينظر: الكشّا ف 4 / 258 ، ومفاتيح الغيب 27 / 645 ــ 649 ، والبحر المحيط 9 / 390، وتفسير شبّر / 495 ، والتحرير والتنوير 25 / 296 ــ 298 .

[6] الكشّا ف 4 / 258 ــ 259 .

وإرخاء العنان للتبكيت والإفحام))[1]. ومعنى قوله (كان) : صحّ ، وهو أحد استعمالاتها[2]. ولعلّ في تقديم الخبر شبه الجملة (للرحمن) على الاسم (ولد) قصد التخصيص والاهتمام . وجاء جواب الشرط مُصدّراً بالفاء ، والجواب جملة اسميّة ، ولعلّ في ذلك دلالة على الإنصاف حيث إنّ دلالة الاسميّة على الثبوت والدوام لا التجدّد والحدوث ، وفي الآية يكون لدلالة المُداومة على العبادة للولد وعدم الانقطاع عنها إنْ ثبت كونه موجوداً . وقوله (أوّل العابدين) فقد عبّر باسم التفضيل (أوّل) ((والمراد إظهار الرغبة والمسارعة))[3]، وهذا منتهى الإنصاف لهم حيث يعلن مسايرته لهم إنْ صحّ زعمهم . وقوله (العابدين) فهي إمّا على المعنى الشائع من العبادة ، أو أنْ يكون معناها ((الآنفين من عبادته لأنّ مَن كان له ولد لا يكون إلاّ جسماً ، ومَن كان كذلك لا يستحقّ العبادة لأنّه لا يقدر على النعم التي يستحقّ بها العبادة))[4] . وذكر الأخفش معنًى آخر لـ (العابدين) ، فرأى أنّ معنى الآية يكون ((أنا أوّل مَن يغضب من ادّعائكم لله ولداً))[5] ،أي : عبد بمعنى : غضِب .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[الحجرات 7] .

فقد أعطت الآية الدلالة على معنى الافتراض[6] . وقد بدأ التعبير في الآية بقوله (واعلموا) الفعل الأمريّ ويبدو أنّ فيه دلالة التنبيه والتذكير ، ثُمّ أكّد كلامه بقوله (أنّ فيكم رسول الله) المؤكّد بـ (أنّ) ، وقدّم خبر أنّ (فيكم) على اسمها (رسول) دلالة على الحصر((المستتبع

---

[1] روح المعاني 25 / 144 .

[2] ينظر: روح المعاني 25 / 144 .

[3] روح المعاني 25 /144 .

[4] مجمع البيان 9 / 142 ، وينظر: روح المعاني 25 / 145 ، والميزان 17 / 227 .

[5] معاني القرآن ، الأخفش / 88 .

[6] ينظر: روح المعاني 26 / 417 .

زيادة التوبيخ))[1]. وجاء الافتراض بـ (لو) في قوله (لو يطيعكم في كثير من الأمر) ، وهي متبوعةً بالفعل المضارع ؛ كي ((يدلّ أنّهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة))[2]، ورأى أبو السعود – وهو الأصوب فيما يبدو من سياق الآية - أنّ صيغة المضارع ((للدلالة على أنّ امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته))[3]. والطاعة أي : الائتمار لما أمر [4]. ولأنّ النبيّ ﷺهو المتبوع والمسلمين هم التابعون ، فقد ((سمّى موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً))[5] . وقوله (لعنتّم) جواب شرط (لو) وقد جاء بصيغة الماضي ولعلّ ذلك للدلالة على عدم التحقّق ، وهو من عنت أي ((وقع في أمر يخاف منه التلف))[6].ورأى الآلوسيّ في التعبير الافتراضيّ مبالغات عدّة ، هي هي : ((إيثار (لو) ليدّل على الفرض والتقدير ، وأنّ ما بدر من التزيين كان من حقّه أنْ يفرض كما يفرض الممتنعات ، والثاني : ما في العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه وتهجينه مع التوبيخ بإرادة استمرار ما حقّه أنْ يكون مفروضاً فضلاً عن الوقوع ، والثالث : ما في العنت من الدلالة على أشدّ المحذور ، فإنّه الكسر بعد الجبر والرمز الخفي على أنّه ليس بأوّل بادرة ، والرابع : ما في تعميم الخطاب والحري به غير الكمل من التعريض ليكون أردع لمرتكبه وأزجر لغيره))[7] وقد جاء قوله (ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم) ((بطريق الاستدراك بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأوّلين وإحماداً لأفعالهم أي ولكنّه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم (وزيّنه في قلوبكم) حتّى رسخ حبّه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال))[8]. ودلالة الأفعال (حبّب) و(زيّن) و (كرّه) الصيرورة التي هي من معاني وزن (فعّل)[9]. وجيء بقوله

---

(1) روح المعاني 26 / 417 .

(2) مفاتيح الغيب 28 / 105 .

(3) إرشاد العقل السليم 8 / 119 .

(4) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن /529 (طوع) .

(5) مجمع البيان 9 / 325 .

(6) مفردات ألفاظ القرآن /589 (عنت).

(7) روح المعاني 26 / 417 .

(8) إرشاد العقل السليم 8 / 119 – 120 .

(9) ينظر: شذا العرف /23 .

(كرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) مقابلاً لقوله(حبّب إليكم الإيمان)، فقد جعل الله تعالى الكفر مقابلاً للإيمان ، والإيمان لايتبعه إلاّ العمل الصالح ، وحين ذكر الكفر ذكر معه الفسوق والعصيان ، فالفاسق ((مَن التزم حكم الشرع وأقرّ به ثُمّ أخلّ بجميع أحكامه أو بعضه))[1]، والعصيان ((إذا خرج عن الطاعة))[2] . وقوله (أولئك هم الراشدون) ((نوع من الالتفات والخطاب فيه للرسول للرسول ﷺ كأنّه تعالى يبصره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القدم في الرشاد أي إصابة الطريق السوي))[3] .

ويلحظ أنّ من العلماء مَن يُخرج بعض الآيات الافتراضيّة للدلالة على المبالغة، كالرمّانيّ[4] الذي سمّاه (إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج) ، والزركشيّ[5] الذي ذكره في باب (إبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة) ، فجعلوا منه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف 81] .

15- مجاراة الخصم:

من غايات الافتراض القرآنيّ،وهو من قولنا ((جاراه مُجاراة وجِراءً أي جرى معه ، وجاراه في الحديث))[6]، وهذا المصطلح عُرف في علم الجدل ،وقد قال عنه السيوطيّ : ((مجاراة الخصم ليعثر بأنْ يسلّم بعض مقدّماته حيث يراد تبكيته وإلزامه))[7] .

ومن أمثلته الافتراضيّة ، قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف 8] .

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن /636 (فسق) .

(2) مفردات ألفاظ القرآن /570 (عصا) .

(3) روح المعاني 26 / 418 .

(4) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / 105 .

(5) ينظر : البرهان في علوم القرآن 3 / 33 .

(6) لسان العرب 1 / 591 (جرا) ، طبعة الأعلميّ .

(7) معترك الأقران 1 / 463 ، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية 3 / 193 .

فقد جاءت الآية على سبيل الافتراض[1] ، وجاء التعبير الافتراضيّ مجارياً للخصم في ادّعائه ، فمعنى الآية الكريمة : (قل إنْ افتريته ...) ((على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه . فلا تقدرون على كفّه عن معاجلتي ، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنّي ، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه))[2] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مسبوقاً بـ (قل) التلقينية ، وأسلوب الافتراض في الآية ((أسلوب جدليّ بيانيّ فيه مجاراة للخصم (مؤقتة) للتوصّل إلى إبطال دعواه ، وإيثار (إنْ) على (إذا) لما في (إنْ) من الإيذان بتخلّف الشرط ، وفي (فعليّ إجرامي) إيجاز حذف ، والتقدير : عليّ عقوبة إجرامي . وإيثار (إجرامي) على (افترائي) إشارة إلى أنّ هذا الافتراء إثم عظيم يعاقب فاعله أنكر عقاب))[3] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف 39] .

جاءت الآية الكريمة معطيةً معنى الافتراض[4] . وقد جاء التعبير الافتراضيّ مستعملاً همزة الاستفهام ، وقوله (أرباب متفرّقون) كناية عن الأصنام[5] أو الملائكة ؛ ((لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة وهم عندهم صفات الله سبحانه أو تعيينات ذاته المقدّسة ... فيفرّقون بين الصفات بتنظيمها طولاً وعرضاً))[6] ، وفي إيراد الدليل عن طريق الاستفهام في قوله (أأرباب) ؛ ((حتى لا تنفر

---

[1] ينظر: الكشاف 4 / 289 ، ومفاتيح الغيب 28 / 8 ، والبحر المحيط 9 / 434.

[2] الكشاف 4 / 289 ، وينظر:أنوار التنزيل وأسرار التأويل / 178 ، والفرضيّة في التعبير القرآنيّ الكريم /11.

[3] التفسير البلاغيّ للإستفهام في القرآن الحكيم 2 / 107 .

[4] ينظر: مفاتيح الغيب 18 / 112 -113 ، والميزان 11 / 78 ، والتحرير والتنوير 12 / 64 .

[5] ينظر: التفسير البلاغي للإستفهام في القرآن الحكيم 2 / 129 .

[6] الميزان 11 / 78 .

طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام))[1] ، وفي استعمال وصف (الأرباب) ((مجاراة لهم على ما كان شائعاً في الملّة التي ينتميان إليها . ويكون هذا القول من يوسف عليه السلام من باب مجاراة الخصم ريثما يكشف لهما عن خطأ هذا المعتقد))[2] . وتنكير (أرباب) للكثرة[3] والتحقير[4] ، كما أنّ في وصفها بـ (متفرّقون) إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة[5] . واسم الجلالة الجلالة مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم ، والتقدير : أم الله الواحد القهّار خير[6] ، ويلحظ ويلحظ أنّ في ((وصف اسم الجلالة (الله) بـ (الواحد القهّار) لها سر بيانيّ بديع فـ (الواحد) لمقابلة الكثرة في (أرباب) و(القهّار) لمواجهة العجز والضعف في (متفرّقون) ، وهذا النسق في ترتيب الصفات من قبيل اللف والنشر المرتّب ، لأنّ (الواحد) مقابل (أرباب) و (القهار) مقابل (متفرقون) ، فالأول للأول ، والثاني للثاني))[7].

16- الوعيد :

وهو من الغايات التي دلّ عليها الافتراض القرآنيّ ، ويكون في الشرّ خاصّة ، بخلاف الوعد الذي يكون في الخير والشر[8].

ومن أمثلته الافتراضيّة ، قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر 47] .

فقد أعطت الآية معنى الافتراض[1]، وجاءت غايته منصبّةً في الوعيد[2]. وجاء التعبير الافتراضيّ بالأداة (لو) وجاءت الجملة الاسميّة بعده مؤكّدة بـ (أنّ) ، ولذا يكون فعل الشرط

---

[1] البحر المحيط 6 / 278 .

[2] التفسير البلاغيّ للإستفهام 2 / 129 .

[3] ينظر : مفاتيح الغيب 18 / 112 .

[4] التفسير البلاغيّ للإستفهام 2 / 129 .

[5] مفاتيح الغيب 18 / 112.

[6] ينظر: التفسير البلاغيّ للإستفهام 2 / 129 .

[7] المصدر نفسه 2 / 129 .

[8] ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 875 (وعد) ، ومختار الصحاح / 728 .

مُقدّراً بـ (ثبت) كما سبق . ولعلّ في تقديم خبر أنّ (للذين ظلموا) على اسمها (ما في الأرض) دلالة التخصيص لهم بهذا الوعيد ، وقوله (جميعاً) توكيداً للاستغراق . ويلحظ أنّ جعل كلّ ما في الأرض فديةً للخلاص من شدّة العذاب ، فيه ((وعيد شديد وإقناط كلّيّ لهم من الخلاص))[3].

وقوله (بدا) أي: ((ظهر ظهوراً بيّناً))[4]، أمّا (يحتسبون) فهو من الحسبان أي : ((أنْ يحكم لأحد النقيضين من غير أنْ يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الإصبع ، ويكون بعرض أنْ يعتريه فيه شكّ ، ويقارب ذلك الظن ، لكنّ الظن أنْ يخطر النقيضين بباله ، فيغلب أحدهما على الآخر))[5]. ولذا فمعنى الآية يكون : ((ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة مبالغة في الوعيد))[6]. فالافتداء بكلّ ما في الأرض من أموال وذخائر من قِبل الكفّار سببها أنّهم سيواجهون ((أموراً على صفة هي فوق ما تصوّروه وأعظم وأهول ممّا خطر ببالهم لا أنّهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها ويُذعنون بها ، وبالجملة كانوا يسمعون أنّ لله حساباً ووزناً للأعمال ، وقضاءً وناراً وألواناً من العذاب ، فيقيسون على ما سمعوه ـ على إنكار منهم له ـ على ما عهدوه من هذه الأمور في الدنيا فلمّا شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم ممّا كان يخطر ببالهم من صفتها))[7].

وممّا ورد ذكره يمكن لنا القول إنّ الافتراض القرآنيّ قد اختلفت غاياته ، وتعدّدت دلالاته ، فكانت مرّةً جدليّة احتجاجيّة تأتي لإقناع الخصم أو إفحامه ، وتأتي أخرى بلاغيّة تهدف لبيان غرض بلاغيّ ، فتكون للمبالغة أو للتعريض أو للتهييج أو غيرها .

---

(1) ينظر: روح المعاني 24 / 364 .

(2) ينظر:إرشاد العقل السليم 7 / 258، وروح المعاني 24 / 364 ، والميزان 17 / 118 .

(3) إرشاد العقل السليم 7 / 258 .

(4) مفردات ألفاظ القرآن /113 (بدا) .

(5) المصدر نفسه / 234 (حسب) .

(6) روح المعاني 24 / 364 .

(7) الميزان 17 / 118 .

وتشمل الدلالات الجدليّة الاحتجاجيّة : إلجام الخصم بالحجّة ، والاستدراج ، والإنكار، والتكذيب ، وتأتي هذه الدلالات بأدّلة برهانيّة لا تترك للخصم فيها مجالاً للجدل والمحاججة ، فلا يحر جواباً رادّاًعلى الافتراض ، وهذا ما نجده مع دلالة إلجام الخصم بالحجّة . وتأتي الدلالة للتخفيف من طغيان الخصم المعاند وتطرّفه ، وذلك بأنْ تفرض له فروضاً يقيس عليها ، فيحدّد على أثرها موقفه ، فيختار ما يراه صائباً . وجاءت بعض الدلالات ردّاً على الخصم ، إمّا بالإنكار مع التقريع ، وإمّا مع التكذيب ، فتكون هذه الافتراضات إمّا منكِرة على الخصوم مزاعمهم ، مقرّعة لهم على الإتيان بها ، أو أنْ تكون مكذّبة لهم فيما يدّعون ، فتكون داحضة لمزاعمهم وبهتانهم .

أمّا الدلالات البلاغيّة ، فمنها التهييج الذي يأتي فيه الخطاب غالباً موجّهاً للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو وإنْ كان موجّهاً لشخص النبيّ فإنّ المعني به العامّة ؛ كي لا يفتروا ولا تلين عزيمتهم . ومن الدلالات البلاغيّة ، التعريض ، الذي يكون ذا تعبير رمزيّ ، أو يكون ذا مدلول ، هو أشبه ما يكون بالكناية . وكانت بعض الافتراضات غايتها استهزائيّة ، وتهكّميّة وذلك بمسايرة المجادل في كلامه ، وإظهار الاقتناع بما يقول ، وهو لا يريد ذلك يقيناً . وجاءت بعض الافتراضات مُهوّلةً للأحداث ، مثيرةً لفزع المخاطب ، وبخاصّةً ما تناول منها يوم القيامة ، وما ينتظر الكافر من عذاب ، وغياب الشفيع ، والناصر ، والمَلجأ ، والمهرب من ذلك العذاب . وجاءت بعض الافتراضات ، مُوبّخةً للمخاطب الكافر أو المنافق على إصراره على الكفر أو النفاق ، أو تكون مُتوعّدةً أو مُنبّهةً على الضلال . وجاءت بعض الافتراضات ، لتعطي الدلالة التي تحمل المبالغة في التعبير عن المعنى ، فياتي الافتراض فيها ، إمّا تسليماً ، أو تمثيلاً ، فيخرج الكلام ، إمّا مخرج الشك ، أو إبراز المستحيل في صورة الممكن .

الخاتمة

الافتراض أسلوب من أساليب التعبير القرآنيّ ، ويعني : إيجاد علاقة بين أمرين أو أكثر يكون الأوّل مُتصوّر الحدوث ، ويكون الثاني نتيجة لذلك التصوّر . وهو أسلوب بلاغيّ تصويريّ ، يستعمل فيه التخييل والتمثيل لرسم صورة لا وجود لها في الواقع ، وينبني على هذا الوجود نتائج تتحقّق بناءً على ذلك . ولم يتوسّع علماء اللغة والبلاغة والتفسير في هذا الأسلوب القرآني ، بل كانوا يشيرون إشارات يسيرة إلى بعض المعاني والدلالات التي يفيدها هذا التعبير ، وهي لا تشمل إلاّ جزءاً أو جانباً معيّناً من جوانب هذا الأسلوب . ولعلّ في تنوّع الإشارات والمصطلحات الموضوعة لهذا الأسلوب دلالة على اهتمامهم بزاوية منه دون التنبّه على وجود زوايا أخرى له ،

من ذلك قولهم بالمذهب الكلاميّ وتمثيلهم له بقوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء 22] ، أو قول ابن الأثير بالاستدراج ، وتمثيله له بقوله تعالى :﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر 28] ، أو القول بالتسليم الذي قال به ابن أبي الأصبع ، ومثّل له بقوله تعالى :﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون 91] ، وغيرها .

إنّ المعجمات اللغويّة – فيما اطّلعت عليه – لم تذكر لمادّة (فرض) المعنى الذي يعني : تصوّر وجود شيء ، وترتيب حصول نتيجة على هذا الوجود . بل كانت المعاني المتداولة لهذه اللفظة ، هي معنى الوجوب ، أو التبيين أو الحزّ وذكروا أيضاً معنى التقدير الملزم للواقع ، ولا سيّما في تحديد مقدار حقّ الزكاة . وممّا يلحظ في هذه المسالة أنّ كثيراً من العلماء القدامى قد استعملوا هذه اللفظة بمعناها التصويريّ التخييليّ في أثناء حديثهم عن بعض المسائل اللغويّة أو الكلاميّة كالذي لوحظ في كلام ٱبن جنّي والسكاكيّ والأشمونيّ وغيرهم .

ولم ترد لفظة (فرض) ومشتقّاتها في القرآن الكريم إلاّ بالمعنى اللغويّ المتعدّد الدلالات . أمّا المعنى الاصطلاحيّ موضوع الرسالة فلم ترد في ألفاظ التعبير القرآنيّ ، إنّما ورد المعنى عن طريق أساليب قرآنيّة متعدّدة عبّرت عن هذا المعنى ، فالافتراض لم يعتمد على الدلالة اللفظيّة لمعنى لفظة (فرض) أو (افترض) بل اعتمد على أساليب تعبيريّة يمكن من خلالها استنباط معنى الافتراض، فهو يعتمد في معرفته بطريقة مباشرة على أسلوب الشرط النحويّ ويبرز ذلك جليّاً في أدوات معيّنة ، أهمها : (إنْ – لو– لئن – مَن) ، ولا يعني هذا أنّ كلّ أسلوب شرطيّ يدلّ على الافتراض ، فقد يكون الأسلوب شرطيّاً ولا يدلّ على الافتراض ، فيكون التأويل والتأمّل في النص هما العاملان المحدّدان للقول بالافتراض في النص القرآنيّ في أغلب الأحيان.

أمّا الطريقة غير المباشرة ، فمن أهم العوامل التي تدلّ على أسلوب الافتراض ، تأمّل النص ، وملاحظة بعده عن الواقع المعتاد ، فضلاً عن التقدير والتأويل و التنغيم الذي يخرج الأسلوب اللغويّ من معناه الحقيقيّ إلى المعنى المجازيّ الذي يؤديه ، ولعلّ من أهم هذه الأساليب أسلوب

الاستفهام ، وهو يظهر في الأداتين (الهمزة - أم المنقطعة) ، وفي أساليب إنشائيّة أخرى ، كالنهي ، والأمر ،وكذا يرد في أساليب خبريّة كالنفي ، فضلاً عن المثل القرآنيّ الذي كان وسيلة من وسائل الافتراض .

فالافتراض وسيلة معرفيّة هدفها الوصول إلى الحقيقة في مسألة غامضة أو وضع حلول لقضيّة هي موضع جدل وخصام بين طرفين أو أكثر ، فيكون التعبير الافتراضيّ على شكل حجّة أو برهان يؤكّد حقيقةً أو يدحض ادّعاء أو يستقصي مسألة فلا يترك وجهاً من وجوهها المحتملة إلاّ ويتصوّر وجوده ؛ لذا فقد استعمل هذا الأسلوب كثيراً في العلوم الإنسانيّة . ولعلّ أهمّ هذه العلوم ، علم الفقه، وعلم الاستدلال والجدل والمنطق ، وعلم النحو .

وجاء الافتراض في السور المكّيّة في مقام الاحتجاج على الكفّار في مسائل منها : وحدانيّة الله تعالى ، وتنزيهه عن الولد والشريك والصاحبة ، وتنزيه النبيّ عليه السلام عن الافتراء على الله تعالى ، وتنزيه الملائكة عن ادّعاء الربوبيّة من دون الله تعالى ؛ لذا كان الافتراض في معظم أحواله جدليّاً احتجاجيّاً ، فيكون على سبيل الحجج والبراهين التي يدحض فيها مقولات الكفّار . أمّا في السور المدنيّة ، فقد جاء ردّاً على مزاعم المنافقين وأهل الكتاب ، أو تحذيراً من اتّباع أهواء المنافقين وأهل الكتاب .

وتنوّعت الإشارات التي ذكرها العلماء في أساليب الافتراض – وهي إشارات غير شاملة له ، وإنّما هي التفاتة إلى معنىً من معانيه أوغاية أو دلالة من دلالاته – ولعلّ أهمّ تلك الإشارات (المذهب الكلاميّ – الاستدلال بالتعليل – الاستدراج – التسليم – المحاجّة – إلجام الخصم بالحجّة) وغيرها ، وهذه الإشارات هي أقرب إلى دلالة الأسلوب منها إلى الأسلوب نفسه ، لكونها غير شاملة إلاّ لجزء من جزئيّات الأسلوب . وهذه الدلالات منها ما يكون جدليّاً احتجاجيّاً ، ومنها ما يكون بلاغيّاً .

وارتبط أسلوب الافتراض بعلوم البلاغة الثلاثة ، فلم يختصّ بعلم من علومها فهو كأسلوب معنويّ يوجد في الشرط والاستفهام والأمر والنهي ، ونجده في البيان في المجاز والكناية والاستعارة ، وهو في البديع موجود في المذهب الكلاميّ والاستدراج .

وتحديد معنى الافتراض للآية القرآنيّة كان أمراً اجتهاديّاً معتمداً على التأويل عند علماء التفسير والبلاغة ؛ لذا فقد يتّفق جماعة من العلماء على القول بالافتراض في آية ما ، ولا يقال ذلك في غيرها أو في آية مشابهة لها في المعنى . بل قد يكون المعنى للآية واضح الخروج إلى الافتراض ولا يقول به واحد من العلماء ، كما ظهر في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء 78] .

والشائع عند علماء النحو أنّ (لو) حرف امتناع لامتناع ، لكنّها في سياق التعبير الافتراضيّ لا تعطي دائماً هذه الدلالة بدليل قوله تعالى :﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾[فاطر 14] ، وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنفال 23] ، فهم لا يستجيبون سمعوا أم لم يسمعوا ،وهم متولّون سواءً أسمعهم أم لم يُسمعهم .

ويمكن تقسيم الافتراض أنواعاً بحسب ما يعطيه كلّ تعبير افتراضيّ ، ولعلّ أهمّ الأنواع هي : الممكن ، المحال ، الزمانيّ ، المكانيّ ، التصويريّ . فالافتراض الممكن منه ما كان حصوله ممكناً للبشر ، ومنه ما كان مستحيلاً على البشر القيام به ، إلاّ أنّه إذا تعلّق حصوله بالذات الإلهيّة ، فهو ممكن لعدم استحالة شيء على الله تعالى . أمّا المحال منه ، فهو ما لا إمكانيّة لحصوله ، وهو يأتي لإثبات نقيض ما هو مفترض ؛ لكون نتيجة الافتراض غير حاصلة ، فيكون أصل الافتراض لا وجود له . وأكثر ما يستعمل في مواضع الاحتجاج على الخصم المعاند ، فيأتي له بالفرض المحال الذي يعلم عدم وجوده أو وقوعه ؛ ليثبت له أنّ في عدم حصوله دلالة على صحّة نقيضه .

وجاء الافتراض الزمانيّ ، إمّا مصوّراً لزمان غير كائن ، كالزمن السرمدي للّيل أو للنهار ، وهو غير واقع ، لكنّه ممكن أنْ يقع لو شاء الله ذلك . وإمّا أنْ يكون مصوّراً لإحدى حالتين أحداهما عكس الآخرى ، هما : افتراض عودة الكافر من الحياة الآخرة إلى الدنيا ، أو افتراض الحياة الآخرة قبل وقوعها وافتراض علوّ المنزلة فيها من قِبل كافرٍ مغرور . أو بافتراض مدّة من الزمان لا وجود لإنسانٍ يمكن أنْ يعيشها ، كما في قوله تعالى :﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج 4] .

وأمّا الافتراض المكانيّ ، فهو إمّا افتراض لوجود بعض الناس في مكان أو أماكن في وقتٍ بعينه ، ولعلّ أهمّ هذه الأوقات ساعة الموت أو حين وقوع المعارك ، وأكثر مَن يفرض لهم هذا الافتراض المنافقون الذين إعتادوا على الفرار . وجاء الافتراض المكانيّ أحياناً تصويراً لعظم المنزلة ، فيفترض القرآن وقد نزل على جبل ، وقد خشع هذا الجبل وتصدّع من خشية الله تعالى ، وجيء بهذا الافتراض المكانيّ لغاية بلاغيّة ، هي توبيخ الإنسان على قسوته وقلّة خشوعه وتدبّره لما ينزل له من كلام .

وأمّا الافتراض التصويريّ ، فهو افتراض يرسم صورةً فنيّة لمشهد معيّن ويجعلها صورةً حيّةً ناطقةً أحياناً، ويؤتى به وصفاً لحال أو بياناً لحقيقة أو تشخيصاً لأمور حسّيّة لا يدركها العقل البشريّ ، ولا يستشعر أهمّيتها إلاّ بالتصوير لها .

وأنواع الافتراض ليست منفصلة أحدها عن الآخر ، بل إنّ هنالك تمازجاً وترابطاً بين هذه الأنواع ، فقد يكون الافتراض ممكناً وهو على سبيل التصوير أوافتراضاً مكانيّاً ، أو يكون زمانيّاً وهو محال وهكذا .

خرج الافتراض لدلالات كثيرة يحدّدها السياق الذي ورد ت فيه ، وهي في مجملها إمّا احتجاجيّة على شكل عبارة كلاميّة حاملة الدليل أو الحجّة على الخصم المنازع ، وإمّا أنْ تأتي لتأدية أغراض بلاغيّة . فالدلالات الاحتجاجيّة مثل (الاستدراج – إلجام الخصم بالحجّة – التسليم – التعجيز) وغيرها ، أمّا الدلالات البلاغيّة ، فمثل (التعريض – التوبيخ – التهكّم – الإنكار – التكذيب – الوعيد) وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أنّ التعبير الافتراضي كثيراً ما يأتي مسبوقاً بـ (قل) التلقينية التي خصّ الله بها رسوله ﷺ ، وفي هذا التلقين دلالة على قوة الحجّة والجزم في الرد ، فضلاً عمّا فيه من قوة الردع لما يقولون ويفترون .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطيّ (ت 911 هـ)– ضبطه وصححه وخرّج آياته : محمد سالم هاشم – الطبعة الثانية - منشورات ذوي القربى – قم – 1429 هـ .

❁ أثر المتكلّمين في تطور الدرس البلاغيّ (القاضي عبد الجبّار نموذجاً) – د . محمد مصطفى أبو شوارب ، و د. أحمد محمد المصريّ – الطبعة الأولى – دار الوفاء – الإسكندريّة – 2006 م .

❁ أثر النحاة في البحث البلاغيّ – عبد القادر حسين - دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة – (د . ت) .

❁ أدب الشريعة الإسلاميّة ، دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأئمّة الأربعة عشر معصوماً (ع) – د . محمود البستانيّ – الطبعة الأولى - مؤسسة السبطين – إيران – 1424 هـ .

❁ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم –أبو السعود محمد بن محمد العماديّ (ت 951 هـ) – الطبعة الرابعة – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – 1414 هـ - 1994 م .

❁ أساس البلاغة – جار الله الزمخشريّ (ت 538 هـ)– دار صادر – بيروت – 1399 هـ -1979 م .

❁ أساليب البديع في القرآن – جعفر باقر الحسينيّ – الطبعة الأولى – مؤسسة بوستان كتاب – إيران – 1429 هـ .

❁ أساليب البيان في القرآن – جعفر باقر الحسنيّ – الطبعة الأولى – مؤسسة الطباعة والنشر – طهران – 1413 هـ .

❁ أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين – قيس إسماعيل الأوسيّ – بيت الحكمة – جامعة بغداد – 1982 م .

❁ أساليب المعاني في القرآن – جعفر باقر الحسينيّ – الطبعة الأولى – مؤسسة بوستان كتاب – إيران – 1428 هـ .

❁ الإستثناء في القرآن الكريم – صلاح بن عوض بن عبد الله مريبش – الطبعة الأولى – عالم الكتب الحديث – إربد – 2006 م .

❁ أسرار البلاغة في علم البيان – عبد القاهر الجرجانيّ (ت 471 هـ) – تحقيق : عبد الحميد الهنداويّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1422 هـ - 2001 م .
❁ الأسلوب ، دراسة بلاغيّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة – أحمد الشايب – الطبعة الثالثة – مكتبة النهضة المصريّة – القاهرة – 1952 م .
❁ أسلوب الحذف في القرآن الكريم ، وأثره في المعاني والإعجاز – د . مصطفى شاهر خلوف- الطبعة الأولى – دار الفكر - عمّان - 1430 هـ - 2009 م .
❁ أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم – صبحي عمر شو – الطبعة الأولى – دار الفكر – عمّان – 1430 هـ - 2009 م .
❁ الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة – محمد بن عليّ بن محمد الجرجانيّ (ت 729 هـ)– علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1423 هـ - 2002 م .
❁ أصول البيان العربيّ في ضوء القرآن الكريم – د . محمد حسين عليّ الصغير- الطبعة الأولى – دار المؤرّخ العربيّ – بيروت – 1420 هـ - 1999 م .
❁ الأصول في النحو – أبو بكر محمد بن سهل بن السرّاج (ت316 هـ)– تحقيق : عبد الحسين الفتليّ – دون ذكر مكان وتأريخ الطباعة .
❁ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجنكيّ الشنقيطيّ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1427 هـ - 2007 م .
❁ الإعجاز البيانيّ للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ، دراسة قرآنيّة لغويّة وبيانيّة – د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ – الطبعة الثالثة – دار المعارف – القاهرة – (د . ت) .
❁ إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلاّنيّ(ت 403 هـ)– تحقيق : أحمد صقر – الطبعة الخامسة – دار المعارف – القاهرة – 1997 م .

❁ إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة – مصطفى صادق الرافعيّ – الطبعة الأولى – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – 1425 هـ - 2004 م .
❁ أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد – الشريف المرتضى علي بن الحسين العلويّ(ت 436 هـ) – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الثانية – دار ذوي القربى – قم – 1438 هـ .
❁ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف بتفسير البيضاويّ – القاضي ناصر الدين الشيرازيّ البيضاويّ (ت 691 هـ)– حققه وبيّن الأحاديث الموضوعة والضعيفة والإسرائيليات فيه : الشيخ عبد القادر عرفان العشاحسونة – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1429 هـ - 2009 م .
❁ الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزوينيّ (ت 739 هـ) – تحقيق : محمد عبد القادر الفاضليّ – المكتبة العصريّة – بيروت – 1428 هـ - 2007 م .
❁ البحر المحيط في التفسير – أبو حيّان الأندلسيّ (ت 745 هـ) - بعناية : عرفان العشاحسونة – مراجعة : صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – 1425 هـ - 2005 م .
❁ البديع – عبدالله بن المعتز(ت 296 هـ) – إعتنى بنشره وتعليق المقدّمة والفهارس : إغناطيوس كراتشقوفسكي – الطبعة الثالثة – دار المسيرة – الكويت – 1402 هـ - 1982 م .
❁ بديع القرآن أو البرهان في إعجاز القرآن – إبن أبي الأصبع(ت 654 هـ) – تحقيق : د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثيّ – منشورات المجمع العلميّ – 1426 هـ - 2006 م .
❁ البرهان في علوم الفرآن – بدر الدين الزركشيّ (ت794 هـ)– تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصريّة – بيروت – 1427 هـ - 1990 م .
البرهان في علوم القرآن – بدر الدين الزركشيّ – تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – 1408 هـ - 1988 م .

❁ بلاغة التراكيب ، دراسة في علم المعاني – د . توفيق الفيل – الطبعة الثانية – 1419 هـ - 1998 م .
❁ البلاغة تطوّر وتأريخ – شوقي ضيف – الطبعة الحادية عشر – دار المعارف – مصر – (د . ت) .
❁ البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ – د . محمود البستانيّ – الطبعة – الأولى – دار الفقه – قم – 1424 هـ .
❁ البلاغة عرض وتوجيه وتفسير – د . محمد بركات حمدي أبو عليّ – الطبعة الأولى – دار الفكر للنشر والتوزيع – عمّان – 1403 هـ - 1983 م .
❁ البلاغة والتطبيق – د . أحمد مطلوب ، د . كامل حسن البصير – الطبعة الثانية – مكتبة اللغة العربيّة – بغداد – 1410 هـ - 1990 م .
❁ البيان في روائع القرآن – د . تمّام حسّان – الطبعة الثانية – عالم الكتب – القاهرة – 1420 هـ - 2000 م .
❁ تأويل مشكل القرآن – إبن قتيبة الدينوريّ) ت276 هـ)– علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية – بيروت – 1428 هـ - 2007 م .
❁ تاج العروس من جواهر القاموس – محمد مرتضى الحسينيّ الزبيديّ (ت 1205 هـ)– تحقيق : عبد العليم الطحاويّ – راجعه : عبد الستار أحمد فرّاج – مطبعة حكومة الكويت – 1400 هـ - 1980 م .
❁ التبيان في البيان – الحسين بن محمد الطيبيّ (ت 743 هـ)– قرأه وعلّق عليه : يحيى مراد – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1425 هـ - 2004 م .
❁ التبيان في تفسير القرآن – الشيخ الطوسيّ (ت 460 هـ) - تحقيق : أحمد حبيب قصير العامليّ – الطبعة الأولى – الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1431 هـ - 2010 م .

❁ تحرير التحبير في صناعة الشعر – إبن أبي الأصبع المصريّ (ت 654 هـ) - تقديم وتحقيق : د . حفني محمد شرف – لجنة إحياء التراث الإسلاميّ – الجمهوريّة العربيّة المتحدة – (د . ت) .
❁ التحقيق في كلمات القرآن – العلاّمة حسن مصطفويّ – الطبعة الأولى – مركز نشر آثار العلاّمة المصطفويّ – طهران – (د . ت) .
❁ التذكرة في القراءات الثمان – طاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقريّ (ت 399 هـ)– دراسة وتحقيق : أيمن رشدي سويد – الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن – جدة – (د . ت) .
❁ التراكيب الإسناديّة في الجمل : الظرفيّة – الوصفيّة – الشرطيّة – د . عليّ أبو المكارم – الطبعة الأولى – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة – 1428 هـ - 2007 م .
❁ التصوير الفنّي في القرآن – سيّد قطب – دار المعارف – مصر – 1959 م .
❁ التطور النحويّ للغة العربيّة – براجستراسر – ترجمة : د. رمضان عبد التوّاب – الطبعة الرابعة – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1423هـ - 2003 م .
❁ التعبير القرآنيّ – د . فاضل السامرّائيّ – الطبعة الخامسة – دار عمّار – عمّان – 1428 هـ - 2007 مّ .
❁ تعدّد المعنى الوظيفيّ للأدوات النحويّة – د . عبد الكاظم محسن الياسريّ – سلسلة كتاب آداب – 2007 م .
❁ التعريفات – عليّ بن محمد الجرجانيّ (ت 816 هـ)– الطبعة الأولى – مؤسسة التأريخ العربيّ – بيروت – 1424 هـ - 2003 م .
❁ التفسير البلاغيّ للإستفهام في القرآن الحكيم - عبد العظيم إبراهيم المطعنيّ – الطبعة الأولى – مكتبة وهبة – القاهرة – 1420 هـ - 1999 م .
❁ تفسير التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – الطبعة الأولى – مؤسسة التأريخ – بيروت – 1420 هـ - 2000 م .

❁ تفسير القرآن العظيم – الحافظ ابن كثير(ت 774 هـ) – تحقيق : د . محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، عبد العزيز غنيم – دار الشعب – القاهرة – (د . ت) .
❁ تفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير شبّر – السيد عبد الله شبّر(ت 1242 هـ) – الطبعة الأولى – منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1430 هـ - 2010 م .
❁ التفسير الواضح – د . محمد محمود حجازيّ – الطبعة الأولى – دار الكتاب العربيّ – بيروت – 1402 هـ - 1982 م .
❁ تلخيص البيان في مجازات القرآن – تصنيف الشريف الرضيّ (406 هـ) – حققه وقدّم له ووضع فهارسه : محمد عبد الغني حسن – الطبعة الثانية – دار الأضواء – بيروت – 1406 هـ - 1986 م .
❁ تلخيص التمهيد : موجز دراسات مبسّطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم – محمد هادي معرفة – الطبعة السادسة – مؤسسة النشر الإسلاميّ – قم – 1428 هـ .
❁ تهذيب اللغة – أبو منصور الأزهريّ (ت 370 هـ) – تحقيق : أحمد عبد العليم البردونيّ ، مراجعة : عليّ محمد البجاويّ – الدار المصريّة للتأليف والترجمة – القاهرة - (د . ت) .
❁ الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ (ت 671 هـ)– تحقيق : سالم مصطفى البدريّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1420 هـ - 2000 م.
❁ الجنى الداني في حروف المعاني – الحسن بن القاسم المراديّ (ت 749 هـ)– تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1413 هـ - 1992 م .
❁ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع – أحمد الهاشميّ – إشراف : صدقي محمد جميل – الطبعة الثانية – مؤسسة الصادق للطباعة والنشر – طهران – 1384 هـ .

❁ الجواهر الحسان في تفسير القرآن المسمّى بتفسير الثعالبيّ – عبد الرحمن بن محمد الثعالبيّ(ت 875 هـ) – حقق أصوله وعلّق عليه وخرّج أحاديثه : عليّ محمد معوّض ، عادل أحمد عبد الموجود ، وشارك في تحقيقه : د . عبد الفتاح أبو سنّة – الطبعة الأولى – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – 1418 هـ - 1997 م .
❁ جواهر القرآن – أبو حامد الغزاليّ (ت 505 هـ)– تحقيق : محمد رشيد رضا القبّانيّ – الطبعة الأولى – دار إحياء العلوم – بيروت – 1985 م .
❁ حاشية الصبّان(ت 1206 هـ) ، شرح الأشمونيّ على ألفيّة ابن مالك – تحقيق : محمود بن الجميل – الطبعة الأولى – مكتبة الصفا – القاهرة – 1423 هـ - 2002 م .
❁ الحيوان – أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ) – تحقيق : عبد السلام محمد هارون – الطبعة الثانية – مطبعة البابي الحلبي – مصر – 1384 هـ - 1965 م .
❁ خزانة الأدب – تقي الدين بن حجّة الحمويّ (ت 837 هـ)– دراسة وتحقيق : د . كوكب دياب – الطبعة الثانية – دار صادر – بيروت – 1425 هـ - 2005 م .
❁ الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني(ت 392 هـ)- تحقيق : محمد عليّ النجّار – الطبعة الرابعة – دار الشؤون الثقافيّة العامة – بغداد – 1990 م .
❁ خواطر من تأمل لغة القرآن – د . تمّام حسّان – الطبعة الأولى – عالم الكتب – القاهرة – 1427 هـ - 2006 م .
❁ دراسات بلاغيّة – د . بسيونيّ عبد الفتاح فيّود – الطبعة الثانية – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – مصر – 1406 هـ - 2006 م .
❁ دراسات في اللسانيات العربيّة (المشاكلة – التنغيم – رؤى تحليلية) – عبد الحميد السيّد – الطبعة الأولى – دار الحامد للنشر والتوزيع – عمّان – 2004 م .
❁ دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجانيّ(ت 471 هـ) – تعليق وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي –الطبعة الأولى – مكتبة القاهرة – القاهرة – 1389 هـ - 1969 م .

❁ دلالـة السـياق – ردة الله بـن ردة بـن ضـيف الله الطلحـيّ – الطبعـة الأولـى – سلسـلة الرساءل الجامعيّة الموصى بطبعها ، جامعة أم القرى – مكة المكرّمة – 1423هـ .
❁ روح المعـاني فـي تفسـير القـرآن العظـيم والسـبع المثـاني – شـهاب الـدين محمـود الآلوسيّ(ت 1270 هـ) – قابلها على المطبوعـة المنيريّـة وعلّق عليهـا : محمد أحمد الأمد ، عمر عبد السلام السلاميّ- الطبعـة الأولـى – دار إحيـاء التـراث العربـيّ – بيروت – 1420 هـ - 1999 م .
روح المعـاني فـي تفسير القرآن العظيم والسبع المثـاني – شـهاب الـدين الآلوسـيّ – تحقيق : عليّ عبد الباري عطية – الطبعة الأولـى – دار الكتـب العلميّـة – 1422 هـ - 2001 م .
❁ الزمان الدلالي ، دراسة لغويّة لمفهوم الزمن وألفاظه فـي الثقافـة العربيّـة – د . كـريم زكي حسام الدين – الطبعة الثالثة – الهيأة العامة للكتاب – القاهرة – 2008 م .
❁ السـبعة فـي القـراءات – أبـو بكـر أحمـد بـن موسـى بـن العبـاس بـن مجاهـد (ت 324 هـ)– تحقيق : شوقي ضيف – الطبعة الثالثة – دار المعـارف – مصـر – 1988 م .
❁ سـر الفصـاحة – إبـن سـنان الخفـاجيّ(ت 466 هـ)- الطبعـة الأولـى – دار الكتـب العلميّة – بيروت – 1402 هـ - 1982 م .
❁ شذا العرف في فن الصرف – أحمد الحملاويّ – مطبعة دار الكتـب المصـريّة – (د . ت) .
❁ شرح الأشمونيّ على ألفيّة ابن مالك – نـور الـدين علـيّ بـن محمد الأشمونيّ(ت 900 هـ)– قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه : حسن حمد – الطبعـة الأولـى – دار الكتـب العلميّة – بيروت – 1415 هـ - 1994 م .
❁ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – بهاء الدين عبد الله بـن عقيـل(ت 672 هـ) – تحقيق : محمد محيـي الـدين عبـد الحميـد – الطبعـة العشـرون – دار مصـر للطباعـة – القاهرة – 1400 هـ - 1980 م .

❁ شرح ديوان المتنبّيّ – وضعه : عبد الرحمن البرقوقيّ – الطبعة الثانية – دار الكتاب العربيّ – بيروت – 1357 هـ - 1938 م .
❁ شرح المختصر على تلخيص المفتاح – سعد الدين التفتازانيّ (ت 792 هـ)– الطبعة الثانية – منشورات إسماعيليان – 1427 هـ .
❁ الصاحبيّ – أحمد بن فارس (ت 395 هـ)– تحقيق : أحمد صقر – مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربيّة – 1977 م .
❁ الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربيّة – إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت 400 هـ)– تحقيق : أحمد عبد الغفورعطار – الطبعة الرابعة – دار العلم للملايين– بيروت – 1990م .
❁ الصناعتين ، الكتابة والشعر – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (ت ت 400 هـ) – تحقيق : عليّ محمد البجاويّ ، محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الثانية – دار الفكر العربيّ – (د . ت) .
❁ الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم – د. محمد فريد عبدالله – الطبعة الأولى – دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر – بيروت – 2008 م .
❁ الصورة الفنّية في المثل القرآنيّ ، دراسة نقدية بلاغيّة – د . محمد حسين عليّ الصغير – دار الرشيد للنشر – بغداد – 1981 م .
❁ الطبيعة في القرآن الكريم – د . قاصد ياسر الزيديّ – دار الرشيد للنشر – بغداد - 1980 م .
❁ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلويّ (ت 749 هـ)– مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1415 هـ - 1995 م .
❁ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – بهاء الدين السبكيّ (ت 773 هـ)– تحقيق : عبد الحميد الهنداويّ الطبعة الأولى– المكتبة العصريّة– بيروت – 1493هـ - 2003م .

❁ علم البديع – د . عبد العزيز عتيق – دار الأفاق العربيّة – القاهرة – 1404 هـ - 2004 م .
❁ علم البديع ، دراسة تأريخيّة وفنّية لأصول البلاغة ومسائل البديع – د . بسيوني عبد الفتاح فيّود –الطبعة الثانية – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، دار المعالم الثقافيّة االنشر والتوزيع – السعوديّة – 1418 هـ - 1998 م .
❁ علم البيان ، دراسة تحليليّة لمسائل البيان – د . بسيوني عبد الفتاح فيّود – الطبعة الثانية – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – مصر ، دار المعالم الثقافيّة – الإحساء – 1418 هـ - 1998 م .

❁ علم المعاني – عبد العزيز عتيق – الطبعة الأولى – دار الأفاق العربيّة – القاهرة – 1427 هـ - 2006 م .
❁ العين – الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت 170 هـ) – ترتيب وتحقيق : د . عبد الحميد هنداويّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1424 هـ - 2003 م .
❁ فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن عليّ بن محمد الشوكانيّ (ت 1250 هـ)– ضبطه وصححه : أحمد عبد السلام – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1415 هـ - 1994 م .
❁ الفروق اللغويّة – أبو هلال العسكريّ (ت 400 هـ) – علّق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود – الطبعة الرابعة – دار الكتب العلميّة – بيروت 1427 هـ - 2006م .
❁ فنون التصوير البيانيّ – د . توفيق الفيل – الطبعة الأولى – منشورات ذات السلاسل – الكويت – 1407 هـ - 1987 م .
❁ في ظلال القرآن – سيد قطب – الطبعة الرابعة والثلاثون – دار الشروق – القاهرة – 1425 هـ - 2004 م .

❁ القاموس المحيط – الفيروز آبادي (ت 816 هـ) – إعداد وتقديم : محمد عبد الرحمن المرعشليّ – الطبعة الثانية – دار إحياء التراث العربيّ – بيروت – 1424 هـ - 2003 م .
❁ قصص القرآن دلاليّاً وجماليّاً – د . محمود البستانيّ – الطبعة الأولى – مؤسسة السبطين – إيران – 1425 هـ .
❁ كتاب سيبويه – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت 180 هـ) – تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون – الطبعة الرابعة – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1425 هـ - 2000م .
❁ كشاف إصطلاحات الفنون والعلوم – العلاّمة محمد عيّ التهانويّ (ت 1185 هـ)– تقديم وإشراف ومراجعة : د . رفيق العجم – تحقيق : د . عليّ دحروج – نقل النص الفارسيّ إلى العربيّة : د . عبد الله الخالديّ – الطبعة الأولى – مكتبة لبنان ناشرون – 1996 م .
❁ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – جار الله الزمخشريّ (ت 538 هـ)– رتبه وضبطه وصححه : محمد عبد السلام شاهين – الطبعة الخامسة – دار الكتب العلميّة – بيروت 2009 م .
❁ الكليّات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة – أبو البقاء الحسينيّ الكفويّ (ت 1094 هـ)– قابله على نسخة خطّية وأعدّه ووضع فهارسه : د . عدنان درويش ، محمد المصريّ – الطبعة الثانية – مؤسسة الرسالة – بيروت – 1419 هـ - 1998 م .
❁ لسان العرب – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقيّ(ت 711 هـ) – الطبعة الأولى – دار صادر – بيروت – 1997 م .
لسان العرب – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور االأفريقيّ – مراجعة وتدقيق : د . يوسف البقاعيّ ، إبراهيم شمس الدين ، نضال عليّ - الطبعة الأولى – مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات – بيروت – 1426 هـ - 2005 م .

❁ اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ – د . طه عبد الرحمن – الطبعة الأولى – المركز الثقافيّ العربيّ – بيروت / الدار البيضاء – 1998 م .
❁ اللغة العربيّة معناها ومبناها – د . تمّام حسّان – الهيأة المصريّة العامّة للكتاب – 1973 م .
❁ اللغة في الدرس البلاغيّ – د . عدنان عبد الكريم جمعة – الطبعة الأولى – دار السياب / لندن ، دار اليقظة الفكريّة / سوريا – 2008 م .
❁ المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآنيّ ، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجريّ – أحمد جمال العمريّ – مكتبة الخانجيّ – القاهرة – 1410 هـ - 1990 م .
❁ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير الجزريّ (ت 637 هـ)– حققه وعلّق عليه : كامل محمد محمد عويضة – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1419 هـ - 1998 م .
❁ مجاز القرآن – أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت 210 هـ) – تحقيق وتعليق : أحمد فريد المزيديّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1427 هـ - 2006 م .
❁ مجمع البيان في تفسير القرآن – الفضل بن الحسن الطبرسيّ(ت 548 هـ) – الطبعة الأولى – دار الأسوة للطباعة والنشر – طهران – 1426 هـ .

❁ مختار الصحاح – محمد بن أبي بكر الرازيّ (ت 606 هـ)– منشورات مكتبة النهضة – بغداد – 1983 م .
❁ مختصر تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل – الشيخ عبد الغني الدقر – الطبعة الأولى – اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق – 1415 هـ - 1994 م .

❁ المدارس النحويّة – شوقي ضيف – الطبعة الثانية – دار المعارف – القاهرة – 1972 م .
❁ المشاهد في القرآن الكريم ، دراسة تحليليّة وصفيّة – د . حامد صادق قنيبيّ – الطبعة الأولى – مكتبة المنار – الزرقاء – 1984 م .
❁ مشاهد القيامة في القرآن – سيد قطب – دار الشروق – القاهرة – (د . ت) .
❁ المطوّل ، شرح تلخيص مفتاح العلوم – سعد الدين التفتازانيّ – تحقيق : عبد الحميد هنداويّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1424 هـ .
❁ معاني الأبنية في العربيّة – د. فاضل السامرّائيّ – الطبعة الأولى – ساعدت جامعة بغداد على نشره – 1401هـ - 1981 م .
❁ معاني الحروف – عليّ بن عيسى الرمّانيّ(ت 386 هـ) – حققه وخرّج شواهده وعلّق عليه وقدّم له وترجم : عبد الفتاح إسماعيل شلبيّ – دار ومكتبة الهلال – بيروت – 1429 هـ - 2008 م .
❁ معاني القرآن – سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط(ت 215 هـ) – قدّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1423 هـ - 2002 م .
❁ معاني القرآن – يحيى بن زياد الفرّاء(ت 207 هـ) – قدّم له وعلّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين – الطبعة الأواى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1423هـ - 2002 م .
❁ معاني النحو – د . فاضل السامرّائيّ – الطبعة الثانية – شركة العاتك للطبع والنشر والتوزيع – القاهرة – 1423 هـ - 2003 م .
❁ معترك الأقران في إعجاز القرآن – جلال الدين السيوطيّ (ت 911 هـ)– ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1408 هـ - 1988 م .

❁ المعجم الفلسفيّ – د . جميل صليبا – الطبعة الأولى – منشورات دار ذوي القربى - (د. ت).
❁ معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها – د. أحمد مطلوب – مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ – 1406 هـ - 1986 م .
❁ معجم مصطلحات المنطق – جعفر الحسينيّ – الطبعة الأولى التجريبيّة – دار الإعتصام للطباعة والنشر – (د . ت) .
❁ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف / عن الكتب الستة وعن مسند الداريّ وموطّأ مالك ومسند أحمد بن حنبل – مطبعة بريل في مدينة ليدن – 1965 م .
❁ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – وضعه : محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى – منشورات الأعلميّ للمطبوعات – بيروت – 1420 هـ - 1999 م .
❁ المعنى القرآنيّ بين التفسير والتأويل ، دراسة تحليليّة معرفيّة في النص القرآنيّ – عباس أمير – الطبعة الأولى – مؤسسة الإنتشار العربيّ – بيروت – 2008 م .
❁ المغني في أبواب التوحيد والعدل – القاضي عبد الجبّار الأسد آبادي (ت 415 هـ) – تحقيق : د . محمود محمد قاسم – مراجعة : إبراهيم مدكور – إشراف : طه حسين .
❁ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام الأنصاريّ (ت 761 هـ)– تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصريّة – بيروت – 1428 هـ - 2007 م .
❁ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير – فخر الدين الرازيّ (ت 606 هـ)– الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1421 هـ - 2000 م .
❁ مفتاح العلوم – يوسف بن محمد السكاكيّ (ت 626 هـ)– تحقيق : عبد الحميد هنداويّ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلميّة – بيروت – 1420 هـ - 2000 م .
❁ مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهانيّ (ت 425 هـ)– تحقيق : عدنان داوودي – الطبعة الثانية – الناشر طليعة النور – قم – 1427 هـ .

❁ المفصّل في تأريخ النحو العربيّ – د . محمد خير الحلوانيّ – الطبعة الأولى – مؤسسة الرسالة – سوريا – 1399 هـ - 1979 م .
❁ مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن – د . نصر حامد أبو زيد – الطبعة الخامسة – المركز الثقافيّ العربيّ – الدار البيضاء – 2000 م .
❁ مقاييس اللغة – أحمد بن فارس (ت 395 هـ)– تحقيق : عبد السلام هارون – دار الفكر – (د . ت) .
❁ من أساليب التعبير القرآنيّ ، دراسة لغويّة وأسلوبيّة في ضوء النص القرآنيّ – د . طالب محمد إسماعيل الزوبعيّ – الطبعة الأولى – دار النهضة العربيّة – بيروت – 1996 م .
❁ من بلاغة النظم العربيّ ، دراسة تحليليّة لمسائل علم المعاني – د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة – الطبعة الثانية – عالم الكتب – بيروت – 1405 هـ - 1984 م .
❁ منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجنّيّ (ت 684 هـ)– تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة – الطبعة الرابعة– دار الغرب الإسلاميّ – بيروت – 2007 م .
❁ موسوعة الإمام المهديّ –محمد الصدر – الطبعة الأولى – دار الفقه للطباعة والنشر – 1424 هـ .
❁ الميزان في تفسير القرآن – العلاّمة محمد حسين الطباطبائيّ – الطبعة الأولى – مطبعة ثامن الحجج (ع) – قم – 1426 ق – هـ .
❁ نحو المعاني – د. أحمد عبد الستار الجواريّ – المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر – 2006 م .
❁ النحو الوافي ، مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجدّدة – عباس حسن – الطبعة الأولى – مكتبة المحمديّ – بيروت – 1428 هـ - 2007 م .
❁ نظرية المعرفة في القرآن – جوادي آملي – الطبعة الأولى – ترجمة : دار الإسراء للتحقيق والنشر – الناشر : دار الصفوة – بيروت – 1417 هـ - 1996 م .

❁ النكت في إعجاز القرآن – الرمانيّ (ت 386 هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمّاني والخطابيّ والجرجانيّ ، في الدراسات القرآنيّة والنقد الأدبيّ – حققها وعلّق عليها : محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلاّم – الطبعة الثالثة – دار المعارف – مصر – 1976 م .

❁ نهج البلاغة . وهو ما جمعه الشريف الرضي من خطب ، ووصايا ،وكتب ،وكلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) – شرح : محمد عبده – الطبعة الأولى – مؤسسة التأريخ العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – (د . ت) .

الرسائل الجامعيّة :

❁ بنى الجدل في الخطاب القرآنيّ – خولة عبد الحميد – أطروحة دكتوراه– كليّة التربيّة – جامعة بغداد – 2002 م .

❁ الجوابات في التعبير القرآنيّ الكريم – سعاد كريم خشيف الإزيرجاويّ – أطروحة دكتوراه – كليّة التربيّة للبنات – جامعة بغداد – 2002 م .

❁ المحاجّة في القرآن الكريم – أسيل متعب مطرود – أطروحة دكتوراه – كليّة التربيّة – جامعة بغداد – 2002 م .

البحوث العلميّة والمجلات :

❁ التشاكل الصوتيّ القرآنيّ وأثره في تكثيف الدلالات – د . سعاد كريم خشيف الإزيرجاويّ – بحث مخطوط ، مقبول للنشر في 7 / 10 / 2004 م – مجلة جامعة ذي قار .

❁ الزمان والمكان في القرآن الكريم – عدنان أبو شعر – بحث منشور على الأنترنيت (wata .cc) .

❁ الـزمن الإفتراضـيّ فـي القـرآن الكـريم – بحـث منشـور علـى الأنترنيـت (ushaaqallah . com .category/135) .
❁ الـزمن بـين العلـم والقـرآن – د . منصـور محمد حسـب النبـيّ – بحـث منشـور علـى الأنترنيت (quran . m / com) .
❁ الفرضيّة في التعبير القرآنـيّ الكريم – د . سعاد كريم خشيف الإزيرجـاويّ – بحث منشور ، مجلة أبحاث البصرة / المجلد 36 / العدد 1 – 2011 .
❁ نظريـة العلـم فـي القـرآن ، ومـدخل جديـد للتفسـير – غالـب حسـن – مجلّـة قضـايا إسلاميّة معاصرة – الطبعة الأولى – دار الهادي – 1421 هـ - 2001 م .